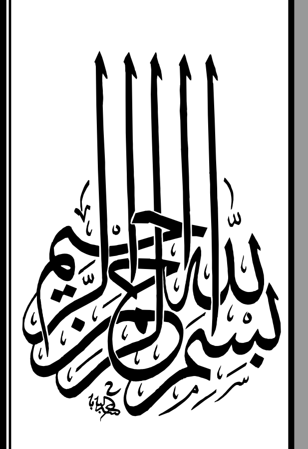


الشَّيخُ الدُّكْتُور
جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُهَلْهِلِ الْيَاسِينِ

شيء
من الحقيقة



الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بطاقة الكتاب

اسم الكتـــاب : شيء من الحقيقة
المؤلف : الشيخ د / جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الناشــر : شركة السماحة للنشر والتوزيع
الكويت

الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة

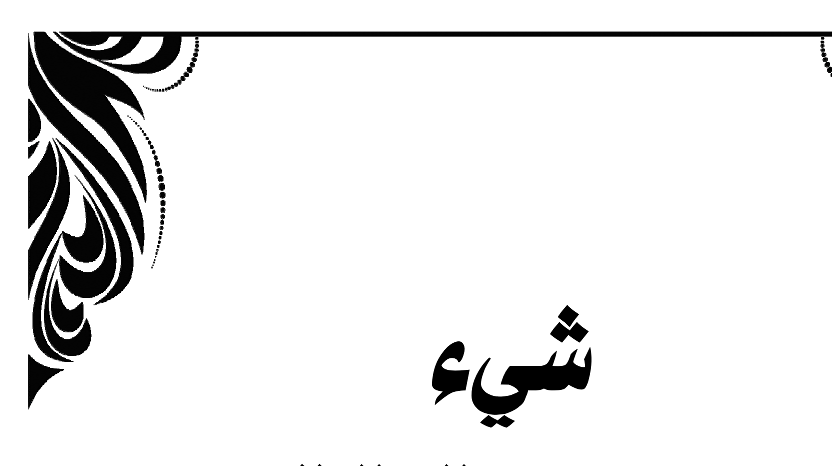
عدد الصفحــات :

عــدد المــلازم :

مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤

رقــم الإيـداع :

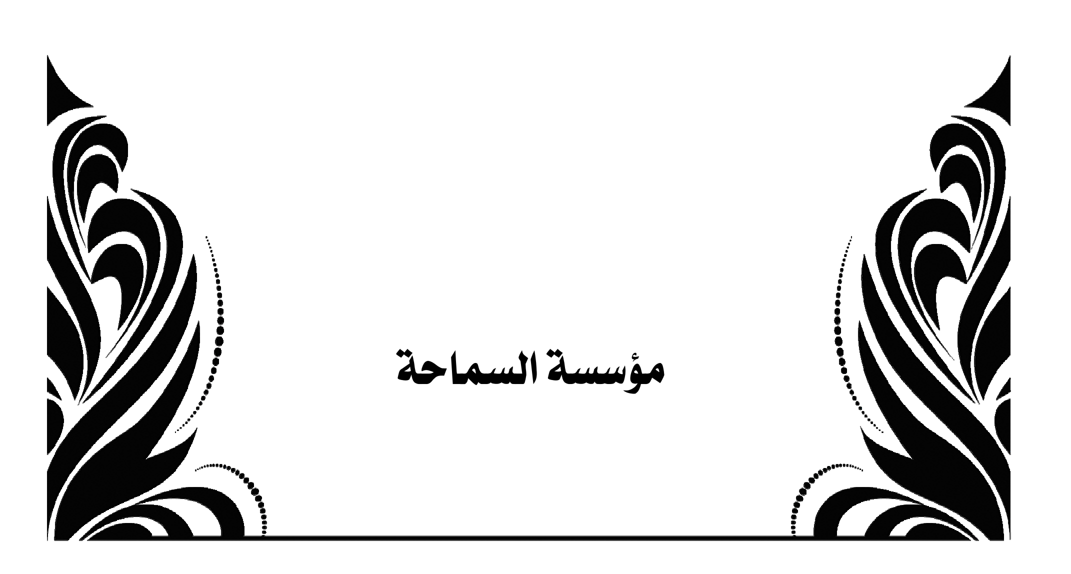
شركة السماحة للطباعة والنشر
والتوزيع - الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان



شيء من الحقيقة

الشَّيْخ الدُّكْتور:

جاسِمُ بْنُ محمد بن مُهَلْهِلِ الْيَاسِين



مؤسسة السماحة

الطبعة الثانية

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

في الكويت من: شركة السماحة - الكويت.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من: بدور للثقافة والترجمة



إِلَىٰ **وَالِدَتِي مُنِيرَةَ**، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَىٰ الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَىٰ الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَىٰ الآخَرِينَ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَىٰ فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِها – رَحِمَهَا اللهُ – بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أَمّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالممَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ – فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ – خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي – رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَىٰ. وَأَسْأَلُ الله – سُبْحَانَهُ – أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّىٰ بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئَاً، حَتَّىٰ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحّي بِصِحَّتِها وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَـذَا الإِهْـدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَـىٰ وَالِـدَتِي أهْـدِي ثَـوَابَ هَـذِهِ الرَّسَـائِلِ، لَعَلّـي أُؤَدّي زَفْـرَةً مِـنْ زَفرَاتِهَـا فِـي وِلادَتِي.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْنـًا فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أوْلادِي جَمِيعـًا، ذُكُوراً وَإِنَاثـًا.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلّ مَنْ أسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَـدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أكْتُبُ هَذَا الإِهْـدَاءَ، أَرْجُـو مِـنْ إِخْـوَانِي الَّـذِينَ يَكُـونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَـذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعـًا مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الإهْداءُ شعْرًا

أمَّــــاهُ كُنْــتِ مُنِيــــرَةً وَمَنَــــارَةً
عُلْيَــا وَصَــــرْحـاً ثابــتَ الأَرْكَــانِ

قَــدْ كُنْــتِ مَدْرَسَــةً تُعِــدُّ نُفُوسَنَــا
لِــصَنَائِعِ المَعْــــرُوفِ وَالإِحْــسَانِ

قــَدْ كُنْــتِ لِلأَيْتَــامِ أُمَّـــا بَـــرَّةً
وَالجَــارِ وَالمِــسْكِينِ أَرْأَفَ حَــانِ

أَرْضَــعْتِنَا الأَخْــلاقَ شَــهْدَاً سَلْــسَلاً
تَــدْنُو ثِمَـــارُ قُطُوفِهَـــا لِلْجَــانِي

عَلَّمْتِنَـــا الــصَّبْرَ الجَــمِيلَ خَــلِيقَةً
وَالقَوْلَ لِلحُسْنَىٰ وَكَفَّ لِسَانِ

❋ ❋ ❋

أبَتَـــاهُ قَـــدْ رَبَّيْتَنِـــي وَأَحَــطْتَنِي
بِرِعَايَـــةٍ فِـــي غِبْطَـــةٍ وَأَمَـــانِ

وَفَّــرْتَ أَسْـبَابَ الــسَّعَادَةِ وَالهَنَــا
فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَىٰ الأَقْرَانِ

فَجَــزَاكَ رَبُّ العَــرْشِ خَيْــرَ جَزَائِــهِ
وَأُسْــكِنْتَ فِــي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَــانِ

❋ ❋ ❋

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَا سُبُلَ العُلا
بالفَـــضْلِ لاَ فَـــظٍّ وَلاَ مَنَّــــانِ

كَــمْ ذَا تُقَابِــلُ بِالــسُّرورِ تَــدَلُّلِي
بِمَحَبَّـــةٍ وَبِرَأْفَـــةٍ وَحَنَـــانِ

أَحْبَبْتَنِـــي قَـرَّبْتَنِـــي رَبَّيْتَنِـــي
بالعِــزِّ فِـي ثِقَــةٍ وَفِــي اطْمِئْنَـانِ

❋ ❋ ❋

أرَفيقَتِــي كُنْــتِ الــشُّعَاعَ إِذا دَجَـا
لَيْـلُ الحَيَـاةِ بِمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ

قَــدْ كُنْــتِ خَيْــرَ شَرِيكَــةٍ وَمُعِينَــةٍ
فِـي البِـرِّ عِنْــدَ تَقَــاعُسِ الأَعْــوَانِ

الــصَّبْرُ فِيــكِ مَــعَ الوَفَــاءِ سَــجِيَّةٌ
بِتَعَـاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

❋ ❋ ❋

يَــا حَبَّــذَا **أَفْــلاذُ أَكْبَــادٍ** بِهَــا
كَــمُلَ المُــرَادُ وَقَــرَّتِ العَيْنَــانِ

فَاحْفَـظْ **مُعَـاذاً** وَاحْفَظَـنَّ **مُهَلْهِلاً** أَمَـدَ الزَّمَـانِ **وَعَابِـدَ الـرَّحْمَنِ**

لاَ زَالَ **عَبْـدُ اللهِ** فِـي حِفْـظٍ وَلاَ زَالُـوا جَـمِيعـاً غُـرَّةَ الفِتْيَـانِ

وَلْتَـحْظَ **عَائِـشَةٌ وَفَاطِـمَةٌ** بِمَـا قَـدْ شَـاءَتَا مِـنْ بُغْيَـةٍ وَأَمَـانِ

وَاحْفَـظْ **هَيَـا وَمُنِيـرَةً** يَـا رَبَّنَـا مِـنْ مُبْطِـنِ البَغْـضَاءِ وَالـشَّنَآنِ

❋ ❋ ❋

يَـا رَبِّ لاَ زَالَ الجَـمِيـعُ بِنِـعْمَةٍ وَقِـهِمْ شُـرُورَ الحَاسِـدِ المِعْيَـانِ

صَلَّىٰ الإِلـهُ عَـلَىٰ **النَّبِيِّ مُحَـمَّدٍ** وَالآلِ وَالأَصْحَـابِ كُـلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، الرحمة المهداة، وعلى آله ومن والاه.

وبعد:

فهذا الكتاب، وإن تنوعت قضاياه بين معالجة لأمور الحركة الإسلامية على الساحة في زواياها الفكرية والحركية والتنظيمية، وبين ما يمس واقعنا الاجتماعي إلاَّ أنها جميعًا يجمعها هَمّ الدعوة وحسّ الإنسان المسلم.

وواقع الحركة الإسلامية ودراسته، أمر في غاية الأهمية؛ فإذا كان الدين أكبر قيمة في حياة الإنسان، والتيارات الإسلامية ينبغي عليها أن تلتقي على القواسم المشتركة، وتعزز التعاون بينها، ويعذر بعضها بعضًا في نقاط الاختلاف، فالأصل أن أي تيار إسلامي يعد التقاءه مع التيارات الأخرى عنصر دعم، وإسناد يستحق التنسيق من أجله والتعاون لتحقيقه.

ولكن حالت موانع دون الجد في السير الصحيح تحولت إلى قضايا تؤرق أصحاب هذا المشروع الإصلاحي الكبير؛ منها: صنمية التحزب، وصنمية الأشخاص، والافتتان بالرموز، وصنمية الفروع والوسائل، وصنمية التجديد، وما تتولد عنه الصنمية من خطورة.

وقد يفتتن بعض الدعاة ببذل الأسباب ومتابعة تفاصيل الخطط، وحصر التفكير بالأساليب الإبداعية التي يخدم بها مؤسسته الدعوية ويغفل عن علاقته بمسبب الأسباب، ويلزم حد أدنى منها، فيصبح أمام تصوف حركي يذوب فيه الداعية بالأسباب وتفاصيلها، ويغفل عن تحسين علاقته مع الله، والداعية فقير إلى ربه وعليه أن يحذر من مثل هذا التصوف الحركي.

وأمام أمر النصيحة ـ وهو أصل في التواصي بالحق ـ يقف فريقان، كل منهما يسيء إلى هذا الأصل؛ إما بالإفراط أو بالتفريط، وإما بالغلو أو الانحراف. وأسباب

الانحراف عن المنهج القويم كثيرة، يقف على رأسها، تأليه ثقافة الآخر، والشعور أمامها بالدونية.

ومن القضايا على الساحة، قضية التجديد، الذي من مستلزماته، السعي لإحياء الدين في نفوس الناس على ما كان عليه في عهد القرون الأولى، وحفظ النصوص الشرعية صحيحة ونقية، واتباع المنهج السليم لفهمها، ولكن ممن تولَّى أمر التجديد أطراف تعتمد بالدرجة الأساسية على فهومها العقلية في التعامل مع النصوص دون أن تمتلك الوسائل المعينة على استخراج الأحكام.

وتأتي لعبة العمائم الليبرالية، لتحاول تجريد الدين من قيمه الأصيلة؛ بحجة تجديده، والخوف الآن أن يلبس هذا النوع من العمائم رموز وقدوات في جسد الصحوات الإسلامية، مما ينذر بتشويش القواعد الإسلامية، فلا بد من التفريق بين التجديد المرتبط بأصول وضوابط وقواعد استقرَّ عليها إجماع العلماء، وبين تجديد الدين من مضامينه بزعم تجديده.

ويأتي موقف الحركة الإسلامية في العصر الحديث من سيف السلطة وذهبها قضية أخرى، ويمكن تلخيص اتجاهات التيارات الإسلامية أمام سيف السلطة وذهبها باتجاه قريب من ذهبها وهو في الغالب المؤسسات الرسمية وبعض الرموز المستقلة وخاصة بعد تأميم الأوقاف الإسلامية. واتجاه آخر يعتمد على التغذية المرتدة وتطرف يتمثل في رفض شرعية السلطة وهذا ما يمثله فكر فرقة الخوارج والتكفير والهجرة، واتجاه ثالث يحاول أن يستفيد من الفرص التي توفرها السلطة دون أن يضطر إلى التغاضي عن أخطاء السلطة وابتعادها عن المواصفات الشرعية.

ويأتي السؤال الخجول: لماذا تأخر النصر؟ ومتى يأتي التمكين؟ والحركة الإسلامية تدرك أن غايتها لا تتوقف على تحقيق نصر سياسي أو عسكري، فغايتها الأساسية هي تعبيد الناس لله سبحانه، والحركة الإسلامية تدرك سنن التغير الاجتماعي وأن الباطل مهما علا فإن جذوره ضعيفة لا تملك مقومات البناء، وأن النصر بطبيعته لا يأتي للضعفاء القاعدين.

والاهتمام بالذاتية الدعوية قضية في غاية الأهمية، علينا أن نحرص عليها وأن نعمقها، وأن نأخذ بوسائل اكتسابها.

وتأتي قضية الازدواجية في المواقف والفكر والممارسة لتحتل مكان الخطورة، فأتباع الازدواجية يرون أن من يوافقهم على آرائهم له اعتباره ومكانه ووزنه، أما الآخر فلا حساب له، فيتبعون مثالبه وعوراته، ويفرحون بأخطائه، و ينشرونها بين الناس متناسين أدب النصيحة.

وازدواجية القوى الدولية في تعاملها مع قضايانا، وخاصة مع اليهود، لا يغفل عنها أحد. وفي الجانب الاجتماعي أصبحت الجدية عملة نادرة، وحتى لا تنقرض فعلينا أن نأخذ بوسائلها ليكون العطاء بلا حدود.

وتأتي فتنة المجاهرة بالمعاصي التي افتتن بها بعض الناس تحتاج إلى وقفة تحذير.

والإسلاميون على مفترق الطرق في موقفهم من الثقافة البصرية، فالبعض يتخذ مواقف حادة من وسائل الإعلام المرئية لأسباب وجيهة، والبعض الآخر يشترك مع الأول في خطورة الآثار السلبية مع التحرك للاستفادة من هذه الوسائل، والثالث تحولت همومه من مساوئ الفضائيات إلى إيجاد بدائل حقيقية. فالإعلام يصنع عقولاً، ويبني أفكارًا.

ونختم الكتاب بشيء من آداب الحوار والاختلاف، فالحوار لغة الحضارة، ونؤكد أن الاختلاف لا يؤدي بالضرورة إلى الخصومة، وقد كان الاختلاف واقعًا ملموسًا في عهد النبي ﷺ وفي عهد الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، واتباع أصول الحوار الصحيح والالتزام بأخلاقيات الحوار ووحدة الصف ونبذ الخلاف أمر ضروري.

وهذا الكتاب محاولة لسد الثغرات التي ظهرت في بناء الحركة الإسلامية، وواقعنا الحياتي.

والله أسأل أن يلهمنا الرشد والسداد.

الشَّيْخُ الدّكتُور
جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهل الْيَاسِين

الفصل الأول
واقع الحركة الإسلامية

المبحث الأول: الحركة الإسلامية بين الصنمية والصمدية.

المبحث الثاني: أوهام التصوف الحركي.

المبحث الثالث: الإسلام بين الوصاية والغواية.

المبحث الرابع: الإسلام بين دعاة التجديد والتجريد.

المبحث الخامس: الحركة الإسلامية بين ذهب المعز وسيفه.

المبحث السادس: بين التمكين والتقدير.

المبحث السابع: رايات الثبات في حياة الدعاة.

المبحث الثامن: عندما ترى النملة ولا ترى الفيل (ازدواجية الرؤية).

المبحث الأول
الحركة الإسلامية بين الصنمية والصمدية

كلما ظهرت بوادر انتخابات في أي ساحة سياسية، تَدَاعَى أبناء الصحوة إلى ضرورة تنسيق المواقف في الانتخابات حتى يصل أكبر عدد ممكن من الأصوات الإسلامية إلى البرلمان، وعادةً ما يأخذ مثل هذا التنسيق أوقاتًا وجهودًا طويلة من مختلف تيارات العمل الإسلامي، وكأن الفُرْقَة هي الأساس والتنسيق والتعاون هي الحالة الشاذة، على الرغم من حشد النصوص الشرعية التي تدعو إلى الوحدة من جهة، وتذم التفرّق والاختلاف من جهة أخرى.

وللأسف، فإنَّ أفكارًا مختلفة من أنماط التفكير، تَحُول دون التعاون في مواقع وقضايا كثيرة، وبعض أنماط هذا التفكير يتحول إلى حالة مقدسة لا يتنازل عنها صاحبها، وتصبح لديه كالصنم العقلي الذي يرفض المساس بالفكرة مهما تراءت له نتائج سلبية بسببها.

الحركة الإسلامية ليست مسؤولة عن تحقيق الثمار والنتائج، وما دامت قد أخلصت نواياها وبذلت أسبابها، فالنتائج موكولة إلى الله تعالى، وفي الحديث الصحيح قول النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»(١)، فهذا ليس دليل فشل ذاتي، فقد بلَّغَ الأنبياء رسالة ربهم، ولكن الظروف الموضوعية حالت دون ذلك، بلا تقصير من الأنبياء الذين اختارهم الله للبشرية.

فالحركة الإسلامية إذا أحسنت الأخذ بالأسباب لا تسأل عن النتائج، بل تَكِل ذلك إلى الله، وتجتهد في الدعاء والقبول، ومن الأخذ بالأسباب: ضرورة التعاون بين التيارات الإسلامية ابتداءً، ثم بينها وبين غيرها، على نقاط الاتفاق الرئيسة، وهذا لن يتم إذا بقيت العقلية الصنمية مسيطرة على رموز وشخصيات تيارات معينة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٧٥)، عن ابن عباس رضي الله عنه.

وفي حديثنا هذا استعراض لبعض أنواع التفكير الذي يقف عائقًا بصاحبه عن مدِّ يده لإخوانه من أجل الصالح العام للدعوة.

*** صنمية التحزُّب:**

من نافلة القول، الحديث عن مشروعية العمل الجماعي، فالتخصص مطلوب في مختلف مناحي الحياة، وإذا كانت هناك جماعات متخصصة في العمل التطوعي للحفاظ على البيئة، أو حماية الحيوان، أو لمحاربة آفات اجتماعية معينة؛ كغلاء المهور أو التدخين أو علاج البطالة أو غيرها من المشاكل الحياتية التي تتصدَّى لها جمعيات ومؤسسات المجتمع المدني بمختلف أنواعها وأشكالها وتنظيماتها، فإنه من باب أولى قياسًا أن يكون هناك متخصصون يعملون للقضايا الكبرى، ولا يوجد أكبر قيمة من الدين في حياة الإنسان، وبالتالي كان من الطبيعي وجود عمل جماعي منظم، جرى التعبير عنه بمصطلح التيار الإسلامي أو الجماعات الإسلامية أو الصحوة الإسلامية أو التيارات الحركية الإسلامية وغيرها من الأسماء والمصطلحات، ولأنَّ تقييم مواقع الخلل في المجتمعات الإسلامية مختلف من جماعة لأخرى، فكان من الطبيعي أن يختلف منظور الحل، وأولويات العمل لديها، وبالتالي قد تختلف حتى وسائل العمل لدى تلك الجماعات دون نفي وجود قواسم مشتركة في الغايات والوسائل مع اختلاف في الأولويات وأساليب العمل.

هذا الاختلاف الطبيعي ليس عيبًا، وكان من المفترض أن يكون مصدر حيوية وإثراء داخل جسد الحركة الإسلامية الممتد، فتصبح الحركة الإسلامية مجموعة من التيارات الإصلاحية المتخصصة، كل يعمل حسب برنامج أولويات تبعًا لتقييمه للأزمة التي تعيشها الأمة وسُبُل الخروج منها، وكان الوضع الطبيعي أن تلتقي تلك التيارات على القواسم المشتركة، وتعزز التعاون بينها ويعذر بعضها بعضًا في نقاط الاختلاف، وفق القاعدة الشهيرة: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»، وكان الأصل أن أي تيار إسلامي يعد التقاءه مع التيارات الأخرى عنصر دعم وإسناد يستحق التنسيق من أجله، والتعاون لتحقيقه.

ولكن صنمية التحزب حالت ـ للأسف ـ دون هذه القضية، وتحوَّلت المسألة إلى «غيرة حركية» وقصف فكري للمخالفين، وانشغال بصراعات وتشققات داخلية لن تخرج نتيجتها عن إضعاف العمل الإسلامي وقسوة القلب، ولدينا أمثلة في هذا الموضوع يشيب لها الرأس، عطلت بسببها طاقات وضاعت جهود وفرص، ولم تعد على الدعوة إلاَّ بالتراجع.

فقد تابعنا منذ عقود النقد المستمر لحركة الإخوان المسلمين في مصر من قبل الجماعة الإسلامية هناك، واتهام الحركة بالارتماء في أحضان السلطة والتخلِّي عن الجهاد والرضا بالفتات من خلال العمل في البرلمان أو النقابات، ثم بعد كل تلك الاتهامات، عادت الجماعة الإسلامية لتقدم مراجعاتها بأن العنف أو الجهاد الذي اتخذوه منهجًا لم يكن صائبًا ولا مجديًا ولا يصبّ في خدمة المشروع الإسلامي كما لا يصبّ في مصلحة الدعاة ولا الوطن، وهذا التحوّل في تفكير الجماعة الإسلامية كان ينبغي أن يُصَاحَبَ بنوعٍ من الاعتراف الأدبي بخطأ استعداء حركة الإخوان، وعلى الأقل، تركها تعمل دون اتهامها بالعمالة والتخوين...

إنَّ صنمية التحزّب قاتلة لأجواء العمل الدعوي، حتى مع أولئك الذين يهاجمون التحزب الحركي ليل نهار، فتلك المجموعات التي تزعم نبذ الحزبية، وتهاجم «بدعية التحزّب والجماعات الإسلامية» وتفريقها لجماعة المسلمين، هم أنفسهم تحوَّلُوا إلى التحزّب، وبقدر من التحزب يتفوق على ما لدى الآخرين، حتى وصل الأمر بهم إلى تقديس كلام الشيخ أكثر بكثير من الأتباع المرتبطين ببيعة مع جماعة، فوقعوا فيما نفروا الناس منه، وإن لم يعلنوها حزبية صريحة وواضحة.

هذه الحزبية ـ أحيانًا ـ تضرّ بالعاملين في الحركة الإسلامية، حتى أولئك الذين في الصفوف الأولى في المواجهة مع العدو، وكم سمعنا من الطعن والهمز واللمز من فئة محددة في حركة حماس والجهاد؛ لأنهم ليسوا من أهل العقيدة الصحيحة، وبالتالي فهم غير مؤهلين للنصر، وحصروا النصر فقط في فئتهم وأنصارهم هم ومن يتبعهم، على الرغم من بضاعتهم المزجاة وتاريخهم الفقير في الجهاد عن الأمة وقضاياها.

وانظر إلى جواب الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ عندما سُئِلَ عن كثرة الجماعات الإسلامية وأيها الصواب، فأجاب فضيلته: «الجماعة التي يجب اتِّباعها والسير على منهجها، هم: أهل الصراط المستقيم... هم أتباع الكتاب والسُّنة... أمَّا الجماعات الأخرى فلا تسمع لها إلاَّ إذا وافقت الحق سواء كانوا «الإخوان المسلمون» أو «جماعة التبليغ» أو «أنصار السُّنة» أو من يقولون: «إنهم السلفيون»... يُطَاعُونَ ويُتَّبَعُونَ في الحقِّ، ما قام عليه الدليل... وما خالف الدليل يُرَدُّ عليهم... فما وافق الدليل هو الحق... وما خالف الدليل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ يكون خطأ».

فأين هذا التأصيل الشرعيّ الرَّاقي من صنمية التحزّب التي تركت الدعوة والعمل لدين الله وتفرَّغت لتبديع الجماعات الأخرى والبحث عن زلاَّتها ومحاربة رموزها والتحذير من مؤلفاتهم ومصنَّفاتهم، مع زيادة التحزّب من خلال كتمان حسنات المخالفين وبذلهم وعطائهم ونجاحاتهم في الدعوة إلى الله، وتسفيه إنجازاتهم ووضع العراقيل أمامهم، فإذا لم تكن هذه هي الحزبية المقيتة، فكيف يكون؟!

صنمية التحزّب هذه حرمت الجماعات التي تمارسها من الإفادة من الطاقات والكفاءات والإمكانات الموجودة لدى الآخرين، الأمر الذي أدَّى لعزلتها وفقرها الفكري؛ مما دفع بعض أفرادها غير المؤهلين لاستدراك هذا الفقر الفكري إلى التطاول وتناول مسائل فكرية وعقدية خطيرة دون تمكن شرعي منها؛ مما أدخل تلك الجماعات في متاهات وضياع وعجز، انتهى بها إلى تكريس الأخطاء، وتشكيل قناعات فكرية هشَّة، أبقت على هامش العمل الإسلامي مع معاناة واضحة في العزوف الجماهيري.

فكان من الطبيعي ـ للأسف الشديد ـ أن نرى بعض هذه الجماعات، قد توغَّلت في الدماء بشكل مرعب ومخيف، ونشروا فتاوى عجيبة؛ كقتل «عائلات الطواغيت» من نساء وأطفال، ثم ثنوا ذلك بقتل المبتدعة وأنصار الحوار من الطاغوت، ثم ختموا هذا الفقه الأعمى بقتل أنصارهم الذين يعود لديهم بعض الوعي بعد مشاهد العنف والدماء التي جرَّتها عليهم فتاوى «صبيان الفقه».

* **صنمية الأشخاص:**

الإعجاب بالأشخاص ـ وخاصة الرموز ـ من طبيعة النفس البشرية في بحثها عن الكمال البشري والإنساني، ولم تتوقف محاولة تجسيد القيم والمثل العليا في أشخاص ورموز تطبق تلك القيم وتُعلي من شأنها وتضحي في سبيلها، والله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما أنزل الكتب السماوية لهداية البشرية، أرسل الأنبياء والرُّسُل ليكونوا نماذج تطبيقية وعملية للتعاليم السامية للكتب السماوية.

وكان العلماء ـ دائمًا ـ يوجِّهُون الناس إلى الاقتداء بالنبي ﷺ والتي نقلت لنا كتب السيرة والتراجم والشمائل والغزوات، كل شأن من شؤونه لتقتدي به الأمَّة، وأصبحت سنته المطهرة المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، وجعلت من شروط قبول العمل بالإضافة إلى الإخلاص: الاتِّباع، وهو متابعة هَدْي النبيِّ ﷺ وتجنّب الابتداع في دين الله.

وكان العلماء يحذِّرُونَ من الاقتداء بالأحياء؛ لأنَّ الحي معرَّض للفتنة والتقلّب، وبعض هذه الفتن من الأحياء ـ وخاصة الرموز منهم ـ قد لا تحدث بشكل انقلاب شامل ومفاجئ في الفكر والسلوك ومنظومة القيم التي يحملها وينشرها بين الناس، بل قد تكون الفتنة على شكل استدراج خفي، يقع في الرمز ولا يعلم هو نفسه أنه انحرف عن منظومة القيم التي شكَّلت أساس إعجاب الابتداع به.

ولدينا في التاريخ القديم والحديث نماذج عديدة، وقد طرح بعض الباحثين في التاريخ، أن من أسباب ثورة الناس على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الصحابيّ الذي تستحي منه الملائكة، هي الشخصية الكاريزمية التي كان يحظى بها الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبغض النظر عن صحة وجهة النظر ه ذه، فإنَّ الشاهد في المسألة: هو بحث الناس عن رمز تقتدي به وتتطلع إليه، خاصة في أوقات المحن والضعف، ولعلَّ هذا يفسّر مثلاً: شعبية أسامة بن لادن بين أتباعه ولدى قطاعات متنوعة في العالم الإسلامي، كما تفسّر شعبية طاغية مثل صدام حسين لدى قطاعات أخرى من شعوب العالم العربي.

* صنمية الافتتان بالرموز:

وفي الشأن الإسلامي لا تختلف القاعدة كثيرًا، وصنمية الافتتان بالرموز تتكرر بأشكال أو بأخرى، ومن ثم تُحْتَكَرُ القيم والأفكار في مجموعة أشخاص، ولا تعجب مثلاً إذا صرَّح أحدهم وقال: مَنْ لَمْ يكن على منهج الشيوخ الثلاثة: «ابن باز، وابن عثيمين، والألباني» فليس سلفيّا!!

وكأن السلفيَّة لديها شهادة ميلاد أو إثبات مواطنة أو مِلْك شخصي لا تُعطى إلاَّ لمن يتصل بهذه الرموز الثلاثة، وهذا ـ كما قلنا ـ من منهج الافتتان بالرموز ومن صنمية الأشخاص وتقديم الولاء للأشخاص على الولاء للمنهج والفكر، بينما الشيخ ابن باز نفسه ـ رحمه الله ـ يقول: «إذا وُجِدَ إنسان أو جماعة تدعو إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وتدعو إلى توحيد الله واتِّباع شريعته، فهؤلاء هم الفرقة الناجية، وإذا تسمَّى بعضهم بأنصار السُّنة، وتَسمَّى بعضهم بالإخوان المسلمين أو تَسمَّى بعضهم بجماعة كذا وجماعة كذا، لا يضرهم ذلك إذا جاء الصِّدْق».

فمنهج الصنمية للرموز هو الذي يجعل البعض يقدم طلب انتداب من وظيفة الدعوة؛ ليعمل في وظيفة التصنيف والطعن في الرموز التي لا تفكر بنفس نمطه الفكري، وبينما نجد كل الدعوات الأرضية تسعى لتوسيع قواعدها وكسب الأنصار والبحث عن القواسم المشتركة مع الآخرين، نجد هذا الصنف يضيق الحق على منهجه ورموزه، بينما الآخرون في نظره لا يعتبرون مجتهدين في البحث عن الحقِّ وهم وأولوياتهم ومناهجهم وبرامجهم تشكيلة من المنحرفين والمبتدعة، ويجب طبع المنشورات والكتيبات للتحذير منهم ومن رموزهم وأفكارهم؛ حتى تبقى الدعوة ـ بزعمه ـ نقية بعد أن حوَّلها فضيلته إلى محكمة تفتيش دعوية لم تُبْقِ وَلَمْ تَذَرْ!!

وبهذه العقلية، رأينا كيف تصرَّف البعض مع الأخ عمرو خالد الذي استطاع أن يصل إلى شريحة من الشباب والفتيات عجزت عن الوصول إليها التيارات الإسلامية التقليدية، وبدلاً من مساندة الأخ في اختراق طبقة جديدة من المجتمع، كان من الصعب أن تصلهم الدعوة بالآليات التقليدية، وبدلاً من الدفاع عنه أمام

خصومه الذين ترصَّدُوا له في كل خطوة، أصبح البعض سلاحًا ضده، وظل يتصيَّد له أي مخالفة في الفروع والتفاصيل، لاغيًا المساحة العريضة والطويلة التي يتفق معه عليها، وما هو إلاَّ بسبب صنمية الأشخاص أو الحسد المقِيت!!

* **صنمية الفروع والوسائل:**

وهذه الصنمية تنتج عن غلو في الفروع والوسائل، حتى أصبح فقه الفروع لدى البعض هو عمود الدين وذروة أمره، وهو أمر متوقع لدى من يبحثون عن تصنيف الناس والتمايز بينهم.

فهناك من يريد أن يتميز بعلمه وفقهه ومنهجه عن بقية الجماعات والتيارات الإسلامية وحتى الأفراد، وعندما يبحث في الأصول والكليات يجد أن الجميع متفق عليها، فلا تعطيه ما يريد من تمايز، فيلجأ إلى الفروع والتفصيلات، فيجد بها ما يريد؛ لأنَّ الاتفاق عليها أمر متعذر والخلاف بها جائز، ولكنه لا يحقق أيضًا التميز الذي يريده؛ لأنَّها في النهاية فروع وليست أصولاً أو كليات، فيعلي من شأنها ويدندن عليها حتى يصبح تمايزهذا قيمة عن الآخرين، ولذلك وجدنا معارك من هذا النوع جاءت وذهبت ولم ينتج عنها إلاَّ ضياع الأوقات والجهود.

وقد سرد لنا التاريخ كيف قسمت تلك الفروع الأمة، وأقامت في فترة من الفترات الصلاة أربع مرات: واحدة للأحناف وثانية للشافعية وثالثة للمالكية ورابعة للحنابلة، وكان هذا الانقسام يقع في الأزهر كما يقع في الحرم المكي، حتى غيَّرَ الله الحال وصلَّى الكلّ وراء إمام واحد.

فكان توسيع مساحة فقه الفروع على حساب تضييق مساحة الكليات والأصول، وكان الأصل إلاَّ يُوهِنَ الخلاف الفقهي العلاقات الأخوية القائمة، لا أن يزيده ويؤصّله، ويُحْدِث قطيعة بين الجميع مع ميل شديد للتعصب والغلو وتصيّد لأخطاء عوام الناس، حتى يسيطر عليهم حبّ المسارعة في الحكم بالفسق والابتداع وكأن الأصل عندهم أن الناس مذنبون حتى تثبت براءتهم!!

ولا نريد أن ندخل في أمثلة لهذه الصنمية، ويكفي المساحات التي اتخذتها مسائل مثل: رؤية الهلال بالعين المجردة أم بالحساب الفلكي؟ وهل تخرج زكاة الفطر قمحًا وشعيرًا أم مالاً؟ وهل تقرأ بعد الإمام أو نكتفي بقراءته؟ وهل...؟!

أمَّا صنمية الوسائل، فهي ضائعة بين فريقين: فريق يرى وسائل الدعوة توقيفية، وبالتالي فإن كل وسيلة لم ترد في عهد النبي ﷺ تعتبر مبتدعة؟! وفريق آخر ترك الباب مفتوحًا على الآخر، وقبل أي وسيلة حتى لو كان بها دخَن!!

إنَّ صنمية الفروع والوسائل، على الرغم من وضوح الطريق إليها، إلاَّ أنَّها للأسف استهلكت جهودًا كثيرة وبلا طائل من ورائها إلاَّ زيادة مساحات الخلاف والجدل، ولدينا منه الكثير!!

*** صنمية التجديد:**

يفتن البعض ـ إلى حد الهوس ـ بموضوع التجديد، وربما لديه قناعة: أنَّ المفكر المسلم المطلع على أحوال العالم وأفكاره، والمتحرر من قيود الجمود والتقليد هو الذي سيقود عملية التجديد، وهذا وهم وظن في غير محله، فالتجديد يقوده عالم متبحر متمكّن من علوم الشريعة وأسرارها قبل أن يكون متبحرًا في واقع الناس وقضاياهم المعاصرة؛ لأنَّ العالم المتبحر يستطيع أن يفرّق بين الوسائل والغايات، وبين الثوابت والمتغيرات وبين الأحكام والمقاصد، كما يعرض الآراء الفقهية المختلفة في المسألة الواحدة، وأدلة كل فريق وترجيحاته وطبيعة الأحكام وظروفها وبيئتها ومستجداتها.

*** المجدد يأتي من بيت الشريعة:**

فالمجدِّدُ يأتي من بيت الشريعة لا من خارجها، فالشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مثلاً لا نستطيع أن نصنّفه كـ «مفكر إسلامي» لكنه عالم جليل وجبل أشم من علماء الشريعة الأفذاذ، عندما جاء وجد أمامه حجارة وحديدًا من المفاهيم، فاستعان بالله ثم بدأ منهج التنقية، فكتب الله على يديه تجديدًا لهذه الأمَّة في فهمها لدينها.

كما لا يمكن أن يكون مجددًا مَنْ يكون ضعيف الصلة بالقرآن الكريم،

فالمحجوب عن هداية القرآن لا ينبغي أن يشتغل بالأصول ويستنبط الأحكام، فإنه قلَّما يصل إلى حقائق الأمور، ما دامت صلته بالقرآن ضعيفة وقاصرة، ومن الخطورة الدفاع عن الإسلام أمام خصومه بنظريات جديدة تخالف ما تذهب إليه النصوص والأدلَّة وضوابط الاستدلال، ومن الخطورة القول على الله بغير علم. قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

قال ابن القيم في «إعلام الموقّعين»: «رتَّب الله تعالى المحرَّمات على أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشد تحريمًا منه وهو: الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا وهو: الشرك بالله سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله وهو: القول عليه بلا علم».

وفي الحديث الشريف: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ»[2]، فالأصل في المسلم عالمًا كان أو عاميًا مفكرًا، أو مجددًا، أن يكونَ متابعًا للرسول ﷺ في أمور الشريعة.

فليس من التجديد مخالفة الشريعة في السبب الذي جاء به الحكم، فالتهجد ـ مثلاً ـ عبادة، لكن تشريع إحياء ليلة السابع والعشرين من رجب بحجة أنها الليلة التي عرج فيها الرسول ﷺ إلى السماء، لا يجوز.

والأضحية سُنَّة، ولكن لا يجوز التضحية بحصان مثلاً، فالتجديد لا يكون بجنس الأضحية، والصلاة عبادة ولكن لها قدر معلوم من الركعات، فلا يجوز أن نصلي الظهر خمس ركعات، فهذا ليس بتجديد، والوضوء مطلوب لكل من نوى

(١) الأعراف: ٣٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٦٣)، والترمذي (٢٥٩٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٢٢)، عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه. قال الترمذي: «غريب»، وقال البيهقي: «وه ذا أصح، فإنَّما أراده ـ والله أعلم ـ الرأي الذي يغلب على القلب من غير دليل قام عليه، فمثل ه ذا الرأي لا يجوز الحكم به في النوازل، فكذلك لا يجوز تفسير القرآن به».

الصلاة لكن لا يجوز البدء بغسل الرجلين فليس هذا بتجديد.

وهذا يجرُّنا إلى ضرورة معرفة الثوابت والمتغيرات، فالجهل بها يجعل مُدَّعِي التجديد يلعبون بالثوابت بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فالحجاب ـ مثلاً ـ للمرأة المسلمة من الثوابت بين العلماء، ولم يشذ عالم وقال بغير فرضية الحجاب على المرأة متى ما بلغت المحيض، ولكن النقاب أمر مختلف فيه، فعندما يأتي مدَّع ويلبس ثوب التجديد ويقول: إنَّ الحجابَ عادة عثمانية ظهرت في العصور المتأخرة، فهذا تجديد مرفوض ومرذول؛ لأنه خالف ثابتًا من الثوابت، وتجاهل الأدلَّة، وزوَّرَ في التاريخ، وخلا طرحه من العقل والمنطق.

*** خطورة الصنمية:**

إنَّ ما سقناه سابقًا لا يحصر الصنمية في هذه الأنواع فقط، ولكنها أمثلة لأسلوب تفكير يكمن في العقل الباطن لدى تيارات وأشخاص دون أن يعوا خطورة هذا المنهج الفكري وآثاره على الحركة الإسلامية والفكر الإسلامي، وإن استمرار مثل تلك الأطروحات سوف يجزئ الفرق الضالة والمبتدعة لتخرج هي الأخرى من المنهج الإسلامي الذي يقوم على الكتاب والسُّنة، وتجد في خلافات الصف الواحد فرصة تزكية الذات على الرغم من مناهجها الضالة وأفكارها البدعية المضلَّة، ناهيك عن مخاطر مثل هذه العلل في الجسد الإسلامي، على وحدة الصف الإسلامي أمام التحديات التي تواجه الأمة بأجمعها، وليتق الله ولينتهِ أولئك الذين يعشقون البحث عن القضايا الخلافية المفرقة والحياة بها ومعها.

*** حتى لا تَزِلّ أقدام الدُّعاة بعد ثبوتها:**

إنَّ مما يميز الدعوة الربانية عن غيرها من الدعوات الأرضية، معايير التقييم التي يتم بناءً عليها حساب الربح والخسارة، بحيث تحسب الدعوات الأرضية حسابات الربح والخسارة بالمكاسب المادية وربما المعنوية المحصورة فقط في الحياة الدنيا، دون امتداد لما وراء هذه الحياة الفانية، من أبعاد أخرى ومكتسبات حقيقية تهتم بها الدعوة الربانية وتضعها نصب عينيها كغايات عليا تسعى لتحقيقها، وأي غبش في

هذا التصور ربما ينزع من هذه الدعوات الربانية خصائصها التي تميزها عن الدعوات الأرضية.

وهذا - بلا شك - إن حدث سيشكل قصورًا واضحًا في برامج وأهداف واستراتيجيات الدعوات الربانية، ويصبح الثبات على هذه الأصول والمبادئ العليا التي تجعل موازين الربح والخسارة مرتبطة بتحقيق غايات تعبيد الناس لله - سبحانه وتعالى، هو التحدِّي الحقيقي للحركات الإسلامية، بالنسبة لواقعنا اليوم الذي يشهد ظرفًا استثنائيًا وضع الحركات الإسلامية - مؤسساتٍ وأفرادًا - تحت الضوء بشكل غير مسبوق.

* **محاذير الانحراف عن المعايير:**

وهذا ربما أدَّى إلى ردَّات فعل غير موزونة، تارة بمحاولة الانسجام مع الواقع ومحاولة مسايرته للحصول على القبول النفسي والاجتماعي، وتارة باستعجال الثمار من خلال الانتصار في المواقف وحساب المنجزات حتى لو كانت على حساب القيم والمبادئ التي تعتنقها التيارات الإسلامية، وحتى لو كان على حساب تراجع أدبيات وأصول الحركة الإسلامية، وربما تحول في لحظات الضعف والضغوط قياسات الخسائر والأرباح إلى قياسات مادية مباشرة، تفتقد الرؤى الاستراتيجية التي تجعل الدنيا جسرًا للآخرة، حيث الربح الحقيقي والخسارة الحقيقية التي تجاوز الأرباح والخسائر المجازية في الدنيا.

هذا الغبش في الرؤية هو الذي يجعل بعض أصحاب المبادئ يتساقطون، وليس بالضرورة أن يتمثل هذا التساقط بالابتعاد عن سرب الدعوة وقافلة العطاء، بل إنَّ التواصل الهيكلي والاتصال المادي يستمر بالعمل ظاهريًا لكن جفاف القلوب وتراجع الزاد النفسي والروحي وشعور الانتماء لمنظومة المبادئ التي يلتقي عليها أفراد التيار الإسلامي تبدأ بالانقراض والتآكل، وتتحول إلى مظاهر وآثار يدركها المخضرمون في ميدان الدعوة، خاصة إن رافق ذلك بيئة مترفة، وسقط في براثن سهلة، تغري من جفَّ قلبه وتحوَّلت نفسيته عن قبلة الدعوة، وسقط في براثن

مسايرة الواقع وحب التأقلم معه، وساعتها يغادر الداعية مرحلة الربيع الدعوي، ويدخل إلى مرحلة الخريف الدعوي؛ حيث تذبل أوراقه وتجف وتتكسر من أول لمسة، عندها يتحوّل الدعاة الذين يصيبهم هذا المرض من الارتباط بالغايات العليا للدعوة، إلى إعادة فلترة الأفكار لتصبح قريبة من الواقع المعاش، طلبًا لرضا الناس وتجنبًا لسخطهم ورفعًا للضغوط التي تُمارس على الحركات الإسلامية.

هذه الظاهرة بدأت بالبروز بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، خاصة إذا ما اجتمع مع تلك الضغوط الخارجية والرغبة في التخلص منها، وجود هوى وضعف مقاومة تجعل الداعية في لحظات ضعفه يبحث عن القبول من الناس وتحسين صورته من خلال الاقتراب من صورتهم، ولو كان ذلك على حساب أصول ومبادئ وقيم، يعرف في قرارة نفسه مدى سموها والتصاقها بالحق الذي كانت نفسه ممتلئة به، وتعمل من أجله، حتى ليكاد يقترب من صورة الإمَّعَة التي وردت في الحديث: «لا تَكُونُوا إمَّعَه تَقُولُونَ: إنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وإنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا»[1].

وقد رأيتُ في مسيرة الدعوة نماذجَ عديدة لمثل هذا السقوط، وفقدان الثبات على مسيرة الدعوة بعضه يصبّ في مسايرة الواقع على ما فيه من خطأ وصواب، وعدم القدرة على الخروج من العادات والممارسات الاجتماعية المخالفة للشريعة، أو تقديم التنازلات التي تضرّ بالدعوة، مع إعادة تقديم بعض المفاهيم الدعوية بفكر جديد يرضي الأطراف الأخرى وتجد قبولاً اجتماعيًا، مع الظن بأنَّ هذه التنازلات لا تضرّ الدعوة ولا الدَّاعية على الرغم من مخاطرها النفسية والفكرية على الداعية، وحالة التمييع التي تصيب الدعوة، وفقدان المصداقية والنكوص بالدعوة إلى الوراء.

نعم، لقد رأينا نماذجَ كثيرة من ذلك، قدم فيها بعض الدُّعاة المكاسب الصغيرة الشخصية على المكاسب الدعوية العامة، رأيناها في الممارسات السياسية، وفي الممارسات الاقتصادية، وفي الممارسات الاجتماعية، وتحوَّل الداعية إلى إمَّعَة لا يريد منها أن يتحمل

(١)أخرجه الترمذي (٢٠٠٧)، عن حذيفة رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

نصيبه من تكاليف الدعوة، ويدفع الثمن المطلوب في سبيل غاياتها العليا.

عندها تتحول وسائل الدعوة التي هيَّأها له إخوانه ومن هم في مركب الدعوة بسببه إلى وسائل للانتفاع الشخصي والترويض، ليصل إلى رضا الناس مهما كان في ذلك الرضا من مخالفة للحَقِّ ولمبادئ وقيم الدعوة التي من المفترض أن ينتمي إليها، وهكذا يتحوَّل الداعية في فترة من الفترات إلى مسوق للمنهج الحركي الأصولي إذا كانت المصلحة المباشرة في هذا المنهج، وإلى المنهج الصوفي المتزهّد إذا جاءت الظروف والمصالح والنجاة من الضغوط في هذا المنهج، وإلى المنهج التوافقي مع السلطة إذا كانت المصلحة الآنية في هذا المنهج، حتى تحوَّلت الدعوة إلى جزر منعزلة محيطة داخل وطن الدعوة كل جزيرة يقودها شخص باتجاه رفع الضغوط ومسايرة الواقع، والنتيجة الحتمية هي تفكك هادئ لبنيان الدعوة لا يشعر به إلاَّ الذين لم يبدّلوا ولم يغيّروا، ولا يكون موجودًا من حقيقة الدعوة إلاَّ الهياكل الخالية على عروشها، وساعتها لا يعود الاسم هو الاسم ولا الرسم هو الرسم.

تلك معضلة تواجه الدعوة في وقتنا المعاصر، وبالتحديد منذ بداية الألفية الثالثة؛ حتى رأينا من يعتبره البعض ممثلاً للفكر الحركي المعاصر، في زيارة رسمية لدولة العدو يضع إكليلاً من الورود على ضريح ضحايا الهولوكست المزعوم، كما رأينا من الرموز من يزكي بعض رموز المبتدعة ويضمهم جنبًا إلى جنب مع رموز الدعوة في قارب واحد.

هذه المجاملات والمداهنات التي تعصف بقيم ومبادئ الدعوة، وتعطي نماذج سيئة لقواعد الدعوة، ما كانت لتظهر لو كانت الأصول مصانة في داخل النفوس وعليها يدور الأمر كله، فمن الصعب وسط الضغوط والبحث عن القبول وسط الناس أن يستطيع بعض الدعاة تجاوز عقدة الواقع، والارتفاع للحياة مع عقيدة تفرض مبادئها سواء سخط الناس أم رضوا، بحيث يصبح كل همهم تغيير واقع الناس للأحسن لا مسايرته للأسوأ.

*** دعائم الثبات:**

إنَّ فتنة الخضوع للواقع تحتاج من الداعية إلى مجاهدة كبيرة للنفس، ولن يتم ذلك إذا لم يستشعر الداعية حساب الخسائر والأرباح، ولكن بمعايير الدار الآخرة، حيث الأجر على قدر المشقة، ويعلم أن هذا الجهاد محل تقدير عظيم أشاد به رسول الله ﷺ حيث قال: «إنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْل قَبْض علَى الجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْل أجْر خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْل عَمَلِهِ»، فلما سُئِلَ الرسول ﷺ: أجر خمسين منهم، قال: «خَمْسِينَ مِنْكُم»؛ أي أجر خمسين من الصحابة[1].

ومن الوسائل المعينة للداعية على الثبات على قيمهِ ومبادئه مهما ألقت الفتن بظلالها ومهما زادته الضغوط وتكالبت عليه: الإقبال على القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[2]، مع التزام أوامر الشريعة والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾[3]، مع كثرة الذكر والدعاء والثقة بنصر الله وعدم الاغترار بالباطل والاعتبار بقصص الأنبياء والرسل والصالحين والشهداء في الصبر والثبات، والبُعْد عن مواقع الهلاك والشبهات والاستبراء للْعِرْضِ والدِّين، واستشعار المسؤولية الشرعية، والابتعاد عن الدنيا وملذاتها، والعزَّة النفسية بدلاً من الانهزامية والتراجع أمام الواقع الفاسد، وفهم سنن الابتلاء، والجدية وعلوّ الهمَّة.

*** زاد من السيرة والتاريخ:**

وجَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ﷺ إلى الثبات على القيم والمبادئ الربانية التي ارتضاها الله للبشرية، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٣٤)، والترمذي (٨٥٠٣)، وابن ماجه (٤١٠٤)، وابن حبان (٥٨٣)، والحاكم (٤/ ٢٢٣)، عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن غريب»، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) الفرقان: ٣٣.

(٣) إبراهيم: ٧٢.

إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

وقد قام رسول الله ﷺ بالأمانة خير قيام، ولو ودّ أن يُداهن قريشًا لفرض دعوته منذ البداية عندما عرضوا أن يعبدوا إل هه سنة، وإل ههم سنة، بل طلبوا أبسط من ذلك وهو: أن يجتمع بالأغنياء وأصحاب الجاه والسلطان بعيدًا عن الفقراء والـمُعْدَمِين، ولو وافقهم لحصل ما يريد من مكاسب سريعة، ولكن دين الله الخاتم ليس محل مساومة أو تجزؤٍ ولا يرضى الله لدينه الخاتم أن يصل إلى البشرية مشوهًا ناقصًا، والروايات التي في السيرة تدلُّ على شدة أخذ الرسول ﷺ لهذا الأمر وعدم مداهنته فيه، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

وقد اتخذت مساومة المشركين لرسوله ﷺ في دعوته صورًا شتى، من المساومة على الدعوة كلها بأساليب التهديد والترغيب كما جاء في كتب الحديث والسيرة، إلى المساومة على جانب منها للالتقاء معه في منتصف الطريق.

ومن ذلك: ما رُوِيَ عن عُقَيْل بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: «جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إنَّ ابن أخيكَ هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنَّا، قال: يا عُقَيْل! انطلق فأتني بمحمد، فاستخرجته من كبس - أو قال: حفش - يقول: بيت صغير، فجاء به في الظهيرة في شدَّة الحرِّ، فلما أتاهم قال: إنَّ بني عمك هؤلاء زعموا أنَّك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: «تَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْس؟»، قالوا: نعم، قال: «فَمَا أَنَا بِأَقْدَر أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ يُشْعِلَ أَحَد مِنْ هَذِهِ الشَّمْس شُعْلَةً مِنْ نَارٍ»، فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط؛ فارجعوا راشدين»[3].

---

(١) الإسراء: ٧٣، ٧٤.

(٢) القلم: ٩.

(٣) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ٥٠)، والبزار في «مسنده» (٢١٧٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٨٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٣١٥)، عن عقيل بن أبي طالب ﷺ، وأودعه الألباني في «صحيح السيرة» ص ١٤٣، ١٤٤.

المبحث الثاني
أوهام التصوف الحركي

عنوان يثير الدهشة، فكيف يجتمع فكر التصوف المنعزل مع الفكر الحركي المتفائل؟! وما المعادلة أو الزاوية التي جمعت بين النقيضين؟

تعالوا أولاً نعرف ما التصوف لدى أصحاب الفكر الحركي؟ ثم ماذا نقصد بالتصوف الحركي؟

يقول الإمام البنا ـ رحمه الله ـ في مذكرات الدعوة والداعية في حديثه عن التصوف وكيف نشأ علم التصوف: «حين اتسع عمران الدولة الإسلامية صَدْر القرن الأول، وكثرت فتوحها وأقبلت الدنيا على المسلمين من كل مكان، وجبيت إليهم ثمرات كل شيء، وكان خليفتهم بعد ذلك يقول للسحابة في كبد السماء: «شَرِّقِي أو غَرِّبِي فحيثما وقع قطرك جاءني خراجه».

وكان طبيعيًا أن يُقْبِلُوا على هذه الدنيا، يتمتعون بنعيمها ويتذوَّقُون حلاوتها وخيراتها في اقتصاد أحيانًا وفي إسرافٍ أحيانًا أخرى، وكان طبيعيًا أمام هذا التحوّل الاجتماعي، من تقشف في عصر النبوَّة الزاهر إلى لين الحياة ونضارتها فيما بعد ذلك، أن يقوم من الصالحين الأتقياء العلماء الفضلاء دعاة مؤثرون يزهدون الناس في متاع هذه الحياة الزائل، ويذكرونهم بما قد ينسونه من متاع الآخرة الباقي: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [(١)].

ومن أول هؤلاء الذين عرفت عنهم هذه الدعوة: الإمام الواعظ الجليل ـ الحسن البصري ـ وتبعه على ذلك كثير من أضرابه الدُّعاة الصالحين، فكانت طائفة في الناس معروفة بهذه الدعوة إلى ذكر الله واليوم الآخر، والزهادة في الدنيا، وتربية النفوس على طاعة الله وتقواه.

وطرأ على هذه الحقائق ما طرأ عليها من حقائق المعارف الإسلامية، فأخذت

---

(١)العنكبوت: ٤٦.

صورة العلم الذي ينظم سلوك الإنسان ويرسم له طريقًا خاصًا في الحياة؛ مراحله: الذكر والعبادة ومعرفة الله، ونهايته: الوصول إلى الجنة، ومرضاة الله.

وهذا القسم من علوم التصوف، وأسميه: «علوم التربية والسلوك»، لا شكَّ أنه من لبّ الإسلام وصميمه، ولا شكَّ أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها، والطب لها والرقي بها، لم يبلغ إليها غيرهم من المربين، ولا شكَّ أنهم حملوا الناس بهذا الأسلوب على خطة عملية من حيث أداء فرائض الله واجتناب نواهيه، وصدق التوجه إليه، وإن كان ذلك لم يخل من المبالغة في كثير من الأحيان تأثرًا بروح العصور التي عاشت فيها هذه الدعوات: كالمبالغة في الصمت والجوع والسهر والعزلة... ولذلك كله أصلٌ في الدين يردّ إليه، فالصمت أصله الإعراض عن اللغو، والجوع أصله التطوع بالصوم، والسهر أصله قيام الليل، والعزلة أصلها كف الأذى عن النفس ووجوب العناية بها... ولو وقف التطبيق العملي عند هذه الحدود التي رسمها الشارع لكان في ذلك كل الخير.

ولكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حد علم السلوك والتربية، ولو وقفت عند هذا الحدّ لكان خيرًا لها وللناس، ولكنها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق والمواجد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأي والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف، والرغبة في الحصول على هذه النتائج الروحية الباهرة، وأصبح كل ما يكتب أو يُقال في هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين في دين الله والحريصين على صفائه ونقائه[1].

وهذا الكلام في تقييم الصوفية، قريب من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية الذي فرَّق بين الصوفية بمعنى الزهد وبين الصوفية المبتدعة، فقال ـ رحمه الله: «لفظ

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية، حسن البنا، ص ١٢، ٢٢.

التصوف قد أُدْخِلَ فيه أمور يحبها الله ورسوله، فتلك يؤمر بها، وإن سميت تصوفًا؛ لأنَّ الكتاب والسُّنة إذا دلاَّ على استحبابها لم يخرج عن ذلك بأن تسمى باسم آخر... وقد أُدخل فيه أمور يكرهها الله ورسوله، كما يدخل فيه بعضهم نوعًا من الحلول والاتحاد، وآخرون نوعًا من الرهبانية المبتدعة في الإسلام».

والمؤمن الكيِّسُ يوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسُّنة، وأطاعوا فيه الله ورسوله ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسُّنة أو عصوا فيه الله ورسوله»[(١)].

* **التصوف الحركي:**

ما سبق كان هو التصوف المتعارف عليه، أو ما يذهب إليه الذهن إذا ذكرت كلمة «التصوف»، فما المقصود إذن بالتصوف الحركي؟

التصوف الحركي على النقيض من التصوف الزهدي. فإذا كان التصوف الزهدي قد تطرف في ترك الدنيا وأهمل الأخذ بالأسباب والارتباط بمسبب الأسباب، وعدم بذل الأسباب لتحقيق منهج الله في الأرض، فإن التصوف الحركي تطرف في الجهة المقابلة وافتتن بالأسباب وجعل كل تركيزه وهمه أن يحققها، وزهد في بناء العلاقة مع مسبب الأسباب، أو على الأقل أهمل في تنمية العلاقة مع الله التي تضمن له نجاح الأسباب التي يتعب ويخطط من أجل تحقيقها.

لسان حال جماعة التصوف الحركي يبيّنه اعتراضهم على الأبيات التي ضمنها النووي في مقدمة كتابه القيم والمشهور «رياض الصالحين»:

إنَّ للهِ عِبَادًا فُطُنَـــا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُـــوا ... أنها ليست لحي وطنا

جَعَلُوهَـــا لُجَّـــةً واتَّخَـــذُوا ... صالح الأعمال فيها سُفنا

ووجه الاعتراض على الأبيات من قِبَلِ أصحاب التصوف الحركي، هو: إنَّنا عندما طلَّقنا الدنيا تزوجها الغرب، وأنجب منها مختلف الاختراعات والمنتجات

(١) الفتاوى (١١/ ٨٢، ٩٢).

الحضارية التي تفوَّق بها وقاد الحضارة البشرية حيثما أراد، بينما نلنا جزاء التخلّف والخمول بسبب طلاقنا المزعوم للدنيا.

وبالتأكيد أنَّ الإمام النووي لم يقصد بطلاق الدنيا، ترك العمل فيها وبذل الأسباب؛ لأنَّ الأحاديث الواردة في «رياض الصالحين» نفسه ترفض ذلك، ولكن الإمام النووي قصد طلاق الشهوات والذنوب والمعاصي التي تلهي السائرين إلى الله عند بلوغ غاياتهم، وهي الفوز برضا الله والجنة.

لكن أصحاب التصوف الحركي قد يكونون معذورين حينما يرون الناس وهي تنظر إليهم على أنهم مجموعة دراويش مكانهم الطبيعي الزوايا والتكايا، وما اقتحامهم المجتمع والعمل فيه واقتحامهم المجال السياسي وإقامة المؤسسات الاقتصادية ما هو إلاَّ تطفل على غير اختصاصهم!!! فحينذاك لجأ أصحاب التصوف الحركي إلى الأسباب الدنيوية ليغيِّرُوا هذه الصورة المزيفة عنهم، ونجحوا في مجالات عديدة، وأضافوا لمجتمعاتهم تجارب ثريَّة، فكان للتيار الإسلامي الحركي قدم السَّبق، في موضوع تبني فكر التطوير الإداري وإدارة المؤسسات الإدارية التي تُعْنِي بالتطوير الإداري والتخطيط السليم وخطط التنمية والتطور والإبداع والتجديد.

لقد أدخل التيار الإسلامي العمل المؤسسي في أُطُرِه الحركية والتنظيمية، ولم يجد حرجًا في طرح منهجه الدعوي والإصلاحي عبر آليات ووسائل إدارية تخطيطية مستقاة من العلوم الغربية، وإن كان في كثير من الأحيان طرح موضوع أسلمة تلك العلوم وعمد إلى البحث في شواهد السيرة والتاريخ والقرآن الكريم والسُّنة وحاول إعادتها إلى أصولها الإسلامية.

وهذه الطريقة في أسلمة العلوم محل نظر وتحتاج إلى مراجعة، فأسلمة العلوم الإدارية الغربية وغيرها من العلوم لا يتم بهذه المنهجية المعاصرة التي كل همها اصطياد التراث ثم توضع في مقدمة تلك العلوم، فهذا تسطيح وتبسيط مخل للموضوع، وللغرب فلسفة محددة ومنهجية خاصة وبنية وخبرات اجتماعية

وفلسفات حضارية وفكرية أنتجت مثل هذه العلوم.

ولدينا نحن المسلمين مصطلحات وبيئات فكرية لا يوجد مثلها في الغرب، مثل مصطلح «التوفيق» الذي يعتمد على توفيق الله للعبد، أو مصطلح «دفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى»، وبعض المفاهيم المرتبطة بالقضاء والقدر، فالمسألة تحتاج إلى بسط وشرح لا إلى قصّ ولصق في النصوص المترجمة عن العلوم الغربية.

لقد أثرى هذا التيار المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات التي دمجت بين الفكر الحركي الإصلاحي وبين آليات الإدارة الحديثة، ولقيت هذه المؤلفات إقبالاً جيدًا من جمهور وقواعد الحركة الإسلامية، ولو نظرنا في كثير من الرموز التي تطرح الفكر الإداري في العديد من مجتمعاتنا ودولنا الإسلامية لوجدناهم بخلفيات إسلامية واضحة.

إنَّ كلمة الحق تجعلنا نعترف أن هذا الفكر الإداري والتطوير قد أفاد المؤسسات الدعوية ونقلها نقلات كبيرة في تحقيق جزء كبير من أعمالها، ووفر عليها الجهود الكبيرة والأوقات الكثيرة، وبعد أن كانت أهداف الدعوة عامة، تحوَّلت إلى أهداف محددة قابلة للقياس والتقويم والمراجعة، وبعد أن كانت أهداف الدعوة غائية نهائيًا، تحوَّلت إلى أهداف مرحلية تفصيلية تساعد القواعد الدعوية على فهم ظروف الدعوة بشكل أفضل وأوضح.

إنَّ جميع ما سبق، جهد مشكور وغير منكور، ولأصحابه الفضل والسبق والأجر والثواب في ميزان أعمالهم ولا تعاب الفكرة التي تبنوها، وحولوا بسببها الحركة الإسلامية من تيار حماسي يجتهد ويصيب ويخطئ إلى تيار مفكر ومخطط، يعترف بالواقع ويبحث عن الفرص والمكتسبات بعد أن كان ينظر لها بعلوّ وَتَرَفُّع، جعلته يفقد الكثير من الفرص في السابق.

نقول: نعم، إنَّ الاهتمام ببذل الأسباب بشكلها المميز والدقيق، أمر مطلوب للدعوة، ولكنه قد يصبح حالة من التطرف، إذا افتتن الداعية فقط ببذل الأسباب ومتابعة تفاصيل الخطط، وحصر التفكير بالأساليب الإبداعية التي يخدم بها

مؤسسته الدعوية، ويغفل بعد ذلك عن علاقته بمسبب الأسباب، ويلتزم الحد الأدنى منها، فيصبح في هذه الحالة أمام تصوف حركي يذوب فيه الداعية بالأسباب وتفاصيلها، ويغفل عن تحسين علاقته مع الله، ولأنَّ الداعية حالة متقدمة من الالتزام الديني فلا يجب أن يرضى بالحد الأدنى في علاقته مع مولاه وخالقه.

*** نماذج من التصوف الحركي:**

نحن لا نتكلَّم من فراغ، فقد رأينا نماذج من الدعاة يصلّون أغلب صلواتهم مسبوقين وفي الصفوف الأخيرة، وبعضهم يكتفي بالفرائض ويكون في عجلة من أمره بحجة المشاغل وضيق الأوقات فيزهد في صلاة السنن، ناهيك عن النوافل، بينما نجد عوام المسلمين غير الملتزمين أشد حرصًا وتعلّقًا بالصلاة والصف الأول.

كما رأينا نماذج من الدعاة يزهدون بوردهم من القرآن، ولعلهم يقرؤون في اليوم أكثر من ستين أو سبعين صفحة في الفكر الإسلامي والإنساني، ولا يمكن أن يمرّ اليوم دون قراءة في الصحف الصادرة في ذلك اليوم، بينما نرى غيرهم يقرأ ورده القرآني ويحافظ عليه.

كما رأينا نماذج من الدعاة زهدوا في السُّنة النبويَّة وتهاونوا في الالتزام بها، سواء كان ذلك في الهدي الظاهر أم في جوانب الممارسة الشخصية والتعبدية والدعوية، وتغليب ما هو سائد من موضوعات وموديلات.

كما رأينا نماذج من الدعاة لا يقومون إلى الصلاة إلاَّ بتثاقل، وتجدهم يبحثون عن الأدلَّة والبراهين التي تثبت ترجيح سنيّة صلاة الجماعة على وجوبيتها، مع أنَّهم طليعة الأمة ويجب أن يكون همهم البحث عن العزائم وليس الرُّخَص.

كما رأينا نماذج من الدعاة علاقتهم مع صلاة الفجر علاقة أسبوعية منحصرة في صلاة فجر الجمعة أو شهرية إذا ساعدتهم الظروف واستيقظوا للصلاة، وترى بعضهم يأخذ بالأسباب للاستيقاظ لموعد العمل ولا يأخذ الأسباب للاستيقاظ لصلاة الفجر!

* **محاذير التصوّف الحركي:**

إنَّ أمثال هؤلاء الدعاة الذين أسميهم بـ «أصحاب التصوف الحركي»، على خطر عظيم، فهم أكثر عرضة للفتن والسقوط من قطار الدعوة عند تعرضهم للشبهات الأخلاقية والمالية، فالذي ليس له زاد إيماني يحرص عليه، ستكون مقاومته ضعيفة عند اشتباه الفتن، ولا يمكن أن يستثمر عطاء الداعية بنفس الهمَّة والقوَّة والاندفاع إذا لم يكن متصلاً بشكل وثيق مع الله ـ سبحانه وتعالى.

إنَّ الذين يزهدون بزادهم الإيماني ويركنون إلى الأسباب المادية المجرَّدة، إنَّما يخسرون مفهوم البركة التي تجعل الأعمال والأوقات والجهود أكثر ثمارًا وحصادًا.
إنَّنا لا نريد انفصامًا بين الطرفين، فلا نريد من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية أن يحصروا جهودهم في الحديث عن العلوم الإسلامية أو الشعائر التعبدية فقط، ويغفلون عن «فقه الواقع ومعايشته» ولا نريد من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية أن يحصروا جهودهم في التخطيط والتنظيم والتنظير، وقد يعجب أحدهم إذا سألته عن صلاة الفجر في وقتها، أو عن ورده من قيام الليل أو النوافل أو القرآن الكريم، بينما يرى ابن القيم في «مدارج السالكين» أن من أعظم مفسدات القلب، التعلّق بغير الله تعالى: «فليس عليه أضرّ من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلَّق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله ـ عز وجل، وبتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلَّق به وصل.

فأعظم الناس خذلانًا، مَنْ تَعلَّقَ بغير الله، فإنَّ ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلَّق به، وهو معرَّض للزوال والفوات، ومثل المتعلّق بغير الله كمثل المستظل من الحرّ والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت» [(١)].

* **الداعية فقير إلى ربِّهِ:**

إنَّ منهج الافتقار إلى الله هو حقيقة العبودية، قال ابن القيم في المدارج: «الفقر

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٨٦٣).

الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله - تعالى - من كل وجه»، فيجب على الداعية أن يدرك عظمة الخالق وجبروته ونصره لأوليائه المؤمنين العاملين، وكذلك ضعف المخلوق وعجزه وفقره إلى نُصْرَةِ مولاه في تبليغ شريعته ودعوته إلى الناس.

*** واجبات العبودية:**

وهذا يتطلَّب من الداعية أن يقوم بواجبات العبودية خير قيام، ومنها: الذلّ لله - تعالى - مع غاية الحبّ، والتعلُّق بالله - سبحانه وتعالى - وبمنهجه وشريعته، ومداومة الذكر والاستغفار على كل حال وحين، والخوف من عدم قبول العمل، والخوف من الفتنة والابتعاد عن منهج الله، وخشية الله - تعالى - في السرِّ والعلن، وتعظيم أوامره - سبحانه - أمرًا ونهيًا، وسرعة التوبة بعد المعصية، والتوبة إلى الله...

ويؤكد الراشد على هذا المعنى، فيقول:

«وجوب التربية الدينية الأخلاقية العميقة التي تبتغي إنتاج الرجال، بعدد كافٍ، فيهم صفاء، ولهم علم، وقلوب حيَّة، ينتشرون في الأفق العريض، يمارسون الإصلاح التحتي، بالمفهوم الحضاري، وأول دروسهم في ذلك يتلقونها مع التهجد، في الأسحار والظلمات، حين يرقد الغافلون.

المبتدأ: رسالة يتلقاها من مربيه أن: لا تكن كمن [غرَّه الإمهال، فجرَّ أذياله في الغفلة والإهمال].

ثم رسالة ثانية أن: «ويحك هذا ...

هذا وقت عمارة المحراب.

هذا زمان تلاوة الكتاب.

هذا أوان حضور الباب».

فإن رأى منه التثاقل: أغلظ له، وأرسل له رسالة إنذار شديد، أن يا هذا «لقد ربح القوم... وأنت نائم، وخبت ورجعوا بالغنائم، بالليل راقد... وبالنهار هائم».

يا هذا: «لسان لا يقرأ القرآن... كليل»، فواظب على درس القرآن فإنَّه

يُلين قلبًا قاسيًا مثل جلمد   وحافظ على فعل الفروض بوقتها

وخذ بنصيبٍ في الدُّجَى من تهجد

ولعلك يا هذا، تستطيل ركعتين تقرأ فيهما حزبين تقوم بهما لربك جل جلاله، ولعلَّك تعجز عن مشي ميل في قضاء حاجة مسلم وبين يديك هذا اليوم الطويل المديد والكرب العظيم الشديد الذي لا يقصر إلاَّ على من أطال التعب لله، ولا يسهل إلاَّ على مَن تحمَّل الشدائد في ذات الله، ولعلَّك إن صليّتهما ليلة عجزت عنهما أخرى، ولعلك إن مشيت يومًا في حاجة مسلم برمت من ذلك في يوم آخر، وتعبت منه وكسلت عنه، وربما وقفت لسماع حديث فارغ يكون تقريره أكثر من حزب أو حزبين، وربما مشيت في فصول الميل والميلين وأكثر من ذلك، ولو تدبرت أمرك ونظرت فيما يُرادُ بك لسهل عليك من أمرك العسير وَقَرُبَ عليك فيه البعيد، فاعمل ـ رحمك الله ـ في أيام قصار وعمر قصير لأيام طوال وعمر طويل»، فهذا هو منهج السلف في التعلّق بالله لا في غيره، وعدم التنازل عن الزاد الإيماني...

فكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقوم للتهجد إذا هدأت العيون، فيسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح.

وكان عبد العزيز بن أبي روَّاد يُفْـرَشُ له الفراش، فيضع يده عليه ويقول: ما ألينك ولكن فراش الجنة ألين منك، ثم يقوم إلى صلاته فلا يزال يصلي إلى الفجر.

وكان الفضيل بن عياض يقول: إنِّي لأقوم الليلة فيطلع الفجر فيرجف قلبي وأقول: جاء النهار بما فيه من الآفات.

وكان بشر الحافي، وأبو حنيفة، ويزيد الرقاشي، ومالك بن دينار، وسفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم يقومون الليل كله على الدوام إلى أن ماتوا.

وقالوا مرة لبشر الحافي: ألا تستريح في الليل ساعة؟ فقال: «إنَّ رسول الله ﷺ قد قام حتى تورمت قدماه مع أن الله ـ تعالى ـ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر،

فكيف أنام أنا ولم أعلم أن الله قد غفر لي ذنبًا واحدًا!».

وكان مسلم بن يسار إذا دخل في الصلاة لا يدري أي شيء يكون ممن حوله، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول لأهله: لا ترفعوا أصواتكم عندي إلاَّ إذا رأيتموني دخلت في الصلاة، فإني إذا كنت فيها لا أسمع شيئًا من كلامكم.

وكان أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه إذا حضرت الصلاة يصفر لونه ويتغيَّر، ويقول: إنها أمانة وإنها عُرِضَت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملتها أنا، فلا أدري هل أوفي بأدائها أم لا!

فافهموا ـ يا أصحاب التصوف الحركي ـ أي خير يفوتكم، وأي خطر تقفون عليه إن لم تتداركوا علاقتكم مع ربكم فهو المنجي والناصر ولو ظهر لعقولكم القاصرة غير ذلك، وتعلَّموا من أم موسى عندما خافت على موسى لم يأمرها الله بأن تضمه إلى صدرها، بل أن تلقيه في اليم، فكانت نجاته في ذلك بحفظ الله ورعايته، ولو اعتمدت على عقلها القاصر؛ لذهب موسى مع من ذهب قتلاً من أبناء بني إسرائيل: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [1].

ü ü ü

(١) الحشر: ٢.

المبحث الثالث

الإسلام بين الوصاية والغواية

يلتبس الأمر على الكثيرين عند تناول مصطلحي: «التواصي»، و«الوصاية». ويصبح أحيانًا الخلط متعمدًا حتى يتم أخذ مصطلح «التواصي» بجريرة مصطلح «الوصاية»، وقد يكون الأمر متعمدًا في أحيان ليست بالقليلة للفرار من إشكالية الوقوع في التناقض الفكري مع المرجعية التي يمثلها منهج «التواصي».

كما قد يكون هذا الخلط بسبب المعاناة من الوصاية السياسية التي تمارسها الكثير من أنظمة العالم الثالث تجاه شعوبها، فيقع الخلط بين مصطلح «التواصي» الديني ومصطلح «الوصاية» السياسي الذي كان يلعبه الاستعمار سابقًا على الشعوب بهدف نهب ثرواتها سابقًا، ثم تطور الأمر إلى ادِّعاء تعليمها أصول «الحرية» و«الديمقراطية» واحترام «حقوق الإنسان».

كما قد يقع هذا الخلط عند محاولة تنميط التجرية الإسلامية بالتجربة البابوية في أوروبا في العصور الوسطى، مع الإغفال المتعمَّد للفروقات الأساسية بين التجربتين، حيث لا يوجد في الإسلام حق احتكار لتفسير النص الشرعي، ولكن بالتأكيد يوجد هناك منهجية واضحة في فهم هذا النص، ومن أراد أن يتمرَّد على هذه المنهجية بدعوى التجديد فلن يتمكَّن من تفكيك النصوص الشرعية للوصول إلى الحكم الشرعي السليم وفهم طبيعة النص الشرعي.

وقبل أن نستطرد طويلاً في فك الاشتباك ما بين المصطلحين، دعونا أولاً نفهم «منهج التواصي» في الإسلام وطبيعة هذا المنهج من خلال النصوص الشرعية، ومرويات السيرة النبوية، على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم.

*** منهج التواصي في الإسلام:**

يعني مصطلح «النصيحة» كما ورد في «جامع العلوم والحكم» أنها: «كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً، وتشمل: النصيحة لله،

ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[١].

وقد شرح ابن حجر ـ رحمه الله ـ مفهوم النصيحة لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم؛ حتى لا تختلط الأمور على الناس ويقولون: كيف تكون النصيحة لله ولرسوله ولكتابه، فقال:

«النصيحة لله: وصفه بما هو له أهل والخضوع له ظاهرًا وباطنًا، والرغبة في محابه بفعل طاعته، والرهبة من مساخطه بترك معصيته، والجهاد في رد العاصين إليه.

والنصيحة لكتاب الله: تعلّمه، وتعليمه، وإقامة حروفه في التلاوة وتحريرها في الكتابة، وتفهم معانيه، وحفظ حدوده، والعمل بما فيه، وذب تحريف المبطلين عنه.

والنصيحة لرسوله: تعظيمه، ونصره حيًا وميتًا، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومحبة أتباعه.

والنصيحة لأئمة المسلمين: إعانتهم على ما حملوا القيام به، وتنبيههم عند الغفلة، وسدّ خلتهم عند الهفوة، وجمع الكلمة عليهم، ورد القلوب النافرة إليهم، ومن أعظم نصيحتهم: دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن. ومن جملة أئمة المسلمين: أئمة الاجتهاد، وتقع النصيحة لهم ببث علومهم، ونشر مناقبهم، وتحسين الظن بهم.

والنصيحة لعامة المسلمين: الشفقة عليهم، والسعي فيما يعود نفعه عليهم، وتعليمهم ما ينفعهم، وكف وجوه الأذى عنهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه»[٢].

كما قال الجرجاني عن النصيحة: «هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عن الفساد»[٣]، فهي إخلاص المحبَّة للغير بإظهار ما فيه صلاحه وهذا عكس ما يعتقده الناس أن النصيحة تصيد الأخطاء والبحث عن مواقع الخلل. ومفهوم النصيحة هذا لا يختلف عن مفهوم التواصي بالخير، والوصية هنا ليست ما يكتبه مفارق الدنيا

---

(١)جامع العلوم والحكم، ص ٦٧.

(٢)فتح الباري (١/ ٧٦١).

(٣)التعريفات، ص ٠٦٣.

موصيًا أبناءه من بعده، وإن كانت هذه من معاني الوصية، لكن الوصية أو التواصي المقصود ها هنا هو المعنى القريب من النصيحة.

وإن كانت النصيحة من طرف ناصح وطرف آخر منصوح، فإنَّ الطرفين في التواصي في موقع الناصح للطرف الآخر، كما يكونان أيضًا في موقع المنصوح، والتواصي ما هو إلاَّ عهد يتعاهد الناس فيه ويوصون بعضهم البعض على العمل بكتاب الله وطاعته وبالانتهاء عمَّا نهى الله عنه.

قال ابن حجر ـ رحمه الله: «المراد بالوصيَّة بكتاب الله تعالى: حفظه حسّا ومعنًى، فيكرم ويصان، ولا يسافر به إلى أرض العدو، ويتبع ما فيه فيعمل بأوامره ويتجنب نواهيه، ويداوم على تلاوته وتعلّمه وتعليمه»[1]، والنصيحة على الخير والتواصي على الحق مهمَّة الأنبياء والرسل.

فقد قال سيدنا نوح عليه السلام لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[2]، كما قال سيدنا هود عليه السلام لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[3]. وكما قال سيدنا صالح عليه السلام لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾[4]، وكما قال سيدنا شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[5].

هذه النصائح المخلصة على عكس النصائح التي فيها غش وتدليس، فقد يكتب البعض متحدثًا عن المصلحة العامة والأولويات الوطنية، والحفاظ على المجتمع وثوابته، وهو يريد شيئًا آخر، فلا يقدم النصيحة مخلصة.

قد قال من قبله إخوة يوسف لأبيهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ

(١)فتح الباري (٨/ ٦٨٦).
(٢)الأعراف: ٦٢.
(٣)الأعراف: ٦٨.
(٤)الأعراف: ٧٩.
(٥)الأعراف: ٩٣.

﴿ ... ١١﴾[1]، يقولون هذا الكلام وكل همهم التخلص من يوسف حتى يخلو لهم وجه أبيهم، ومن قبل إخوة يوسف نصيحة إبليس الكاذبة لآدم وزوجته بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها، وقال لهما: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾[2].

والتواصي على الحقِّ مبدأ أصيل يتوارثه الأنبياء، قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾[3].

*** نماذج التناصح في السيرة:**

وفي السيرة النبويَّة المطهرة ما يؤكد واجب المسلم في النصح لأمته ومجتمعه، حتى لا يفتري البعض على هذا المبدأ الإسلامي، ويتهم كل صاحب قلب محترق على أمته ومجتمعه بأنه يريد أن يصبح وصيّا على المجتمع لمجرد أنه قام بواجب النصيحة في سبيل التصدّي لمظاهر الانحراف عن دين الله.

فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعتُ النبي ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»، فانظر ـ رحمك الله ـ كيف قُرِنَتِ الصلاة والزكاة مع النصح لكل مسلم؛ دليل أهمية النصح والتواصي على الخير بين المسلمين.

وأخطر من هذا: حديث صحيح في البخاري ومسلم، عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يُحطهَا بِنَصِيحَةٍ، لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْـجَنَّـة»[4].

وهكذا كان رسول الله ﷺ يتعاهد الصحابة بالنصيحة والوصيَّة؛ ليرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم، فكان ينصح في شؤون عبادتهم وطاعتهم لله ـ سبحانه

(١)يوسف: ١١.
(٢)الأعراف: ٢١.
(٣)الشورى: ٣١.
(٤)أخرجه البخاري (٥٠١٧)، ومسلم (٢٤١)، عن معقل بن يسار رضي الله عنه.

وتعالى، فعن أبي هريرة ﷺ قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوترَ قبل أن أرقد»[١].

وكان ينصحهم في العلاقات الاجتماعية، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا زَالَ جبريل يُوصِينِي بِالجارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[٢].

وكان ﷺ ينصحهم قبل الخروج للجهاد، وينصح لهم في شؤون حياتهم، وينصح لهم في سلوكهم اليومي، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يطلبون النصيحة والتواصي من الرسول ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أَوْصِنِي، قال: «لا تَغْضَب»، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قال: «لا تَغْضَب»[٣].

وهكذا سار الصحابة والسلف الصالح من بعده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهذا أبو بكر رضي الله عنه يطلب النصيحة من المسلمين بقوله: «إنْ أحسنتُ فأعينُونِي، وإن أسأتُ فَقَوِّمُونِي».

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقف على المنبر ويقول: «أنشدكُم الله لا يعلم أحد مني عيبًا إلاَّ عابه».

لذلك أصبح للنصيحة والتواصي قيمة عظيمة عند المسلمين، لا ينفرون منها، بل يطلبونها ويحرصون عليها ما دامت القلوب مخلصة النوايا في تقديم النصيحة، ولذلك قيل: «أنصح الناس لك من خاف الله فيك»[٤].

قال النووي ـ رحمه الله: «قالوا: مدار الدين على أربعة أحاديث، وأنا أقول: بل مداره على حديث: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»[٥][٦].

---

(١)أخرجه البخاري (١٨٩١)، ومسلم (١٢٧)، والترمذي (٠٦٧)، والنسائي (٣/ ٩٢٢)، وأحمد (٢/ ٩٢٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢)أخرجه البخاري (٥١٠٦)، ومسلم (٥٢٦٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣)أخرجه البخاري (٦١١٦)، والترمذي (٢٠٢٠)، وأحمد (٢/ ٦٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤)جامع العلوم والحكم، ص ١٧.

(٥)أخرجه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٤٩٤)، والنسائي (٧/ ٦٥١)، وأحمد (٤/ ٢٠١)، عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه.

(٦)بصائر ذوي التمييز (٥/ ٤٦).

وقد قال ابن رجب تحسبًا لمن يرفض النصيحة ويحاول التفلّت من الحقِّ: «الواجب على كل مسلم أن يحب ظهور الحق ومعرفة المسلمين له سواء كان في موافقته أو مخالفته، وهذا من النصيحة لله وكتابه ولرسوله ودينه وأئمة المسلمين وعامتهم، وذلك هو الدِّين كما أخبر النبي ﷺ»[١]. وزاد فقال: «إنَّ الناصحَ ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنَّما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها».

وكان الإمام الشافعي صاحب نظر وفكر، ومما قاله من بديع أفكاره: «لو تدبَّرَ الناس هذه السورة (العصر) لوسعتهم»، وهي التي فيها قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾[٢]؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يتعاهد حتى سفراءه بالنصيحة.

فقد وصَّى ـ عليه الصلاة والسلام ـ معاذًا رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن نصيحة تعتبر من جوامع الكلم، فقال له: «اتَّقِ اللهَّ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتْبَعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[٣].

فالنصيحة ـ من هذه الشواهد والنصوص الشرعية ـ لُبّ الدِّين، ودليل حب الآخرين، ومحاولة كسبهم، وهي ليست وسيلة لتصيّد الأخطاء، وإحصاء الزلات على الناس، بل وسيلة لإرشادهم إلى دين الله وتجنّبهم المخالفات الشرعية، وكسب ودّهم، وزيادة الصلة معهم، وإحلال المودة بين المسلمين حتى ينشغل كل مسلم بالبحث عن كمال نفسه واستكمال فضائلها، وهذا التواصي بالحق يكفل حياة مستقرة للمجتمع الإسلامي، حيث تشاع فيه الفضيلة، وتستر فيه الرذيلة، مما يزيد من تماسك أفراده.

---

(١) الْفَرْقُ بين النصيحة والتعيير، ص ٣٢، ٣٣.

(٢) العصر: ٣.

(٣) أخرجه الترمذي (٧٨٩١)، عن أبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما، قال الترمذي: «حسن صحيح... وقال محمود ـ يعني ابن غيلان: والصحيح حديث أبي ذر». وأخرجه أحمد (٥/ ٦٣٢)، عن معاذ وليس فيه ذكر بعثه إلى اليمن.

* **النصيحة بين الإفراط والتفريط:**

أمام هذا الأصل الكريم في التواصي بالحق والنصيحة لكل مسلم وما يقف خلفه من دوافع نبيلة، يقف فريقان كل منهما يسيء إلى هذا الأصل؛ إمَّا بالإفراط أو بالتفريط، وإمَّا بالغلوِّ أو الانحراف.

فهناك فريق لا يعجبه أن يقف هذا المبدأ الإسلامي سدّا أمام شهواتهم وملذَّاتهم ومصالحهم غير المشروعة، ودعوتهم لتلوين المجتمع بألوان مختلفة من الفساد والرذائل، ومهاجمتهم لكل كلمة طيبة ونصيحة مخلصة، والافتراء على أصحابها وتزييف مبدأ الوصاية بالادِّعاء بأن لا أحدًا وصي على الدين، وأن مبدأ الوصاية على الدين مبدأ مرفوض، ثم يذهبون بعد ذلك مذاهب شتى في الطعن واللمز والغمز لكل من يقدم النصيحة، ويدعون علانية وجهرًا إلى ما يصادم الشريعة، ويتجرَّؤُونَ أكثر وأكثر من خلال الدعوة إلى فهم جديد للدِّين يناسب أهواءهم ورغباتهم الآثمة، والتطاول على العلماء السابقين والمعاصرين، وإصدار الكثير من نقدهم ونقد مناهجهم على طريقة «هم رجال ونحن رجال»، ثم يزيدون الكيل بعد أن يهاجموا كل من يريد أن يحتكر تفسير النص الديني، فيقدمون لنا تفسيرًا جديدًا للنصِّ الديني لا تزيد مساحة التفكير فيه عن ضادين: الضَّحالة والضعف!! وهكذا يقعون فيما حذَّروا الناس منه وهاجموا غيرهم عليه.

فهم يهاجمون الوصاية على الدين، ثم يريدون أن يفرضوا أسلوب حياتهم وفهمهم الخاص للدين الذي يريدونه بمعزل الحياة.

وهم يهاجمون احتكار تفسير النص الشرعي على الرغم من هذا العلم الراسخ الذي يقوم على منهجية علمية لفهم النص، ثم هم يفرضون على الناس تفسيرهم القاصر ـ وأحيانًا المضحك ـ للنص الشرعي، ويتحوّل هذا التفسير إلى قانون يفرضونه على الآخرين.

فإذا ما حدث تجاوز على قيم المجتمع وأعرافه، وتنادى المصلحون للأخذ على يد المفسد، استنفرت أصواتهم وأقلامهم للنَّيْلِ من هؤلاء الذين تجرَّؤُوا على «الحريات

الشخصية»، ونصَّبُوا أنفسهم «باباوات للإسلام»، وفرضوا «فقههم المتطرف» على الناس، و«أشاعوا الإرهاب الفكري والنفسي» من أجل السيطرة على عقول الناس ونفوسهم.

ووسط كل هذا الهجوم الذي شنّوه، لا يتعرَّض واحد منهم إلى أصل المسألة، وهي الدعوة إلى التجاوز على قيم المجتمع وهويته، وإن هم أشاروا إلى ذلك من طرف خفيّ ميَّعُوا الأمور وخلطوها بدعوى «الحرية الشخصية»، وقد يذرون الرماد في العيون فينكر بعضهم هذه الدعوة في سطر أو سطرين، ويستغل بقية صفحات المقال في التشفِّي والتعريض بمن عارض تلك الدعوة الفاسدة إلى الرذيلة.

*** قدسية النص الثابت والفهم البشري:**

تبقى قضية لا تقل أهمية عما سبق طرحه، وهي ضرورة التفريق بين قدسية النص الشرعي الثابت والصحيح وبين الفهم البشري لهذه النصوص، وهذا مما يحوجنا إلى طرح آلية محددة وضوابط واضحة لمنهجية فهم النص الشرعي، حتى تطمئن النفوس إلى صحة استنباط الأحكام من النص الشرعي، ولا تصبح هذه القضية مجالاً لتلاعب المتطفلين والمتفيهقين بغير حق ومن لا وازع عنده ولا تقوى إلاَّ حبّ الظهور أو تأويل النص الديني لتدعيم أفكاره التجديدية التي ما أنزل الله بها من سلطان، وصدق من قال: مَنْ تكَلَّمَ في غير فَنِّهِ أَتَى بالعجَائِبِ.

ومن المهم كذلك، ضرورة التفريق بين النصوص الشرعية التي هي من ثوابت هذا الدين ولا تحتمل اجتهادًا ولا خلافاً، وبين النصوص الشرعية التي لها محل من الخلاف المعتبر بين الفقهاء ولها مدارسها الفقهية التي تفهم الدليل بناء على منهجية علمية سليمة لفهم النص.

فالأول من الثوابت كالحجاب مثلاً، لا يجوز أن يأتي فقيه أو مدَّعي فقه ويقول: لديَّ رأي مخالف، فهذا رأي شاذ غير معتبر؛ لأنَّه مخالف للنصوص الشرعية وللثوابت التي أجمعت عليها الأمة، ومثل ذلك حرمة الربا، فهذه ثوابت لا يسعها الخلاف وكل رأي يقول بخلافها باطلٌ ساقطٌ لا حجيَّةَ له ولا اعتبار.

أمَّا مثال ما يحتمل الخلاف مثلاً: فإخراج زكاة الفطر طعامًا أم مالاً، وحتى لو أخذنا بالرأي القائل بإخراج الطعام، فإن للرأي الآخر حظًّا من النظر، وقال به الإمام أبو حنيفة، وهو خلاف شهير بين العلماء ولا يتسع المقام لذلك.

ومن الخطورة أن يحدث الإفراط في هذه القضية فيتم إلزام الناس برأي فقهي واحد، في قضية تحتمل الخلاف الفقهي وللناس فيه سعة، فهذه هي الوصاية المرفوضة في الدِّين، وهذا هو التضييق الذي لم يأمر به الله، وهنا يحق للمعترض أن يقول لمثل هؤلاء: لا تكونوا أوصياء على الناس وتحملوهم على رأي فقهي واحد، أمَّا أن نأتي إلى الثوابت؛ كوجوب الحجاب على المرأة المسلمة، أو على حرمة الربا ثم نرفض هذه الأحكام ونقول: نرفض وصايتكم على الدين فهذا ما لا يقوله الله ولا رسوله.

ففي هذه الحال، لم يعد الرفض موجهًا إلى وصاية هؤلاء على الدِّين، بل الرفض أصبح موجهًا إلى نصوص الدين الثابتة التي لا تقبل التأويل أو التحريف، وهنا يصبح النص الشرعي الثابت الصحيح هو الوصي على الجميع ومن لديه رفض لهذه المرجعية يجب أن يعلنها بكل صراحة، بدل اللف والدوران ومحاولة استنساخ دين جديد بدعوى التجديد.

وأنا أعتقد أنَّ الإشكال اليوم الناشئ لا ينبع من الاعتراض على الإسلام كمرجعية يجتمع حولها الجميع، إذا ما استثنينا بعض الأصوات الشاذة المجاهرة برفض الإسلام منهجًا وسلوكًا للحياة، بل ينبع من أسلوب فهم النص الشرعي؛ خصوصًا مع وجود مدارس فكرية متنوعة، ومذاهب فقهية مختلفة فيها النص الشرعي هو الأساس في التقعيدات والتخريجات الفقهية، وهذا يمتد إلى دعاة التجديد المفترض أنهم دعاة لإعادة فهم النص الشرعي من خلال مستجدات الحياة المعاصرة مع عدم الجمود على اجتهاد رجال عظام أبدعوا لعصرهم وزمانهم.

وهنا من الضروري تثبيت الفرق بين هذه القضية، وبين الزهد في المنهج الذي يقوم عليه فهم النص الشرعي واستخراج الأحكام منه، فالعقلية المحضة التي لا

تعتمد على منهج واضح المعالم في التعامل مع النص الشرعي لا يمكن أن تخرج بنظريات وقواعد تجديدية لا تصطدم بالنص الشرعي نفسه، وكان الإمام مالك يقول: «ما قلت الآثار في قوم إلاَّ كثرت فيهم الأهواء»[١].

* **منهجية فهم النص الشرعي:**

لم يعان في عصرنا الحاضر علم من العلوم من كثرة المتطفلين، مثلما عانى علم الفقه وأصوله من تطاول غير المتخصصين بناء على قدراتهم العقلية المحضة، وفي غياب واضح لمنهجية فهم النص الشرعي، تلك المنهجية التي أسست قواعدها وأرستها مدارس فقهية مختلفة على مرِّ العصور، وفنيت فيها أعمار رجال طوال القامة، جمعوا بين دقة فهم النص الشرعي والورع والتقوى والخوف من الله إلاَّ يستفرغوا جهدهم وطاقاتهم للوصول إلى الحكم الصحيح، ويعتبرون ما قاموا به دِينًا يدينون لله به، فأتعبوا أبدانهم وأتلفوا أنفسهم وأهلكوا أوقاتهم في تحقيق مسألتين مهدتا الطريق لمن جاء بعدهم.

* **المسألة الأولى:**

هي التثبت من صحة الحديث النبويّ الشريف، وفي سبيل هذه الغاية الغالية عرفت الحضارة الإسلامية الرحلات العلمية في طلب الحديث، حيث قطع هؤلاء العلماء وبوسائل بدائية آلاف الأميال والكيلومترات للوصول إلى الحديث الشريف من مصادره، وكادوا أن يتلفوا في سبيل تحقيق هذه الغاية متنقلين بين الشام واليمن ومصر والجزيرة والبصرة والكوفة وفارس وخراسان والشمال الأفريقي في سبيل جمع حديث النبي ﷺ.

وقد أثمرت رحلات طلب الحديث النبوي، علمًا آخرَ لا يوجد في أي حضارة أخرى، وهو «علم الجرح والتعديل»، فتمايز علم الحديث إلى سند ومتن، حتى صار لدى العلماء ثروة أرشيفية في أحوال الرجال من جرح وتعديل. ومع نضوج هذا

---

(١) الفقيه والمتفقه، ص ٩٤١.

العلم، كانت هناك علوم أخرى آخذة في التكوين والنضج.
فقد تم إسناد «علم الفقه» بـ «علم أصول الفقه»، كما أبدع العلماء في القواعد الفقهية، وهو جهد جبار لتقعيد علم الفقه ونسبته إلى أصوله. وهكذا بدأ بنيان المدارس الفقهية في النضج والاستقرار، فعرف طالب العلم كيف ينمي ملكته الفقهية، ويستنبط الأحكام من النصوص الشرعية، ثم عرف كيف يتدرج طالب العلم الشرعي في بحث المسألة الشرعية، فيتعلم أولاً آداب طلب البحث في المسائل الشرعية من إخلاص النية لله، والرغبة في الوصول إلى الحق، مع معرفة كتب ومراجع العلم، وتأسيس القدرة العلمية على البحث، وهذه تشمل التمكّن من اللغة العربية، ومعرفة الأدلة الشرعية ومراتبها، والحكم الشرعي وأقسامه، ودلالات الألفاظ وطرق الاستنباط، وعلم الناسخ والمنسوخ والتعارض والترجيح، ومعرفة ترتيب الأدلة ومقاصد التشريع، والقدرة على جمع النصوص الشرعية من قرآن وحديث في المسألة المطروحة للبحث، ومعرفة الحديث الصحيح من الضعيف، والتعامل مع كتب التفاسير وآيات الأحكام، وشروحات الحديث، ومعرفة الكتب الفقهية في كل مذهب، والمدوّنات الفقهية، يجمع مع كل ذلك صبرًا وتأنيًا، وتفرغًا ذهنيًا، ووجود رغبة قويَّة في معرفة الحكم، مع ضرورة الاعتماد على الله في كل ذلك، فيبدأ بجمع المصادر الفقهية ليبحث فيها من أجل الترجيح ومناقشة الأدلة وصولاً إلى الحكم الشرعي، ولا يمكن إغفال دور القواعد الفقهية في موضع البحث والتي هي أصل فقهي كلي يتضمن أحكامًا تشريعية عامة، من أبواب متعددة في القضايا التي تدخل تحت موضوعه»[1].

ويذهب الموضوع إلى نوع من التخصص العميق عند تناول قواعد عامة في فهم منهج النص على شاكلة: «لا تعرف دلالة النص بدون القرائن المحيطة به»، وقضية: «النص والتأويل»، وموضوع «الدلالات»، ومفهوم «المخالفة»، وغيرها وغيرها.

ولو أردنا أن نذهب إلى العمق وأعطينا الأمثلة لرأينا موازين كالذهب في التعامل

(١) القواعد الفقهية، للندوي، ص ٣٤.

مع النصوص الشرعية وصولاً إلى الحق والحكم الشرعيّ.

وما استطردنا في عرض ملامح من منهج فهم النص الشرعي إلاَّ لنضرب الجرس لمن يتكلَّم في غير فنِّه، ونراه مفتونًا بثقافة الآخر، فيأتي ليلج باب البحث والاجتهاد والتجديد في التعامل مع النص الشرعي وهو يرفع راية: «هم رجال ونحن رجال»، بينما ما يملكه من العلم الذي يؤهله للتعامل مع النص الشرعي غير كافٍ حتى للوقوف على شاطئ هذا المحيط الكبير.

نعم، إنَّ في الإسلام مجددين، أثروا منهج التعامل مع النص الشرعي بنظرات جديدة، مثلما اجتهدوا في أحكام لاقت القبول والاستحسان من علماء الأمة، بناء على التعامل العلمي الرصين مع النص الشرعي، ولكن هؤلاء المجددون كانوا دائمًا من بيت الشريعة والفقه ومن العلماء الفطاحل فيها، وليسوا من المتطفلين على هذا العلم أو مُدَّعيه.

ولو تأمَّلنا في التجربة التجديدية لشيخ الإسلام ابن تيمية، وخصوصًا أنه نشأ في عصر مقارب لظروف عصرنا الحالي، وأيامنا الحالية بالذات، حيث أراضي المسلمين تحت الاحتلال التتري، مع وجود الهزيمة النفسية في قلوب وعقول المسلمين، وانتشار البدع والفرق الضَّالَّة والباطنة، فتصدَّى لهذا كله وأعاد الناس إلى الكتاب وصحيح السُّنة، فنقد مناهج الفلاسفة والمتكلّمين وهم أهل الحداثة في زمانه، كما نقد الفرق المنحرفة بأدلَّة وشواهد قويَّة، وأكد على التجديد من خلال إحياء الاجتهاد والاحتكام إلى النصِّ الشرعي، وتحكيم الدليل، ونبذ التعصب والتقليد الأعمى، وواجه تحديات العصر وجاهد التتار بقلمه وسيفه.

فهذا هو التجديد المنضبط بمنهج سليم للنص الشرعي، وليس هو التجديد الذي يقع في عقول أهل الأهواء، ومن فتنوا بحضارة الغرب، وجاؤوا ليضعوا النتائج، ثم يلفقوا لها الأسباب والأدلَّة، حتى دون أن يكون لديهم إمكانات طالب علم شرعيّ مبتدئ، فتحول تجديدهم إلى نوع من إثارة الشُّبَه والفتن الفكرية على الأمة، وتحوّل اجتهادهم إلى انتصار للبدعة ومحاربة للسُّنة.

وهذا ما قال به الراغب في كتابه «المفردات» وهو يعرف البدعة، فهي: «إيراد قول لم يَستَنَّ قائله وفاعله فيه بصاحب الشريعة وأماثلها المتقدمة وأصولها المتقنة»[١]، وهذه القضية ليست بجديدة فقط استوعبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحذَّر الصحابة منها فقال: «إيَّاكُم وأصحاب الرأي، فإنَّهم أعداء السُّنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي، فضلّوا، وأضلّوا»[٢].

وكان ابن مسعود رضي الله عنه شديد الحذر من الابتداع في دين الله فكان يقول: «الاقتصاد في السُّنة خير من الاجتهاد في البدعة»، وكان يوجّه المسلمين فيقول لهم: «إنَّا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر».

وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾[٣]، فقال: «أهل السُّنة والجماعة وأولو العلم»، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾[٤] قال: «أهل البدع والضلالة»[٥].

ومن مأثور قول الحسن البصري ـ رحمه الله: «لا يزال لله نصحاء في الأرض من عباده يعرضون أعمال العباد على كتاب الله فإذا وافقوه حمدوا الله، وإذا خالفوه عرفوا بكتاب الله ضلالة من ضلّ، وهدى من اهتدى، فأولئك خلفاء الله»[٦].

وقد أصَّلَ شيخ الإسلام المسألة فقال: «العبادات مبناها الشرع والاتِّبَاع، لا على الهوى والابتداع، فإنَّ الإسلام يُبْنَى على أصلين:

أحدهما: أن نعبد الله وحده لا شريك له.

والثاني: أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع،

---

(١) المفردات، ص ٩٢.
(٢) الفتح (٣١/ ٢٠٣).
(٣) آل عمران: ١٠٧.
(٤) آل عمران: ١٠٦.
(٥) أصول الاعتقاد (١/ ٢٧).
(٦) الاعتصام (١/ ٤٣).

فليس لأحد أن يعبد الله إلاَّ بما شرعه رسوله ﷺ من واجب ومستحب، لا أن نعبده بالأمور المبتدعة»[١].

وهذا ما نراه اليوم من أناس بضاعتهم مزجاة في العلم الشرعي، ثم يحكمون عقولهم في قضايا الشريعة بدعوى التجديد والإثراء، وفي هؤلاء قال الحسن البصري: «إنَّما أهلك من كان قبلكم حين تشعبت بهم السُّبُل، وحادوا عن الطريق، فتركوا الآثار وقالوا في الدين برأيهم فضلُّوا وأضلُّوا»[٢]، وقال الإمام الشافعي: «لأنْ يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك، خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء»[٣].

* **أسباب الانحراف عن المنهج القويم:**

لا شك أن منهج «النصيحة» و«التواصي»، ذهب أحيانًا كثيرة ضحية للتجاذبات السياسية، خاصة إذا استعمل التيار الإسلامي أدوات دستورية للقيام بواجب «النصيحة» و«التواصي» للمجتمع، فساعتها قد ينظر إليه البعض على أنه «خصم سياسي» وليس «ناصحًا أمينًا». ولذلك يكثر خصوم التيار الإسلامي استعمال مفردة «توظيف الدين لتحقيق أهداف سياسية»، بينما في الحقيقة أن التيار الإسلامي يحاول أن «يستخدم السياسة لتحقيق غايات دينية»، ويؤيده في ذلك أن الأدوات الدستورية والسياسية ما هي إلاَّ جزء من وسائل التيار الإسلامي للقيام بواجب النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ووجود وسائل أخرى لتحقيق هذه الغاية مثل لجان الصحبة الصالحة والكلمة الطيبة وتوزيع الكتيبات الإسلامية والإرشادية تؤكد هذا التوجّه والذي هو جزء أساسي من منظومة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي غايتها الأساسية الحفاظ على قواعد القيم والسلوك التي قام عليها المجتمع خالية من الإصابات والضعف.

---

(١)الفتاوى (١/ ٨)، بتصرف.
(٢)الاعتصام (١/ ٢٠١).
(٣)الحلية (٩/ ١١١).

بالإضافة إلى هذا السبب هناك أسباب أخرى بعضها ذاتي وبعضها موضوعي لرفض مبدأ «النصيحة» أو «الوصاية» كما يطلق عليها المعارضون، ومنها: رفض الرؤية الحضارية للتيار الإسلامي في أسلوب الحياة، ودور الدين في الحياة والمجتمع، واعتساف تفسير النص الديني بشكل ينسجم مع العلمانية والحداثة، مع استقراء مخل لأحداث التاريخ، واستدلال بالشخصيات الشاذة التي مرَّت عبر التاريخ الإسلامي وإعادة التعريف فيها وفق معطيات الحداثة المعاصرة؛ حيث تتحول هذه الشخصيات ـ بفضل هذه الرؤية ـ من شخصيات زنديقة منحرفة خارجة عن أصول الدين والمجتمع إلى شخصيات ثورية ومفكرة وداعية تحرر من اضطهاد السلطة السياسية، ويوازي ذلك الاتجاه افتتان كبير بثقافة الآخر المنتصر، والزهد بثقافة وتراث المهزوم، ودعوات ملحة ومتكررة باستبدال الثقافة والهوية المحلية بهوية مستوردة من أجل تحقيق التقدم والتطور الحضاري.

وهنا ندع دكتور علم الاجتماع في السوربون «برهان غليون» يرد على هذه النظرية المأزق بقوله: «إنَّ هذا المأزق يتمثَّل في الاعتقاد بأننا لو أخذنا نفس مبادئ الأوروبيين لتقدمنا، إنَّنا بهذا الاعتقاد ألغينا التاريخ، وألغينا العلاقات التاريخية بيننا وبين الغرب، وألغينا كل صيرورة المسلسل التاريخي والاجتماعي الذي أدَّى في أوروبا إلى ظهور الثورة الصناعية والثورة السياسية»[(١)].

ويؤكد أيضًا أنَّ: «من الوهم أن تعتقد جماعة أنها تستطيع أن تندمج في الحضارة من دون أن تحيي تراثها، إما بالتغاضي أو بالتخلي عنه، فالنتيجة لن تكون إلاَّ انتقامًا أكبر للماضي من الحاضر، وتهديدًا أعظم لأي جهد تجديدي، كما إنَّه من الوهم أن تعتقد جماعة أيضًا أن تراثها بمفرده ـ مهما كانت عظمته ـ يمكن أن يحفظ لها استقلالها وحريتها، ونجاعتها التاريخية»[(٢)].

ويؤكد الدكتور «عماد الدين خليل» خطورة الوقوف على الماضي دون التفاعل

(١) الخطاب العدمي، ص ٩٥.
(٢) حوار من عصر الحرب الأهلية، ص ٥٧٢.

مع الحاضر، فيقول: «نعم... إذا ما أتحنا لهذا التشبث (بالتراث) أن ينقلب إلى نوع من الاندماج في الماضي والذوبان فيه... إلى هروب من الحاضر المليء بالتحديات... إلى رفض الانتماء إلى العصر والعودة إلى الوراء لكي يحتوينا بسلبياته وإيجابياته على السواء... إلى موقف غير علمي، لا ينقد ولا يلتقي ولا يرفض، بل يستسلم كليةً لنداءات الماضي ويغيب عن العيان...

إنَّ التشبث بالتراث إذا ما جاوز حدّه المنطقي الهادئ، تحوَّل إلى سلاح خطير شهره ضد أنفسنا في حلبة الصراع الرهيب ضد أعدائنا ومهاجمينا»(١).

إذن، فتأليه ثقافة الآخر والشعور أمامها بالدونية؛ من الأسباب الرئيسة في الزهد في الثقافة الذاتية وعدم بذل الجهد لاستيعابها وفهمها، والزهد حتى في منهج تفسير النص الديني، وبالتالي الوقوع في بئر التفسير المنحرف لتلك النصوص والخروج - كما قلنا سابقًا - بما ينسجم مع متطلبات الحداثة المعاصرة حتى لو لم تذهب التفسيرات الأصولية لهذه النصوص إلى هذا المنحنى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: «الناظر في الدليل بمنزلة المترائي للهلال قد يراه، وقد لا يراه لعشًى في بصره»(٢)، فضعف الإدراك لتفسير النص قد يقف حائلاً دون الوصول إلى الحكم الشرعي، ومن هنا تأتي خطورة ردّ بعض الحقّ وترك شيء مما جاء به الشرع، ولذلك قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إنَّما أخشى إن تركتُ شيئًا من أمر رسول الله ﷺ أن أزيغَ»(٣).

كما قال الإمام أحمد - رحمه الله: «لعلَّ العبد إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ الله قلبه فيهلكه».

*** موقف العلمانية من الشريعة:**

---

(١) مواقف إزاء التراث، د. عماد الدين خليل، ص ٤١، ٥١.

(٢) نقض المنطق، ص ٤٣.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٠٣)، ومسلم (٩٥٧١)، وأبو داود (٠٧٩٢)، وأحمد (١/ ٦، ٧)، عن عائشة رضي الله عنها.

ولو أردنا أن نورد هنا بعض تصريحات النخبة العلمانية عندنا هنا ـ في الكويت ـ من أقوالهم ومواقفهم تجاه الشريعة والحضارة والهوية الإسلامية، لوجدنا أنها خليط من التخليط، فهم يقولون: إنَّ «بيئة التيارات الإسلامية لن تخرج لنا «فولتير» أو «جان جاك روسو»»، وأنه «لا بد من إلغاء لجنة تطبيق الشريعة»، وهم «يريدون فرض أحكامهم في عصر الهندسة الوراثية»، و«أننا لا نتفق معهم على أن الإسلام هو الحل»، وأنَّ «قانون منع الاختلاط ينظر للمرأة نظرة جنسية ولا بد من نسفه»، وأنَّ «٥٩٪ من تصرفات التيار الإسلامي لا علاقة لها بالسلف الصالح، وأن الغرب تطور عندما جعل مكان العبادة في الكنيسة فقط»، وأنَّنا «ضد أسلمة القوانين، ونطالب بتطبيق تجربة الغرب».

فهذه بعض العينات المنشورة في الصحف من أفواههم وأقلامهم، والمسألة عند البعض منهم ليست رفضًا لوصاية أحد على الدِّين أو رفض احتكار تفسير النص الديني، بل المسألة أخذت أبعادًا أخطر برفض أسلمة القوانين، واستبدالها بالتجربة الغربية، ولا شكَّ أن هؤلاء على خطر عظيم!

فحالهم في سبيل تقديم نسخة معدلة من الإسلام إلى قدواتهم في الغرب كحال المذيعة التي ضربها زوجها فهاجرت إلى فرنسا وعندما قابلت صحيفة «الجارديان» البريطانية كانت تحتسي نبيذ «سانت إمليون» الفاخر، بعد أن خلعت حجابها، وقد عرفت نفسها بعد كأس النبيذ وخلع الحجاب بأنها مسلمة محافظة على التقاليد!! أعاذنا الله من زيغ القلوب.

ü ü ü

المبحث الرابع

الإسلام بين دعاة التجديد ودعاة التجريد

يبدو أن مصطلح «التجديد» سيظل مثار تداول وحوار لفترة غير بسيطة قادمة، وهو أحد المصطلحات التي سببت ولا زالت تسبب إشكالات سابقة ولاحقة، والجدل القائم حول المصطلح يتجدد بشكل متجدد؛ لأنَّ مفهوم التجديد بحد ذاته مفهوم واسع تفهمه أطراف كثيرة بمعانٍ مختلفة تصل إلى حد التناقض، كما أنَّ هذا المصطلح تعرض للتحريف عما كان عليه في القرون الأولى، التي فهمت التجديد بشكل أكثر بساطة تبعًا للحديث الشريف: «إِنَّ اللهَ ـ تَعَالَى ـ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأسِ كُلِّ مائةِ عامٍ مَنْ يُجَدِّد لَهَا دِينَهَا»[1].

* **مفهوم السلف للتجديد:**

وقد فهم السلف الصالح التجديد على أنه إحياء للدِّين في النفوس، وتعبيد الناس لله على المنهج النقي الذي كان عليه محمد ﷺ، وتحوَّل هذا التجديد إلى «اجتهاد» له آلية شرعية إسلامية تضمن ضوابطه السير على هدي القرآن والسُّنة، وكان هذا الفهم هو الفهم السائد في القرون الأولى، حيث كان التجديد محصورًا على أهل الاختصاص في العلم الشرعي من السادة العلماء الكبار من أمة الإسلام، باعتبارهم يملكون الثروة العلمية من أدوات العلم ونصوصه الأصيلة، مع تعمق في فقه المقاصد الذي يتعرض هو الآخر لحالة من التشويش من قبل المتطفلين على هذا العلم، وتمكن كامل من علوم الآلة التي تساعدهم على النظر في النصوص واستخراج الأحكام.

وعمل المجدد يقوم على تشخيص أمراض العصر الذي يعيش فيه تشخيصًا صحيحًا من خلال إمعان النظر في هذه الوقائع والتأمّل في مواقع الخلل وموقف الشريعة من هذا الواقع، ومن ثم وضع برامج الإصلاح المناسبة لهذا الواقع،

---

(١)أخرجه أبو داود (١٩٢٤)، والحاكم (٤/ ٢٢٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وسكت عليه الحاكم والذهبي، وصححه الألباني.

والسعي لإحداث التغيير في أفكار وطبائع المجتمع لإحياء العقلية الإسلامية الصافية من الشوائب، والاجتهاد في تجديد الفهم لكليات الدين الكبرى وكيفية إعادتها إلى واقع عملي ممارس في حياة الناس، وتخليص الحياة الإسلامية من الإصابات الفكرية التي لحقت بها وشوَّشت هذه المفاهيم.

*** مستلزمات التجديد الراشد:**

ولكي لا ينحرف التجديد عن أهدافه ويتحول على يد المتطفلين إلى وسيلة لممارسة الألعاب الفكرية والعبث في النصوص والابتداع في دين الله؛ كان لا بد من وضع مستلزمات وضرورات تحفظ التجديد من التعرض للسلب والتشويه على يد المناطقة والفلاسفة.

فمن مستلزمات التجديد: السعي لإحياء الدين وبعثه وإعادته إلى ما كان عليه في عهد القرون الأولى، وخاصة الفترة النبوية والخلافة الراشدة.

ومن مستلزمات التجديد: حفظ نصوص الشريعة الأصلية صحيحة ونقيَّة، ونفي التحريف عنها، والوضع والتمكن من العلوم والضوابط التي تضمن هذا الحفظ؛ كعلوم الجرح والتعديل ومصطلح الحديث والناسخ والمنسوخ وغيرها.

كما أنَّ من ضرورات التجديد: اتباع المنهج السليم لفهم النصوص الشرعية ومعانيها من كتب الأصول، كالتفاسير المعتبرة وشروح كتب السُّنة والحديث، مع الأخذ في الاعتبار أن غاية التجديد هي تمكين أحكام الدين من توجيه حياة المسلمين مع وضع الحلول الإسلامية لكل مستجد، وتشريع الأحكام لكل حادث، مع تنقية الدين من الانحرافات والبدع وإصابات الأعداء ومكر الماكرين.

*** التجديد الكاذب:**

ما سبق هو التجديد الذي فهمته الأمة بسلفها وخلفها وتلقت مجدديه بالقبول ولا زالت بصماتهم وعطاءاتهم محل تقدير، أمَّا التجديد الكاذب فهو الذي يتولاه أطراف تعتمد بالدرجة الأساسية على فهومها العقلية في التعامل مع النصوص،

دون أن تمتلك الوسائل التي تعينها على استخراج الأحكام بشكل أصولي منضبط، وهي كذلك شخصيات مفكرة غير ذات اختصاص في علوم الشريعة، ومتطفلة على موضوع لا تمتلك خلفيته العلمية والفكرية وبنيتها الأساسية من العلوم اللازمة لدخول هذا المعترك بِنْيَةٌ هشة فقيرة، لا تصلح في تصنيفها حتى كطالب علم مبتدئ، والشهادات التي تحملها، على الرغم من قيمتها العلمية الكبيرة في مجالها، لا تمنحها كلمة السر لدخول بوابة الاجتهاد في الفكر الشرعي إن صحَّ التعبير.

وهذه الشخصيات ـ بحسن نية أو بسوء نية ـ كل همّها من دخول الاجتهاد هو الخروج بتصورات جديدة تلصقها بالشريعة؛ من أجل محاولة المزاوجة بين الحضارة الغربية وبين الشريعة الإسلامية، بحيث تصبح هذه المقاربة البوابة التي تدخل منها القيم الغربية إلى المجتمع المسلم، مع محاولات مكررة ومستميتة من أجل تهذيب وتشذيب المفاهيم الإسلامية بحيث لا تشذ عن القيم الغربية وتتوافق معها.

حتى لو أدَّى ذلك إلى فهم فجّ لنصوص الشريعة، وتحميل النصوص الشرعية ما لا تحتمل لا عقلاً ولا نقلاً، مع تعامل سوقي مع أدوات الاجتهاد، وأخطاء منهجية فاضحة في الاستدلال واستعمال «المنطق» بدل «الدليل»، و«العقل» بدل «النقل»، و«علوم الفلسفة» بدلاً من «علوم الشريعة»، وإعادة تفسير التاريخ ليتلاءم مع محاولة تذويب الإسلام ومفاهيمه مع معطيات العصر المهنية وهي بالطبع المفاهيم الغربية «المتعولمة».

ليس مطلوبًا اليوم من أصحاب الفكر الدفاعي أن يضعوا الإسلام في قفص الاتهام ابتداءً، ثم تبدأ محاولاتهم تبييض وجهه من خلال البحث عن المضامين المشتركة مع الثقافة المسيطرة، والذين أصابتهم الهزيمة النفسية عليهم أن يتركوا التوجيه والقيادة الفكرية لغيرهم إلى أن يتخلَّصُوا من هذه الهزيمة، بدلاً من تحويل هذه الهزيمة إلى منظومة فكرية يحاولون جرّ الآخرين إليها، وإسقاطهم في حبائلها، وقد لفظت الأمة في السابق هذا الصنف من المفكرين، واعتبرت أطروحاتهم حالات شاذة سقطت مع الأيام وتجاوزها التاريخ وبقيت الأمة بمجموعها على

المحجَّة البيضاء لا يزيغ عنها إلاَّ هالك.

ولا داعي للتذكير بموقف الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ عندما تصدَّى لفتنة المعتزلة في محنة خلق القرآن، فهل كان عمل المعتزلة نوعًا من التجديد أم نوعًا من الهدم والتحريف لدين الله؛ حيث كان لديهم من القوة والسلطان ما فرضوا به هذه الفكرة على الناس وأطاروا رقاب علماء كبار بسبب رفضهم لهذا التجديد المبتدع؟!

وقد ثبت الإمام أحمد ورفض أن يقول كلمة ينجو بها من الحبس والعذاب والجلد والاضطهاد؛ لأنَّ طلبة العلم خارج السجن يمسكون أقلامهم في انتظار كلمة من الإمام أحمد يؤيد فيها هذا التجديد المنحرف عن دين الله، لكن الله أَيَّدَهُ وعصمه من السقوط في هذا الفكر المنحرف، وعصم الأمة من بعده، ولو نجح معتزلة الأمس في انتزاع ما يريدونه من الإمام أحمد، لحصد معتزلة اليوم نتيجة القول بخلق القرآن، وقالوا: إنه ما دام مخلوقًا فإنه قابل للفناء، وعلى هذا فإنَّ القرآن قد انتهى زمانه ليلغوا العمل بالتشريع، ومن ثم تستلم العلمانية الراية مدعومة من قبل العمائم الليبرالية، التي تريد التجديد لهذا الدين عبر تجريده من قيمه الخاصة، وإذابته في القيم الغربية السائدة تحقيقًا لمبدأ التعايش السلمي، وهو الذي ـ في نظرهم ـ يعبر ـ كما يفهمون ويريدون من الناس أن يفهموا ـ عن وسطية وتسامح هذا الدين، فأي دين يبقى لنا بعد أن نصل به لمثل هذه المعطيات لا سمح الله!!

*** لعبة العمائم الليبرالية:**

إذن، ففكرة تجريد الدين من قيمه الأصيلة بحجة تجديده، وباستعمال العمائم الليبرالية، فكرة كانت دائمًا تثير إعجاب أعداء الدين، فوجود العمائم الليبرالية في مواجهة العمائم الأصولية فكرة تقوم في ظاهرها على منع احتكار فهم الدين ونصوصه لصالح العمائم الأصولية، وفي حقيقتها محاولة لتقديم تفسير جديد للإسلام ينزع منه أنياب المقاومة لكل من يريد أن يبتلع خيرات هذه الأمة ويهدم تاريخها، ويحقر حضارتها، ويسفه مبادئها ويميّع قيمها.

لعبة العمائم الليبرالية ليست بجديدة، وبدأت في الظهور ربما مباشرة بعد سقوط

الخلافة الإسلامية، ومن الشخصيات التي قامت بهذا الدور المبكر الشيخ الليبرالي «علي عبد الرازق» صاحب الكتاب الشهير «الإسلام وأصول الحكم»، ورغم أنه كان شيخًا أزهريّا إلاَّ أنَّه انتسب هو وشقيقه الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى مجموعة ليبرالية تضم د. محمد حسين هيكل، ومحمود عزمي، وعزيز ميرهم، ود. منصور فهمي... وغيرهم.

وأصدر الشيخ مصطفى أخو الشيخ عليّ مجلة «السفور»؛ لتدعو للتحرر في فهم الدين والحياة، وهكذا وجدنا عمامة ليبرالية مبكرة تدعو إلى فصل الدين وعزله عن سياسة الدولة، وقد تصدَّى له رجال الأزهر في تلك الفترة.

اللافت للنظر أن العمائم الليبرالية منذ ذلك الوقت، كانت شخصيات مستقلة تمثل نفسها، وربما تجد القبول من المجتمع أو الرفض، لكن الخوف الآن أن يلبس هذا النوع من العمائم رموز وقدوات كبار في جسد الصحوات الإسلامية، وهو ما ينذر بتشويش القواعد الإسلامية ما بين المنهج الأصيل التي تربت عليه، وما بين الأطروحات التجديدية أو التجريدية للإسلام من مضامينه من قبل تلك الرموز.

*** خطأ الكبير ... كبير:**

لقد كان ـ دائمًا ـ ديدن الدعوة، التأكيد على القائد القدوة، وعلى خطورة التصدر للذي لم يمتلك الأرضية الفكرية التي يلتقي عليها التيار العام من جسد الصحوة، حيث تقع على القدوة مسؤولية خطيرة من حيث تمثيل ما يدعو له، وإدراك طبيعة طريق الدعوة، وما يتخلله من عقبات وأشواك، مع قدرة على تمييز الغث من السمين، وتبصير إخوانه بالانحرافات الفكرية أو الحركية التي قد ينزلق فيها البعض، ومعرفة كيفية الأخذ بأيدي المخطئين لتصحيح أفهامهم وتصوراتهم، وقد أكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ضرورة الاقتداء بالقدوة الصالحة، قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [(١)].

---

(١) الأنعام: ٩٠.

ومن هنا تأتي خطورة إصابة الرمز أو القدوة بالهزيمة النفسية، بحيث تتحول تلك الهزيمة إلى فكرة يتبناها ويبثها عبر أطروحاته ومقالاته ومقابلاته، بحيث تتحول إلى رؤية مستقبلية تقود الحركة لتحقيق مكاسب آنية في ظروف معقدة، تبدو أمامه كالرمال المتحركة دون استيعاب أثر هذه النقلة الفكرية على من اتخذه قدوة، ودون استشعار كشف الخسائر التي ستمنى بها الدعوة على المدى البعيد، بعد أن تم التنازل عن مفاهيم أساسية في الدعوة والدين لمجرد أن الآخر يعتبرها مفاهيم منغلقة لا تناسب ثقافة الفكر السائد أو الذي يُرادُ له أن يسود.

إنَّ خطورة مثل تلك الأطروحات على شباب الحركة، إنَّما تأتي من أربعة أسباب تجعل خطورة الانزلاقات الفكرية للداعية الرمز بتلك الحدَّة:

١ ـ صاحب الانزلاقات الفكرية المطروحة ينال من التقدير والاحترام في أوساط الشباب الشيء الكثير باعتباره من رموز أو روَّاد الدعوة، كما أن هذا الرمز الأصل فيه تصحيح المفاهيم والأفكار المنحرفة التي تصيب شباب الدعوة، لا أن يصبح العكس هو الوضع الطبيعي، فإذا ما أضفنا إلى ذلك فتنة تقديس الأشخاص لدى بعض شباب الدعوة علمنا أي خطورة يمثلها الانزلاق الفكري للرمز الدعوي دون أن يجد من يصوّب هذا الزلل ويعيد الأمور إلى نصابها.

٢ ـ التكوين الثقافي والعقلي لدى الشباب لا يكون ناضجًا بعد، والأفكار التي يحملها لم تصل لمرحلة المسلَّمات النهائية، وكذلك نجد الشباب هو الأقدر على التفاعل مع الجديد، وربما التأثر الشديد به، خاصة إذا جاء من رمز له ثقله وتقديره.

٣ ـ المرونة الذهنية لدى الشباب قادرة على الاستيعاب والتكيف مع الأفكار الجديدة على عكس الكبار، ومرحلة الشباب مرحلة عطش فكري تشبه الإسفنجة في امتصاص الأفكار، والقدرة على التمييز بين التجديد وبين الانحراف لا يمتلكها معظم الشباب في تلك الفترة، خصوصًا إذا جاءت من الباب الآمن: رمز الدعوة وقدوتها، على عكس كبار السن، حيث تنخفض مستويات التفاعل مع الجديد والتطلع للمستقبل يقل بسبب الإحساس أن ما تبقى من العمر لم يعد كافيًا للقيام

بمشاريع جديدة.

٤ ـ الشباب في مرحلة التكوين الثقافي والمعرفي ليست له مصالح أو منافع مرتبطة بالأوضاع القائمة، فلا يرى خطرًا في تبنِّي الأفكار الجديدة، بل يتبناها ويدعو لها باعتبارها المفاتيح التي ستدخله إلى المجتمع العملي.

من أجل كل هذه الأسباب، تصبح أطروحات رموز الدعوة وقدواتها، أشبه بالفتنة عندما تكون غير موفقة، ويصبح خطأ الكبير كبيرًا في مثل هذه الحالات نظرًا للأثر الكبير الذي يحدثه؛ لأنه ببساطة في موضع قدوة ويظن به الخير والصواب، وقد تأتي مصائب الصف المسلم في أحيان كثيرة ممن يتربعون على مقاعد التوجيه والتنظير.

بينما تاريخ الكبار من أمتنا يبين مدى خطورة الاجتهادات غير المدروسة، وتخوف الكبار منها، فكان الإمام مالك عندما سئل عن ثمان وأربعين مسألة، أجاب في اثنتين وثلاثين منها: «لا أدري»، وكان يقول: «إني أفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة، فما اتفق لي فيها رأي إلى الآن»، وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: «ربما مكثتُ في المسألة ثلاث سنين قبل أن أعتقد فيها شيئًا».

فأين هذه الآثار الرائدة مما يمارسه بعض رموز الدعوة الذين يأتون بالأفكار التجديدية المخالفة لإجماع الأمة، معتقدين أنهم يُخَذِّلُونَ عن الإسلام ويمنعون بعض الأذى عنه من أعدائه، وما دروا أنهم بهذه الأفكار أعطوا لأعداء الإسلام ما يريدون من النيل من ثوابت هذا الدين وما أجمعت عليه الأمة سلفًا وخلفًا؟!

*** أيها الدعاة... لا يمكنكم أن تركبوا قطارين:**

خلصنا فيما سبق إلى ضرورة الوعي والتفريق بين التجديد في دين الله المرتبط بأصول وضوابط وقواعد مستقرة عليها إجماع العلماء، وبين تجريد الدين من مضامينه بزعم تجديده وضرورة ملاءمته للعصر. وعلى هذا، ليس من الصعب التفريق بين الأمرين، ولم تقاوم الأمة في يوم من الأيام التجديد الأصيل الذي لم

يخرق قاعدة شرعية أو يتجاوز آلية الاستنباط والتعامل مع النصوص الشرعية، على عكس التجديد المنحرف الذي سرعان ما تصدَّت له جموع الأمَّة ورفضته.

وانظر كيف استقبلت الأمة تجديد الشافعي في كتابه «الرسالة»، وتجديد ابن تيمية الذي قضى حياته في صراع مع المبتدعة من جهة والتتار من جهة أخرى، وانظر كيف رفضت الأمة الانحرافات التي انسلخت من جسد الأمة كفتنة المعتزلة وفرق الجبرية والْـمُرْجِئَة والصوفية المنحرفة!!

نحن هنا لا نتحدث عن عوام الناس، ولا عن الذين تستوجب مصالحهم الإبقاء على الأوضاع الخاطئة، ولذا فنحن لسنا بصدد الردّ على من يقول بأن «الإيمان بالقلب» ولا يقيم العمل الصالح، ولا على الذين وصفوا من يرفض المعاملات الربوية بأنه متطرف، ولا بالذي وصف المعارضين لإعطاء المرأة حق التصويت بأنهم من أهل الكهف؛ لأنَّ معظم هذه الأطروحات صادرة من غير أهل الاختصاص، وربما تفرضها المعارك السياسية أو الفجور في الخصومة، وربما تراجع البعض عنها عندما يدرك خطورة ما يطرح ويكتب وأبعاده الشرعية.

فطالب العلم المبتدئ يعلم أن مذهب الْـمُرْجِئة يقوم بإرجاء العمل عن الإيمان، ويعلم أن الإيمان في كثير من الآيات القرآنية مرتبط بالعمل، وأن المعاملات الربوية باختصار حرب على الله ورسوله لا علاقة لها بتطرف أو وسطية، وأن أهل الكهف فتية آمنوا بربهم وهم مثال للفكر المؤمن في الزمن الجاهلي، ومحاولة الحط من أهل الكهف له أبعاده العقائدية التي قد لا يدركها الجاهل الذي طرح المسألة بهذا الشكل.

*** التجزُّؤ غير الموزون على الأصول:**

نحن اليوم وبسبب الضغوط المتوالية على الصحوة، نخاف أن يتم اقتناص الكبار من دعاة الصحوة الذين يحاولون البحث عن المخرج فلا يجدونها إلاَّ بمخالفة الإجماع، أو تبَنِّي آراء شاذة للتقارب مع الفكر الآخر، بغض النظر عما يسببه هذا التقارب من أذى نفسي على باقي رموز الدعوة وأذى فكري على قواعد

الدعوة.

تلك المعضلة ليست بالجديدة، وهي التَّجرُّؤ غير الموزون على تراث الأمة الفقهي وتسفيهه وازدراؤه، ولدينا في تجرُّؤ أحد رجالات الدعوة على هذا التراث مثال واضح، عندما قال في إحدى محاضراته: «حتى متى تتعامل الأمة مع هذه الحفريات ـ وهو يقصد بالطبع التراث الفقهي العظيم لهذه الأمة ـ...».

هذه المدرسة مدرسة منفلتة من الضوابط، وتتجرَّأ على أقوال العلماء الكبار من الأمة الذين يُقَعِّدُون لكل مسألة فقهية أصولها السليمة، ووجدنا هذه المدرسة تطالب بفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ليس لأهل الاختصاص، بل لطالب العلم الشرعي ولطالب الهندسة ولطالب الطب، وربما حتى من يجمع الزبالة في الشارع!

وبناء على هذه النظرية، لا يعود هناك لا إجماع ولا فقهاء ولا أصول فقه، ويصبح الدين مطيَّة المتلاعبين، حتى بلغت الجرأة في إحدى المؤتمرات في السويد وأثناء الحوار عن حقوق المرأة أن قالت زوجة أحد الدعاة: «ويجوز للمرأة أن تؤم الرجال»، وكان هذا الطرح في عام ١٩٩٥م؛ أي قبل عشر سنوات من مهزلة إمامة المرأة في الصلاة في أمريكا، وعندما سألتها: إن هذا مخالفٌ لإجماع الأمة، فأين الدليل؟ قالت: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[1].

«وهي الفتوى التي أعطاها لها زوجها الداعية، فقلت: أسألك بالله أن تأتي بالآية التي بعدها، فسكتت، فقلتُ: هي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا

(١) الأحزاب: ٣٥.

﴿٣٦﴾(1)».

هذه الممارسات باسم التجديد والاجتهاد، يندى لها الجبين، ويتألَّم كثيرًا لها الفقهاء، خاصة إن جاءت من قبل الرموز الحركية والتي من المفترض بها أن تعمل لإعادة بهاء الدين وأصالته إلى واقع حياة الناس، لا أن تبحث عن واقع حياة الناس أو تخضع للظروف والضغوط لإيجاد أفكار جديدة فيها مخالفة صريحة للأدلة أو الفتاوى والأحكام التي هي محل إجماع.

لقد آلمنا أن يكتب رمز من رموز الدعوة مقالاً بعد إقرار الحق للمرأة بالترشيح والانتخاب قال فيه واصفًا تلك الحقوق: «وهي حقوق منحها الله تعالى لها من فوق عرشه وسلبتها التقاليد البدائية وموروثات عصر الانحطاط».

*** ما موروثات عصر الانحطاط؟**

ونحن لسنا أبدًا بصدد تكييف مسألة حقوق المرأة سواء كانت ولاية أو وكالة، وما ينبني عليها من أحكام، لكننا نأسف أن تكون نظرة رمز من رموز الدعوة للتراث الفقهي للأمة على أنه جزء من موروثات عصر الانحطاط، فإذا كانت هذه العصور التي أصدرت لنا هذا التراث العظيم عصور انحطاط، فماذا نسمي العصر الذي يعتدى فيه على هذا العلم ويتم وصفه بالحفريات؟ هل هذا هو عصر التقدم والتنوير؟!

وهل تريدوننا أن نسفّه رأي الإمام الجويني في مسألة حقوق المرأة، ونسفه رأي الماورديّ في السياسة الشرعية، لمجرد أن نصنع فقهًا خاصًا نؤصّل به لمرحلة الضعف التي تمرّ فيها الأمة، ونصانع بها الناس حتى نلقى القبول، وحتى نخرج من قائمة التطرف وندخل قائمة الاعتدال؟!

وهل تريدوننا أن ننسف تراثنا الفقهي ونشتم به صباحًا ومساءً ونعلن براءتنا التامة منه كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب، حتى لا تبتعد صورتنا كثيرًا عن صورة

---

(1) الأحزاب: ٣٦.

الإسلام الأمريكاني الليبرالي؟ وهل هذا الإسلام الأمريكاني الذي تؤم فيه المرأة الصلاة ويصبح سلمان رشدي مثالاً للاعتدال، هو الأقرب والموافق لما جاء به الشرع الحكيم من مدرسة ابن القيم وابن تيمية وقبلهم ابن حنبل وأبو حنيفة؟!

هل تريدون إفهامنا أن القياديين السياسيين في الغرب أصبحوا حريصين على نصاعة الدين الإسلامي وصورته أمام العالم أكثر من علماء الأمَّة الربَّانيين؟!

لسنا أبدًا هنا بصدد المعارضة أو الموافقة على موضوع المرأة، فلم يعد الآن هذا الموضوع يعنينا، بعد أن كتب الكثير من العلماء رأيهم في المسألة وبيَّنُوا الحكم فيها، ولكن ما يعنينا الآن لحظة الازدراء الخطيرة لجهود السابقين من علماء الأمة الكبار الذين يتم اليوم شطب جهودهم لنصرة الشريعة والدين بجرة قلم، من أجل الحفاظ على صورة الاعتدال المزعومة.

ألا يمكننا الاختلاف دون أن نطعن في علماء الأمة وتراثها؟ ألا يمكننا طرح ما نعتقد دون أن يصل الأمر إلى ضرب الثوابت؟ وهل ديننا اليوم مسلم من الطعن واللمز والغمز من أعدائه حتى يتعرَّض للطعن من معتنقي أفكاره وناشريها بين الناس؟

كان الأَوْلَى بهؤلاء الرموز أن يرتفعوا عن السقوط في التأصيل لمرحلة الضعف واستخراج أحكام مخالفة لإجماع الأمة، فلا نريد لمثل هذا الفكر أن ينتشر بين قواعد الدعوة والحركة الإسلامية، وكل ما هو مطلوب الاستقامة على دين الله في مرحلة الضعف ومرحلة القوَّة. أمَّا الإسلام فلا يحتاج إلى مخذّلين يسفّهون من ثوابته، ولو كان الإسلام ينتظر نصرة البشر المجرَّدة؛ لانقرض منذ قرون، ولكنه دين الله العزيز، الذي يمكن لأوليائه متى ما اتخذوا أسباب التمكين وبذلوا الغالي والنفيس في سبيل نصرته، ولم يتنازلوا عن مفاهيمه لإرضاء الواقع المريض.

لقد سبق أن طرح هذا الرمز أفكاره عن الجهاد، فلم يسلم الجهاد هو الآخر من مفاهيمه التي تحصر الجهاد على جهاد التنمية والتعمير، حيث اعتبر أن للجهاد آثارًا سلبية: «أثَّرت بشكل تراجيدي في مسيرة الإسلام نفسه وفي صبغته التبشيرية

المتسامحة»، واعتبر الجهاد: «أحد أهم مصادر الإيرادات للدولة الإسلامية»، وبسبب الجهاد تغيَّرت النظرة للمرأة: «لتصبح أكثر ريبة وتشددًا في ظل غياب الأزواج شبه الدائم في ميادين المعارك»، كما أنه وبدلاً من الحديث عن جهاد الدفع والطلب تحدث عن الجهاد الفردي والجهاد الجماعي.

واعتبر صور الجهاد السلمية هو: «الجهاد الأكبر»، وصور الجهاد القتالية هو: «الجهاد الأصغر» كما حمَّل الجهاد غياب: «النزعة الإنسانية التي صاحبت الدعوة الإسلامية والتي صاحبت الناس جميعًا»، وهكذا أصبحت الفترة المدنية بلاءً على الفكر الإسلامي المتسامح. هذا الكلام الذي كان محاولة لفهم الجهاد حمل خلطًا عجيبًا لا نقبله حتى من مستشرق!

فكيف أثَّر الجهاد على صبغة الإسلام التبشيرية المتسامحة؟ وهل قام الجهاد أساسًا إلاَّ لإزالة العقبات من أمام الناس وإسقاط الطواغيت، حتى يعتقد الناس ما يشاؤون، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [1].

وهل فتح المسلمون مصر - مثلاً - وقتلوا كل الأقباط الذين لم يدخلوا في الإسلام، حتى نقول: إن الإسلام فقد بسبب الجهاد صبغته التبشيرية التسامحية؟ وهل توقفت حركة الدعوة لدين الله عن طريق التجار وغيرهم في قارات الدنيا المعروفة، لأنَّ حركة الجهاد شوَّهت صورة الإسلام وأفقدته صبغته المتسامحة؟

وهل انحصرت أهداف الجهاد وانحرفت عن مسارها من الدعوة لدين الله وإزالة العوائق والحواجز أمام الشعوب المستضعفة وما أثقلت به من ضرائب وإتاوات ومن الحفاظ على الدولة المسلمة الناشئة، ومن أهداف التضحية بالنفس في سبيل الله ونشر هذه الرسالة العظيمة الخاتمة، ليصبح كل هم الجهاد والخلفاء الراشدين من الصحابة أن يجعلوا منه أحد أهم مصادر الإيرادات للدولة الإسلامية ولا يهم مصير الدعوة لدين الله والتي بسببها ترك الصحابة بلدانهم وأموالهم

(١) البقرة: ٢٥٦.

وهاجروا في سبيل نصرتها؟!

ومن قال: إنَّ جهاد السلم هو الجهاد الأكبر وجهاد القتال هو الجهاد الأصغر؟ على أي دليل أو أثر اعتمد الكاتب في هذا المفهوم؟ وهل المسلمون مجموعة من العُتاة الْـجُفاة الذين يحمل أحدهم سيفه على عاتقه ورمحه خلف ظهره ويدور على القرى والبلدان ليقتل ويغتنم؟

أين تلك الصور التي جعلت من المجاهدين فرسانًا بالنهار، ورهبانًا بالليل؟ ألم يحدّثنا التاريخ عن القائد الذي يمرّ على ثكنات الجنود وخيامهم فيسمع أزيز القرآن والدعاء والتبتل؟ فهل هذه الصور من أجل جعل الجهاد «أحد أهم مصادر الإيرادات للدولة الإسلامية» بحيث تصبح حركة الجهاد قريبة من الحركات الاستعمارية في العصر الحديث ـ والعياذ بالله؟

ولماذا دائمًا المسلمون هم موضع شبهة واتهام، بينما الآخرون ملائكة تمشي على الأرض؟

ولماذا تأخَّرت هجرة جعفر رضي الله عنه ومَن كان معه من الصحابة في الحبشة إلى المدينة حتى إلى ما بعد فتح خيبر؟ أليس بسبب الأمن المضطرب وحالات الكيد التي يقوم بها الأعداء من مشركي مكة والأعراب واليهود والمنافقين ليل نهار لاستئصال الإسلام؟

ألم تبلغ القلوب الحناجر في غزوة الخندق ولم يكن الواحد منهم يستطيع أن يقضي حاجته؟

ألم يحاول المرتدون العرب غزو المدينة والقضاء على أهلها بعد وفاة رسول الله ﷺ؟

ألم يدفع الفرس والروم حلفاءهم من العرب، للتصدي لجيوش الخلافة الراشدة؟

ألم يكن تاريخ الأعداء سلسلة من المؤامرات المستمرة ضد دولة الإسلام، وكان

ينبغي مواجهة هذا الكيد المستمر في القديم والحديث؟

وهل مطلوب من المسلمين أن يقدموا الورود الحمراء لمن أشعلوا فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه لكي يحافظوا على صبغة الإسلام التبشيرية المتسامحة؟!

وهل من المطلوب أن يعلن المسلمون عفوًا عامًا عن أبي لؤلؤة المجوسي ـ لعنه الله ـ حتى تكون صورتهم أمام العالم ناصعة وسطية متسامحة؟

لو كانت دولة الإسلام دولة بوليسية، لما استطاع المرجفون أن يقتلوا ثلاثة من الخلفاء الراشدين، ولو كانت دولة الإسلام تفتقد للتسامح لما استطاع ابن السوداء أن يفتح أبواب الفتن مستغلاً روح التسامح والاعتدال.

لا علاقة أبدًا بين إقامة فريضة الجهاد والحفاظ على سماحة الإسلام، والرسول ﷺ أقام جهاد الدفع في معظم غزواته باعتبارها الاستراتيجية الأصلح لمواجهة المؤامرات المتتالية، مثلما أقام جهاد الطلب عندما جهَّز جيش أُسامة وأراد أن يرسله إلى حدود الشام قبل وفاته عليه السلام.

إنَّ الخلطَ بين أهداف الجهاد في الإسلام وغاياتها السامية، وبين أهداف العدوان والاستعمار لدى الآخرين، هو الذي أدخل هذا الرمز في إشكالية الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر، ومن قال: إنَّ جهاد التنمية والبناء والتعمير يمكن أن يستقيم إذا لم يدعم من وجود المتربصين الذين تحكم الأوضاع الحالية مدى قوة شوكتهم وخطورتهم على الإسلام والدين.

*** اجتهادات شاذة:**

نموذج آخر للاجتهادات الشاذة التي تخالف ما أجمعت عليه الأمة، ونستغرب أن يصدر من رمز من رموز الدعوة والإصلاح عندما اعتبر أنه: «لا مانع شرعًا من إعطاء المرأة حقوقها السياسية ووصولها حتى رئاسة الجمهورية»، وهو رأي غريب وشاذ لم يقبل به أحد من الفقهاء المعتبرين، وهذه جرأة لا نملكها ولا نتجرأ عليها، فهي مسائل دقيقة في السياسة الشرعية، ورئاسة الدولة على عكس عضوية مجلس

الأمة لا اختلاف على كونها ولاية عامة بالاتفاق.

أمَّا العبث بالحديث الذي ورد في صحيح البخاري: «لَنْ يُفلحَ قَوْمٌ وَلّوا أمْرَهم امْرَأة»[1]، فهو عبث لا نتكلَّم فيه، فهو من الأمور المتفق عليها، ويكفي صحيح البخاري شرفًا أن علماء الأمة قرَّرُوا أنه أصح كتاب بعد كتاب الله، وليس هناك شرف لكتاب مثل هذا الشرف الذي حظي به صحيح البخاري.

والإجماع العملي انعقد على عدم تولية المرأة الولايات العامة، ولم يسبق أن عيّنت امرأة واحدة في عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين وحتى سقوط الدولة العثمانية في ولاية عامة، فالدليل منعقدٌ على عدم جواز تولِّي المرأة الولاية العامة، ومن أراد أن يذهب إلى غير هذا، فليأتِ بالدليل المنضبط بضوابط التحقيق والتخريج الأصولي للأحكام، لا بناء على معطيات العقل المجرَّدة، ولا على روايات التاريخ الإخبارية، ولا على ضغوط الواقع المعاش، ولا على حسن النية للدفاع عن الإسلام، ولا على حبّ الإتيان بالجديد ولفت الأنظار، ولا على إرضاء طرف أو جهة أو تكتل أو دولة، ولا على جو المحاضرة التي تم فيها طرح تلك الفكرة الشاذَّة، إنَّما الدليل قال الله وقال رسوله، والتخريج المنضبط والاستدلال العلمي السليم، أمَّا غير ذلك فغير مقبول من أهل الاختصاص ولا من غيرهم.

*** حرمة توقير أهل البدع:**

إذن هناك تخليط واضح عند بعض رموز الدعوة على الرغم من حبنا لهم وسابقتهم في الدعوة، إلاَّ أن حبنا للحقِّ أشد، ولا نريد أن نمارس رذيلة الصمت في مثل هذه المواقف؛ حتى لا يفهم الناس موافقة الجميع على ما يُطْرَح. ومن الأهمية بمكان الوضوح والشفافية أمام قواعد الدعوة، حتى لا تصل إليهم مفاهيم خاطئة يدركها البعض ولكنهم لم ينتقدوها أو يتحدَّثُوا معارضين لها، حتى كادت أن تصبح مسلَّمات وقواعد عليها تُبْنَى أحكامها.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٤٤)، والترمذي (٢٦٢٢)، والنسائي (٨/ ٧٢٢)، وأحمد (٥/ ٠٥)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

وقد رأينا مثال ذلك الكثير في حياتنا الحركية والدعوية، ووصلنا إلى قناعة بأهمية اتخاذ المواقف الواضحة التي تنتصر للحقِّ، وأعلنَّا ذلك في مواقف كثيرة سابقة، ومنها: الغلوّ في الدين وما جرَّه ذلك على الأمة من ويلات فكانت مواقفنا واضحة لا لبس فيها ولله الحمد؛ ليحيا من حَيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بيِّنَة.

واليوم تنتشر موضة: «الحوار مع الآخر»، ولا مانع من ذلك شرعًا، بل هو الأصل والمطلوب، ولكن يجب إلاَّ يمتد التخليط إلى هذا الأمر أيضًا، فالحوار مع المخالف شيء وتوقير أهل البدع والضلال شيء مختلف تمامًا، ومن الأسى أن نرى من رجال الصحوة وقادة الفكر والرأي من يوقّر أصحاب البدع مع انحرافاتهم وشركياتهم، كما هو حال بعض رموز الإعلام الإسلامي الليبرالي، فيسقط عليهم أوضاعًا ما أنزل الله بها من سلطان، فالعلماء أكَّدُوا على أن صاحب البدعة أشد خطرًا على نفسه ومجتمعه من صاحب المعصية وإن كان كلاهما على خطر، فصاحب البدعة يظن أنَّه على خير في بدعته ويدعو لها، ويختم له بها ـ والعياذ بالله ـ إن لم تدركه رحمة الله بما عليه من ضلال.

ولذلك كان العلماء يحذّرون من صاحب البدعة ومن البدعة نفسها بلا مجاملة ولا مداهنة؛ لأنَّ المسألة دين لا تحتمل المداهنات والمجاملات، وتوقير أصحاب البدع من قبل الداعية أو رمز الصحوة، إنَّما هي تزكية لصاحب البدعة أمام جموع قواعد الدعوة، وربما كان صاحب البدعة ذا لسان طلق وبلاغة لا تبارى، فيؤثّر على شباب الدعوة وعوام الناس داسّا السُّم بالعسل دون أن ينتبه هؤلاء للبدع التي ترد في ثنايا الكلام، ويتحمّل الرمز إثم هؤلاء الناس بسبب مدحه وثنائه على صاحب البدعة.

*** لا يمكن ركوب قطارين:**

لقد مرَّت الحركة الإسلامية بفتن كثيرة ومصاعب ومعوّقات لا تُحْصَى ولا تُعَدّ، بعضها كان مع الطواغيت وبعضها كان مع الأنظمة وبعضها كان مع الأوضاع، وكانت جبال البلايا تمرّ بالدعاة فيثبت من وفَّقَهُ الله، ويسقط من قطار الدعوة من

يسقط، وهذه القاعدة لا تختص بمكانة الداعية في قطار الدعوة ولا علاقة لها بمرتبته الحركية وتوصيفه التنظيمي داخل جسد الحركة.

وقطار الدعوة لن يتوقف حتى يصل إلى محطته الأخيرة ما دامت علاقة من يركب هذا القطار مع الله وثيقة الصلة، ولكن أن يحاول بعض الرموز أن يغيّروا مسار قطار الدعوة ليقترب من مسار القطار الأمريكي، ويحاولون ركوب موجة الفهم الأمريكي للإسلام ولو على حساب تمييع أصول هذا الدين، فهذا المبدأ مرفوض في الحركة الإسلامية في الماضي والحاضر والمستقبل.

وقد بعثنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ لتحقيق منهجه في الأرض سواء اتفق هذا المنهج الرباني في بعض تفاصيله مع المناهج الأرضية أم اختلف؛ لأنَّ الإنسان في النهاية يأتي يوم القيامة ربه فردًا، والله لا يحاسب الناس يوم القيامة بالجملة أو بالعائلة أو بالانتساب الحزبي أو الحركي. ولعل بعض رموز الدعوة ـ حرصًا منهم على الأمة ـ قدَّمُوا تنازلات فكرية ومبدئية، أو حاولوا استخراج نظرات جديدة من السيرة والتاريخ تذهب الأدلة النقلية والفقهية إلى عكسها.

فليس من المنهج السليم إقامة منظومة فكرية خاصة هدفها مسايرة أهل البدع وأعداء الدين؛ لأنَّ الأوضاع المريضة تؤسس لمنظومة فكرية مليئة بالخلل، والشجاع الحقّ هو الذي يملك الشجاعة في مراجعة أفكاره، فيكون وقَّافًا عند الحق وحدوده لا يعنيه التقنين للواقع المريض...

اللهم ثبِّتنا على دينك... واجعلنا من العاملين لنيل رضاك... رضي من رضيَ وسخط من سخط، والعاقبة للمتقين.

ü ü ü

المبحث الخامس
الحركة الإسلامية بين سيف المعز وذهبه

الحياة بين سيف المعز وذهبه ليست حالة تاريخية، بل هي فكرة سياسية لا تخلو منها الممارسات السياسية في القديم والحديث، وسيف المعز تحوّل إلى رمز لغضب السلطة على رموز أو تيارات أو جماعات سياسية أو أحزاب، كما إنَّ ذهب المعز تحوَّل إلى مصالح ومناصب ومناقصات وعمولات وسماسرة من كل الأشكال والألوان، كما تحول شاعر البلاط إلى صحف ونشرات ومجلات، وأخيرًا قنوات فضائية تعرف من أين تُؤْكَل الكتف.

والحركة الإسلامية وهي تعيش إشكالية السلطة وعلاقتها بالشريعة، لا يمكن حصر أطيافها أو تعميم مواقفها من سيف المعز وذهبه، بل إنَّ أسبابًا واقعية وظروفًا تاريخية ساهمت في توزيع وتنويع مواقف الحركة الإسلامية من سيف المعز وذهبه، بعضها يعود إلى طبيعة السلطة وبعضها يعود إلى الظرف التاريخي البحت، وبعضها يعود إلى المنهج الفكري الذي يحكم مسار الحركة الإسلامية.

وقبل أن نذهب بعيدًا في التوغل في إحداثيات الموضوع، لا بد من الإشارة إلى ضرورة الاعتراف بوجود مواقف متباينة داخل الحركة الإسلامية من هذا الموضوع، وهذا التباين يصل إلى حدِّ التناقض، وهنا لا نحصر حديثنا على الفكر الإسلامي الحركي أو السلفي، كما لا نحصره في الأفراد أو المؤسسات أو حتى الجماعات، بل كل من يطلق عليه مجازًا أنَّه من جسم الحركة الإسلامية بغض النظر عن توصيفنا لطبيعة تلك التيارات من حيث القبول والرفض.

*** قضية الشريعة والسياسة:**

الحركة الإسلامية بطبيعتها مولود «أزمة»، وطبيعة هذه الأزمة تحدد بشكل كبير طبيعة المولود، فالحركة الإسلامية ـ مثلاً ـ التي نمت في مصر كحركة الإخوان المسلمين، قد جاءت بناء على ثلاث إصابات وقعت في جسد الأمة، الإصابة الأولى هي غياب الخلافة الإسلامية التي كانت تجمع المسلمين، وهي إصابة مباشرة

وخطيرة أصابت جسد الأمة إصابة مؤلمة؛ وتسببت في الإصابتين الثانية والثالثة وهي: وقوع دول العالم الإسلامي تحت الاستعمار، وتنحية الشريعة الإسلامية عن التحكيم في حياة الناس، واستبدالها بقوانين المستعمر المدنية.

وهذه الإصابات الثلاث لا زالت تؤتي حصادها النكد في الأمة، وعندما جاء الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ سعى لبناء جيل يسعى للخلاص من الإصابات الثلاث وهو سعي ـ في كثير من نواحيه ـ يمسّ وجود السلطة ومصالحها بشكل مباشر.

أيضًا الحركة السلفية في أرض الجزيرة، كانت مولود «أزمة»، وتلك الأزمة كانت تتمثل في انتشار البدع والضلالات والشركيات وزيارة القبور والتبرك بها لا ينفع ولا يضر، فكانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب استجابة مناسبة لطبيعة التحدي القائم، وهي العودة إلى المنهج السلفي الناصع والصحيح المعتمد على الكتاب وصحيح السُّنة، وهي حالة شبيهة بالظروف الموضوعية التي أخرجت شيخ الإسلام ابن تيمية الذي حارب على عدة جبهات في وقت واحد، حيث واجه التصوف المنحرف وغلاة الصوفية والفرق الباطنية والمبتدعة، بالإضافة إلى الخطر الخارجي المتمثل في الزحف التتري على بلدان الشام.

لقد كانت قضية تحكيم الشريعة واضحة في الفكر الإسلامي المعاصر، وتعتمد على تراث غني بالدلالات والممارسات من الصعب معا فك موضوع الشريعة عن الممارسة السياسية، وقد عبَّر أبو حيان التوحيدي في السابق عن هذه الفكرة بقوله: «إنَّ الشريعة متى خلت من السياسة كانت ناقصة، والسياسة متى عريت من الشريعة كانت ناقصة».

لذلك كانت فكرة تطبيق الشريعة فكرة ملحَّة وضاغطة في برنامج الحركة الإسلامية؛ بسبب النصوص الشرعية الواضحة في ذلك، وخطورة الوضع العقائدي للمجتمعات التي تزهد في تطبيق الشريعة، وللثمار المريرة واختراق الهوية الذي تم بسبب تطبيق القوانين الوضعية المليئة بالثغرات والقصور الإنساني.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى: «من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول ﷺ فقد حكَّم الطاغوت وتحاكم إليه»[١].

وللشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ موقف واضح من القوانين الوضعية حيث اعتبرها دينًا جديدًا غير الإسلام: «... وصار هذا الدين الجديد هو القواعد الأساسية التي يتحاكم إليها المسلمون في أكثر بلاد الإسلام ويحكمون بها، سواء منها ما وافق في بعض أحكامه شيئًا من أحكام الشريعة وما خالفها، وكله باطل وخروج؛ لأنَّ ما وافق الشريعة إنَّما وافقها (مصادفة)، لا اتِّبَاعًا لها، ولا طاعةً لأمر الله وأمر رسوله، فالموافق والمخالف كلاهما مرتكس في حمأة الضلالة»[٢].

ويقول أيضًا الشيخ العلامة ابن باز ـ رحمه الله: «... إنَّ تحكيم شرع الله والتحاكم إليه مما أوجبه الله ورسوله، وأنه مقتضى العبودية لله، والشهادة بالرسالة لنبيه محمد ﷺ، وأن الإعراض عن ذلك أو شيء منه موجب لعذاب الله وعقابه، وهذا الأمر سواء بالنسبة لما تعامل به الدولة رعيتها، أو ما ينبغي أن تدين به جماعة المسلمين في كل مكان وزمان»[٣].

ولذا فقد كانت مسألة تطبيق الشريعة من المسائل الجوهرية الأساسية في برامج الحركة الإسلامية على اختلاف أطيافها وتياراتها وقراءاتها للمعطيات المحلية والإقليمية والعالمية وأسلوب تعاطيها مع هذه القضية.

فولي الأمر في النظرية الإسلامية السياسية، خليفة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، ومن هنا يأتي تصور التيار الإسلامي لدور السلطة السياسية في حياة الأمة المسلمة، فهناك منهج ثابت المعالم والقيم والتصورات، وولي الأمر مؤتمن على العمل به وتطبيقه في حياة المسلمين، وبقدر الاقتراب من تطبيق هذه النظرية تقترب السلطة الدينية من السلطة السياسية، والعكس صحيح.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٣٥).

(٢) عمدة التفسير (٢/ ٥١٢).

(٣) رسالة: «وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه»، الشيخ ابن باز، ط. ٤، ١٠٤١هـ.

ولو عُدْنَا للتاريخ الإسلامي، لوجدنا كيف رفض الإمام أبو حنيفة تولي القضاء للسلطة السياسية سواء في عهد الأمويين أو في عهد بني العباس، وتورد إحدى الروايات أن الإمام قد مات وهو في سجنه ممتنعًا عن ولاية القضاء بعد أن ضربه الخليفة المنصور مائة وثلاثين سوطًا؛ وهو قريب مما حصل مع الإمام مالك بن أنس صاحب «الموطأ» عندما أفتى بأنه ليس على المستكره يمين، فاتخذوها حجَّة ضده لبطلان بيعته إلى أبي جعفر المنصور، فقام عامل المنصور على المدينة بضرب الإمام سبعين سوطًا، انخلعت لها كتفه وصبّ عليه الماء في اليوم البارد، فلما بلغ الخليفة أعظمه إعظامًا شديدًا وأنكره. وقد عرف الإمام مالك ثلاثة عشر خليفة في حياته، ثمانية من بني أمية وخمسة من بني العباس، وقد اتخذ طابع النصح بالخير لهم والنهي عن الشرّ. أمَّا الإمام أحمد بن حنبل فقصته مشهورة مع السلطة عندما رفض القول بخلق القرآن، وحاولت السلطة السياسية حمل المسلمين على هذا المعتقد. فهؤلاء الأئمة الثلاثة، بالإضافة إلى الإمام الشافعي الذي كادت أن تطير رقبته في وشاية به عند الخليفة عندما كان في اليمن، قد تعرَّضُوا لأذى السلطة وسيف السلطة على الرغم من المكانة العلمية التي يتمتعون بها، بينما سعت رموز دينية أخرى إلى السلطة طمعًا في ذهب السلطة أو خوفًا من سيفها.

*** الدعوة بين السيف والذهب:**

وقفت الحركة الإسلامية في العصر الحديث، وتحديدًا في القرن الأخير، موقفًا متباينًا من سيف السلطة وذهبها، وهنا لا بد من التأكيد على عدة حقائق في الموضوع:

أولاً: أن سيف السلطة كان يتمثل في مصالح السلطة، وليس كل من أصابه سيف السلطة كان بالضرورة من التيار «الخارجي» فليست السلطة بهذه المثالية، وليست المعارضة الإسلامية بهذا السوء، وهناك ضربات «إجهاضية» و«استباقية» كانت توجهها السلطة للتيارات الإسلامية بهدف «ضبط الوضع»، والتعلل بأن التيارات الإسلامية «طلاب سلطة»، وأنهم يتسترون خلف الدين للوصول إلى

«كراسي الحكم»، وكأن كثيرًا من الأنظمة القائمة «طلاب للآخرة»، وهم مثال «للشرعية السياسية»، وواحة «للديمقراطية»، وجاؤوا عبر «صناديق الانتخابات»، ولم يأتوا عبر دبابات الجيش، وكأن الوصول للسلطة أصبح تهمة يعاقب عليها القانون بينما هي في الدول الغربية ممارسة ديمقراطية طبيعية بين الأحزاب السياسية المتنافسة، يسقط حزب ويأتي آخر إلى السلطة فإما أن ينفذ برنامجه الذي وعد به الجماهير أو يرحل ويترك السلطة إلى غيره.

ثانيًا: مبدأ التغذية المرتدة في إشكالية «السيف/ الذهب» في مقابل إشكالية «السلطة/ الحركة الإسلامية»، فجنوح بعض التيارات أو الرموز نحو ذهب السلطة يشكل تغذية مرتدة لجنوح تيارات أخرى للتعامل مع سيف السلطة عبر إسقاط شرعية السلطة ومحاولة الخروج عليها، والعكس صحيح.

فالتيارات التي تخرج عن السلطة تشكل تغذية مرتدة للتيارات والرموز التي تفضل الفرص المتاحة التي توفرها السلطة، وهذه التغذية المرتدة من انجراف أجزاء من جسم الحركة الإسلامية إما إلى سيف السلطة وإمَّا إلى ذهبها، ينشأ ـ في الغالب ـ من خلال الإحباط من تحقيق برامج التيارات الإسلامية بسبب العنف الذي تمارسه السلطة تجاه التيارات على أنها مصدر خطر دائم على استقرار السلطة في مواجهة رياح التغيير التي تحركها التيارات الإسلامية.

ثالثًا: من الصعوبة تصنيف وتوزيع التيارات الإسلامية بناء على مواقفها من سيف السلطة وذهبها، فمثل هذا التصنيف يعتمد على عدة عوامل:

منها: طبيعة السلطة وأسلوب تعاطيها مع المعارضة السياسية بشكل عام والمعارضة السياسية الإسلامية بشكل خاص، وطبيعة نشأة التيار الإسلامي، وطبيعة البرنامج الذي يتبناه والتوصيف البيئي والجغرافي، والمعطيات الدولية والإقليمية، وموقع «الممارسة الديمقراطية» في فكر التيار الإسلامي ومدى وجود قضايا ضاغطة لدى التيار كالتدخل الأجنبي أو الاحتلال، وغيرها من المتغيرات التي تحدد موقف طرفي المعادلة «السلطة/ التيار الإسلامي» من إشكالية «السيف/

الذهب».

وهنا لا بدّ من أن نشير إلى أطروحة المستشرق الفرنسي «أوليفييه روا» الذي علَّق على نتائج فشل التيارات الإسلامية في إقامة دولة إسلامية فقال: «بسبب الفشل في إقامة مثل هذه الدولة الأيديولوجية، وجدت حركات (الإسلام السياسي) نفسها أمام مأزق لا يمكن الخروج منه، سوى عبر بوابتين:

الأولى: بوابة سلفية تتمثل في التمسك بالقيم والمبادئ والمرجعيات الدينية، ولكن مع التخلي عن مشروع الهيمنة الأيديولوجية ذات الطابع الأحادي، وبالتالي الانخراط في لعبة الديمقراطية التعددية، عبر دخول البرلمانات أو تولِّي المناصب الحكومية، كما فعلته بعض التيارات ذات التوجه الإخواني في الأردن أو الجزائر أو مصر أو تركيا.

أما البوابة الثانية: تبين أن الحلّ الإسلامي لا يمكن إنجاحه على الصعيد المحلي لكل بلد، بل لا بد من تغيير النظام العالمي بأكمله (الذي يحول دون ظروف موضوعية لإقامة مثل هذه الدولة الإسلامية) لإصلاح أحوال الأمة الإسلامية بشكل شامل.

التيارات التي تسلك هذا المنحى قد تكون حركات عنيفة جهادية مثل: «القاعدة»، أو قد تكون بالعكس سِلْمِيَّة دعوية مثل: «حركة التبليغ»، وفي كلتا الحالتين السمة المشتركة، هي إسقاط مفهوم الدولة الإسلامية نهائيًا، والاستعاضة عنها بإقامة فضاءات أسلمة ليست ذات طابع مؤسساتي بل روحي ورمزي، الأمر الذي يؤدي إلى إقرار نوع جديد من الحركات الإسلامية التي لا تعترف بالدول أو الحدود، بل تسعى لتجسيد مشروع إسلامي معولم وعابر للقارات، وبالتالي فهي من حيث تدري أو لا تدري، تؤسس لـ «إسلام بلا أرض»[(١)].

*** الاتجاهات الثلاثة للتيار الإسلامي:**

---

(١) مجلة «المجلة»، العدد (٨٣٣١)، ٢/ ١٠/ ٢٠٠٥م.

قبل الحديث عن الاتجاهات الثلاثة لموقف التيار الإسلامي من إشكالية (السيف/ الذهب)، يجب لفت الانتباه هنا إلى أن الحديث يأخذ شكل توصيف وليس نقدًا أو محاكمة للنوايا وتوزيعًا للاتهامات.

ويمكن تلخيص هذه الاتجاهات بثلاثة:

الاتجاه الأول: الاتجاه القريب من ذهب السلطة، وهو اتجاه يمثله ـ في الغالب ـ المؤسسات الرسمية الدينية وبعض الرموز المستقلة، وهو اتجاه نما بشكل متزايد بعد تأميم الأوقاف الإسلامية؛ مما سلب تلك الرموز والمؤسسات استقلالها الفكري وأخضعها لخدمة السياسة العامة للسلطة؛ أو على الأقل عدم الوقوع في التناقض معها، وهذا الاتجاه مذاهب وأطياف ودرجات، فمنها المغالي والمتطرف الذي يذوب في السلطة ويبرر سياستها ويسوق أخطاءها ويعيب على خصومها ويرفض أي نقد موجَّه لها، كما يُضْفِي عليها حالات من القدسية والتبجيل، بل ويتمادى في الدفاع عن أخطائها حتى تلك التي تصادم الشريعة مصادمة فاضحة، ويصبح هذا الاتجاه مخلبًا في يد السلطة لسحب الشرعية من المعارضة التي تأخذ «الطابع الإسلامي» في مرجعيتها ومنهاجها السياسي في العمل، وهذا الاتجاه يستفيد من إمكانات السلطة في تدعيم موقفه، وخاصة وسائل التوجيه لتصوير المعارضة الإسلامية مهما كان اعتدالها ووسطيتها بمظهر المبتدعة وأهل الضلال، وربما استغل الموارد والإمكانات المالية لإصدار الكتب والدوريات والنشرات والأشرطة المسموعة للطعن في التيارات المخالفة.

كما يوجد في هذا الاتجاه تيار آخر له قدر كبير من الاحترام ورموز وشخصيات علمية ذات وزن من النوع الثقيل، وتحظى باحترام وإجماع في العالم الإسلامي وينطلق هذا التيار من قواعد شرعية لها اعتباراتها ووزنها العلمي في التعامل مع السلطة، معتمدًا على التحذير من الفتن والفرقة، معتمدًا على منهج أهل السُّنة والجماعة في عدم الخروج على السلطة، معتبرًا أن الخروج على السلطة لا يجوز إلاَّ بشرطين:

أحدهما: وجود كفر بواح فيه من الله عليه برهان.

والشرط الثاني: القدرة على إزالة السلطة إزالةً لا يترتب عليها شرّ أكبر.

وبدون هذين الشرطين، لا يجوز الخروج على السلطة، كما أن منهج هذا التيار مع النصح للإمام أو ولي الأمر دون أن يأخذ هذا النصح شكل المعارضة العلنية التي تُجَرِّئ الغوغاء على الفوضى والاضطراب.

الاتجاه الثاني: وهو اتجاه يعتمد على التغذية المرتدة للاتجاه الأول، فكلما حصل تطرف لدى الاتجاه الأول في تسويق مواقف السلطة مهما تناقضت مع مواقف الشريعة، يكون هناك تطرف مقابل في رفض شرعية السلطة وتسويغ شرعية الخروج عليها. وهذا الاتجاه يمثله بشكل واضح، فكر فرقة الخوارج أو جماعة التكفير والهجرة، وهذا الاتجاه يدين الاتجاه الأول باعتباره اتجاهًا لا وزن ولا قيمة له ما دام يمثل «علماء السلطان» كما يدين الاتجاه الثالث الذي يرى أن مهمته تنحصر فقط في تلقي ضربات السلطة دون أن يحقق شيئًا من برامجه، وعادة ما يجتمع لدى هذا الاتجاه ثلاث قواعد فكرية: شرعية الخروج على الحاكم كنتيجة طبيعية لتكفير السلطة ونزع الشرعية منه، واستباحة دم السلطة، وممارسة العنف ضد السلطة كوسيلة للتغيير.

ومعروف أنَّ هذا الاتجاه تميَّز باستفزاز الضمير الإسلامي، كما تميَّز بقصر النفس، وهو في الغالب ينشأ بسبب كبت أو اضطهاد أو استبداد، أو أوضاع سياسية غير طبيعية وخارج النسق السياسي والاجتماعي لطبيعة القواعد التي تحكم (السلطة/ المعارضة)، مثل: خلاف الصحابة في التاريخ القديم، ومثل: احتلال الكويت، ووجود مفارقة الاحتلال العربي مقابل التواجد الأجنبي.

الاتجاه الثالث: وهو الوسطي الذي يحاول أن يستفيد من الفرص التي توفرها السلطة دون أن يضطر إلى التغاضي عن أخطاء السلطة وابتعادها عن المواصفات الشرعية للسلطة، كما أنه يعارض السلطة دون أن يخرج عليها ويقع تحت طائلة سيفها، وهذا التيار ـ في الغالب ـ يدرك المعطيات الدولية وخطورة تسطيح الأدلة

الشرعية في وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية دون النظر إلى افتقاد البيئة التي تسمح بمثل هذا التحوّل النوعي والاستراتيجي في بنيان السلطة وعلاقتها مع المجتمع الدولي والمعطيات الإقليمية.

وهذا الاتجاه يحاول أن يبتعد عن الانجراف والذوبان نحو الاتجاه الأول حتى لا يضمحل ويذوب داخل السلطة، كما أنه حذر في تسويغ وتبرير أعمال الاتجاه الثاني، وخاصة فلسفة العنف التي يتبناها ضد السلطة.

فالاتجاه الأول: حريص على الإصلاح داخل السلطة، مع أهمية الحفاظ على هيبة السلطة والتحذير من الفتن الناشئة عن التغيير الذي يقود للفوضى. وهذا التيار له حق الاستشهاد بنتائج التغيير الذي جرى في العراق، فعلى الرغم من أن السلطة السابقة لم تكن تمتلك أي شرعية تُذْكَر، إلاَّ أن طبيعة التغيير التي حدثت، أدَّت إلى أن يدفع الشعب العراقي ضريبة هذا التغيير الذي ربما يقود المنطقة نحو أحداث أكثر دموية ومأساوية مما هو واقع الآن.

أمَّا الاتجاه الثاني: فهو اتجاه ثوري عنيف يتعامل مع سيف السلطة بعد أن أوصلته قراءاته الخاصة باستحالة التغيير الهادئ، مما أوقعهم في فتنة الخروج على الشرعية مع فقدان القدرة على التغيير.

أمَّا الاتجاه الثالث: فهو الاتجاه الذي يمسك العصا من المنتصف، وتنظر له الدوائر الغربية بشك وارتياب شديدين باعتباره يمكن أن يكون الوجه المعتدل الذي يمثل بديلاً للسلطة القائمة؛ خصوصًا مع هبوب رياح التغيير على المنطقة، وتعالي أصوات الإصلاح العاجل غير الآجل.

ü ü ü

المبحث السادس

الحركة الإسلامية بين التمكين والتقدير

نستطيع أن نقول بأن العالم العربي قد شهد في العقود الأخيرة نوعًا من الاستقرار النسبي أو الانتقال السلمي للسلطة، وخاصة في الدول التي كانت تشهد انقلابات عسكرية متتالية ما إن ينتهي انقلاب حتى يخلفه انقلاب، وكان هذا هو المناخ السياسي السائد في الخمسينات والستينات من القرن الماضي إلى أن انتهى في العقدين الأخيرين إلى حالة من الهدوء النسبي ليس بسبب الاستقرار الحقيقي للنظام العربي، وقبول الشعوب بالأوضاع السياسية والاقتصادية التي أنشأتها هذه الانقلابات التي وصلت إلى السلطة، بل لأنَّ قيادات هذه الانقلابات قد نضجت وازدادت خبرة واستطاعت أن تستفيد من أخطاء الانقلابيين السابقين وسدت الطريق تمامًا على أي محاولة انقلابية جديدة.

وقد شهدت مناطق عديدة في الوطن العربي محاولات انقلابية خطرة وجادة حتى السنوات الأخيرة، لكنها لم تنجح بسبب حنكة الأنظمة التي تمسك بزمام السلطة، وانتهت المسألة الآن كما قلنا إلى نوع من الاستقرار النسبي.

وهناك أسباب كثيرة حالت دون إحداث تغيير في السلطة في عالمنا العربي حتى تمكنت هذه الأنظمة، وبسبب ثقتها بنفسها وشدة إمساكها بزمام السلطة بشكل صريح، بعد أن كانت تستعين بالأحزاب المهمشة والأقليات لإقامة نظام ديمقراطي شكلي يكمل ديكور السلطة أمام الرأي العام وترفع ضغوط المطالبات الإصلاحية عنها.

مع كل هذه المعطيات ومع تهميش حركة الأحزاب، ومصادرة الحياة السياسية والفكرية والثقافية، والتخلص من إرث القضية الفلسطينية عبر وضعها في رقبة الممثل الشرعي والوحيد، مع زيادة حجم التعاون مع القوى الكبرى، والاستجابة لطلباتها وتحقيق مصالحها، وتغير مجرى الرياح العالمية، لم يعد مقبولاً الآن نتائج أي انقلاب عسكري خاصة في ظل نغمات الديمقراطية التي تطلقها القوى الكبرى، مع

إهدار واضح لمبدأ السيادة الوطنية، وتجاهل أوضح لمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية، وقبل ذلك النتائج المريرة والمخزية التي أدت لها حركات الانقلاب العسكرية، لم يعد من المقبول ولا من المجدي القيام بمثل هذه المحاولات، وعلى دعاة التغيير البحث عن مخارج أخرى لتغيير الأوضاع السيئة القائمة.

* **انقراض مبدأ التغيير العسكري:**

إذن نحن أمام مرحلة جديدة في آليات ووسائل التغيير، فرضتها ثلاثة معطيات:

الأول: الحصاد المرير لنتائج الانقلابات العسكرية والتي تحولت إلى ملكيات غير متوجة، حيث يأتي إلى السلطة بهذا المبدأ الأقوى وليس الأكفأ، ويبقى جاثمًا على قمة السلطة، حتى تتردى الأوضاع السياسية والاقتصادية وينخر السوس في النخب الفكرية والثقافية وينهار المجتمع المدني، وتزداد الهزائم القومية، وتزداد نفوذ القوى الأجنبية داخل الدولة، وتتكون طبقة أثرياء جدد يقتاتون من أموال الشعب الذي يعيش تحت خط الفقر بكثير، وتكون النتيجة أن تحن الشعوب إلى أيام الملكية قبل أن تأتي هذه الأنظمة الثورية وتمحق البلاد والعباد.

الثاني: دعوات الإصلاح العالمية التي لم تعد تقبل وجود أنظمة ديكتاتورية تقود شعوبها نحو اليأس والشقاء؛ لأن هذا مصدر ثري ومحضن قوي لزراعة بذور الرفض والتطرف وتغذية الإرهاب، خاصة إن صاحبها نسب بطالة مرتفعة، واقتصاد مشلول، وانحراف عن هوية المجتمع وقيمه.

فإذا ما صادفت تلك الظروف المحرض على الأوضاع والحاضن لتلك الأفكار، عرفنا أي خطر تمثله هذه الأنظمة العسكرية على مصالح واستقرار الدول الكبرى، وبالتالي لم يعد السكوت وغض النظر ممكنًا عن دعم القوى الدولية لأنظمة شمولية ديكتاتورية ثورية، وأصبحت هذه العلاقة بين النظام الشمولي والدول الكبرى علاقة محرجة لتلك الدول التي تطلق شعارات الإصلاح وتضغط من أجل تحقيق شروطه.

الثالث: لا يمكن تجاهل أثر الانفتاح الإعلامي على الشعوب، التي بدأت عبر

وسائل الإعلام العالمية والعابرة للدول والقارات تتعرف على أنواع أخرى من الحياة السهلة الميسرة التي تحفظ كرامة الإنسان وتهتم بحقوقه، كما ترى كيف يمكن أن يرمي المواطن البيض والطماطم في وجه رئيس الوزراء ويخرج بعد ساعة من مركز الشرطة، بينما في الدول الشمولية يمنع المرور في الشارع الثالث المجاور للقصر الرئاسي ويتم اعتقال من يمر بالخطأ بالشارع الرابع، ولا يعلم أحد مصيره.
هذا الانفتاح الإعلامي - إذا تركنا سلبياته - قد حرّر الناس من أكذوبة (ذهب المعز) الذي يروج له إعلام السلطة، وتبدأ المقارنات المبكية بين حال المواطن الذي يعيش في الدول الحقيقية حيث حرية التعبير وحرية المجتمع وحرية التفكير وبين حال المواطن الذي يشقى منذ الفجر وحتى ظلام الليل الدامس حتى يأتي آخر الليل بقطعة رغيف يملأ بها بطون أطفاله الجائعين.

ولعل البعض يذكر - على سبيل المثال - ماذا وجدت وسائل الإعلام عندما دخلت إلى ألبانيا بعد سقوط النظام الشيوعي السابق حيث ملأ النظام الأراضي الألبانية كلها بالملاجئ النووية، لأنه كان يروج لدى الشعب أن العالم كله يحسد الشعب الألباني على معيشته الكريمة وعلى مستوى الرفاهية لديه.

وقد صدق الشعب الألباني المسكين والمحروم تمامًا من وسائل الإعلام المستقلة هذه الأكذوبة، وعندما سقط النظام جاءت الصدمة لهذا الشعب المسكين، حيث اندهش طلاب إحدى المدارس وأخذتهم الرهبة عندما شاهدوا فيلمًا لأول مرة يظهر فيه المصعد الكهربائي!!

*** عصر التغيير السلمي:**

إذن أصبح التساؤل مشروعًا: هل أصبحنا وشيكين على دخول عصر التغيير السلمي؟ وأصبحت الحركات السلمية هي آلية التغيير الجديدة التي ستعم المنطقة، خاصة في ظل ظروف الضغط الدولي التي تتجه من جهة نحو الإصلاح ومن جهة ثانية نحو تصفية الأنظمة والعقول الشمولية، وهل أصبح الشباب هم المادة الأساسية لهذا التغيير المرتقب؟ أم أن المسألة لا تعدو كونها أضغاث أحلام، وإن

بعض التجارب التي نجحت إنما نجحت خوفًا من عصا التأديب الأمريكي لا استجابة لأصوات وضغط الشارع والتجمعات والمظاهرات.

نحن هنا لا نتحدث عن الحركات السلبية للشباب، التي ترفض حركة المجتمع وتنعزل عنه وتحاول أن تجد مجتمعًا بديلاً، مثل حركة الهيبز الشهيرة التي كانت حركة التغيير فيها سلبية، وإنما نتحدث عن حركة شبابية تستطيع إسقاط أنظمة كما تستطيع تغيير الموازين السياسية في أوطانها، ولعل البعض منا يذكر كيف استطاعت المخابرات الأمريكية اختراق الجامعات الفرنسية وحركات الشباب لإسقاط (ديغول) ذلك الرمز الفرنسي الكبير.

لقد سئم الشباب العربي من العجز والإفلاس العربي الرسمي، ولذا فهو يرحب بأي حجر يرمى في البحيرة العربية الآسنة، لعل هذا الحجر يوقف الانحدار نحو الهاوية، خاصة مع وجود الشعور بالمرارة والإهانة والإذلال بسبب التسلط الصهيوني على المقدسات الإسلامية، وعملية التغيير المطلوبة ليست صناعة فردية بل هي عمل جماهيري يكون الشباب بنيته الأساسية، وقد تكون هذه العملية في غاية الضرورة إذا لاحت مؤشرات على قرب انهيار النظام وفقدان تماسكه.

إن المظاهرات السلمية إحدى الوسائل المشروعة التي أباحتها المواثيق الدولية كوسيلة للتعبير عن الرأي أو الاجتماع السلمي، ولن نجد عناء كبيرًا في التدليل على التحرك الشعبي للتغيير على مستوى المحيط العربي، وكلنا سمع وشاهد وقرأ عن حركة الشباب اللبناني واحتجاجاته السلمية ضد الوجود السوري والذي تفجر بعد اغتيال الراحل رفيق الحريري، حيث آتت هذه الاحتجاجات السلمية أكلها في ظل ظروف دولية داعمة لمطالبات الشعب اللبناني وفي مقدمته الشباب، وخرجت القوات السورية من لبنان بعد أن كان الشعب اللبناني ينادي بخروج القوات السورية منذ اتفاق الطائف ولا مجيب.

ولدينا في الكويت على المستوى الرياضي مثلاً كيف تحرك الشباب الكويتي في ظل ظروف محلية مواتية، وكانت النتيجة استقالة شبه جماعية لاتحاد كرة القدم، بعد

أن تجمهر الشباب الكويتي أمام مقر الاتحاد وطالب بالتغيير.

أما في المجال السياسي فقد جاءت مقالات الأستاذ محمد عبد القادر الجاسم بعفوية رجل اشتغل بالعمل السياسي سواء من خلال رئاسته لتحرير جريدة الوطن سابقًا، أو من خلال البرامج السياسية المتلفزة عبر فضائية الحرة أو حتى عبر المحاضرات والندوات العامة التي كان يشارك فيها خاصة في الانتخابات، وهو رجل مستقل لا ينتمي لحزب ولا حركة معينة، فجاءت مقالاته التي ضمنها موقعه الخاص لتعبر عن نفس منهج حركة (كفاية) بعفوية كويتية ليس فيها ترتيبات المصلحة الحزبية، أو تكتيكات اللعبة السياسية فهي صورة من صور الاعتراض السلمي، خاصة في ظل الانفتاح الإعلامي الذي سمح بأحاديث السر والكواليس أن تتحول إلى الصوت العالي في المواقع الإلكترونية، وهو نفسه يؤكد ما ذهبنا إليه بأن حركة (كفاية) أصبحت منهجًا وأسلوبًا للتغيير وليست حركة مختصة بدولة معينة أو واقع سياسي محدد، وقد يحدث في كثير من المجتمعات الخليجية لطبيعة البنية الاجتماعية فيها، ما يؤدي إلى تصرفات كثيرة قد يسيء بعضها إلى الإدارة السياسية في هذا البلد أو ذاك.

وقد توجد معارضة خليجية قد يعبر عنها في بعض الأحيان بصورة سلمية وببعض الأحاديث بصورة عنف في المواجهة، وخصوصًا أنَّ بعض هذه المعارضات الشعبية لا ترتبط بتنظيمات وتكتلات سياسية، ويمكن ترتيب التفاهمات معها.

ويكفي أن نستنكر ردة فعل شعوب الخليج مثلاً عندما تم اغتيال الشهيد الشيخ أحمد ياسين أو عندما اجتاحت القوات الأمريكية الفلوجة، فرغم أن المظاهرات حوت مجاميع سياسية وحركات منظمة إلا أن المظاهرات كانت أوسع من تلك الحركات ومثلت المجتمعات الخليجية الشعبية المستقلة، والتي ليست لها حسابات سياسية خاصة.

وعندنا هنا في الكويت بعض الممارسات المستفزة والتي قد يعتبرها البعض هينة، لكنها كافية لإطلاق شرارة الغضب، ولنأخذ فقط الحادث الذي قامت فيه البلدية

بهدم مسجد غير مرخص في الشويخ بشكل عشوائي متهور، مما أدى إلى إهانة لا يمكن السكوت عنها للقرآن الكريم، وهذه الإهانة بلا شك رد فعل قوي بنفس قوة الفعل المتهور، ونحن نعلم أن للحادث أبعادًا أخرى وخفايا أظهرتها البيانات الرسمية، وإن ما حدث قد حاز إثارة إعلامية أظهرت وكأن الأمر متعمد، وكأن البلدية لا تهتم ببيوت الله والمصاحف، ولكن الشباب المتحمس ربما يقرأ الخبر ولا يقرأ النفر في اليوم التالي، وهنا تكمن معضلة الإثارة الإعلامية، وأثرها في تهييج الشباب، وربما نحتاج في مثل هذه الأمور في المستقبل إلى التروي والرجوع إلى طرفي النزاع لاستجلاء الحقيقة ومحاولة علاج الخطأ بعيدًا عن إثارة الرأي العام حتى يأتي نشر الموضوع بنتائج عكسية تهون عنها نتائج الحادث نفسه، ولأن طبيعة الشباب فيها اندفاع وحماس وردة فعل سريعة قد لا تستجلي الأمور فقد تخرج علينا ردَّات فعل غير موزونة بسبب هذا التصرف؛ قد يصل إلى ما يسمى بالتصرفات الإرهابية العفوية، ومع وجود مثل هذه التصرفات لن تنفع ملايين الدنانير التي رصدت لإقامة وتنظيم المحاضرات والندوات والمؤتمرات عن محاربة التطرف والدعوة إلى الوسطية، لأنها ببساطة نخبة صغيرة في المجتمع وهم أهل الفكر المشاركون في تلك الندوات، وهؤلاء في الغالب ليس لديهم تطرف ولا هم جزء من المشكلة، كما إن الرسالة المقصودة من هذه المؤتمرات لم تصل إلى الشريحة المستهدفة؛ وهم الشباب الذين قد يجدون في مثل تصرف البلدية الأهوج، الفرصة للرد على المعتدين على كتاب الله.

ولذلك نحذر اليوم وفي المستقبل من هذه المبادرات الفردية الطائشة التي تقوم بها جهات رسمية تجاه قضايا حساسة وشائكة ترفع مستوى الإثارة بسرعة لدى الشباب، وسيجد رجالات الدعوة الإسلامية أنفسهم في حرج هم ومؤسسات المجتمع المدني، فحديثهم للشباب عن الوسطية والاعتدال شيء وممارسات جهة رسمية كالبلدية تجاه بيوت وكتاب الله شيء مناقض تمامًا.

وقد يتصور الشباب نتيجة لهذا التناقض أن رجال الدعوة في الكويت

يُستخدمون كوسائل تخدير للشباب، وأمام كل هذه الأفكار التي تراود الشباب فلن تفيد معها خطبة في مسجد أو كتيب في مكتبة، وعلى عقلاء الدولة أن يعالجوا هذه الأمور بحنكة وبسرعة، ويضعوا الأمور في نصابها حتى لا تفسد خطط الدولة الكبيرة والعريضة في نشر الاعتدال والوسطية ومحاربة التطرف.

*** موقع الحركة الإسلامية:**

لا شك أن الحركات الشبابية التي نمت في أنحاء مختلفة في الوطن العربي كانت لها مبرراتها ودوافعها كما كانت لها ظروف مواتية قوية وداعمة وكانت عاملاً حاسمًا في نجاح التغيير، ويجب الاعتراف أن هذه الحركات لا تتبع حزبًا سياسيًا أو حركة سياسية معينة، فهي شعبية شبابية جماهيرية لا يمكن لحزب تقليدي أن يدعي القول بأنه صاحبها والمروِّج لها.

والحركة الإسلامية كجزء من الواقع العربي كانت لها إسهاماتها البارزة في المطالبة بالتغيير، وقد جربت الحركة الإسلامية مختلف المسارات الممكنة، مثل العمل البرلماني، والمعارضة الهادئة الإيجابية مع العمل الشعبي والنقابي، مثل الحركة الإسلامية في الأردن واليمن والبحرين ومصر والكويت، ساعدها في ذلك نضج النظرة لدى الحركة الإسلامية إلى المجتمع، وتحولها من فكرة المجتمع الجاهلي التي فاضت فيه المعاصي وعمت الرذائل وانحسرت المكارم والأمر الذي يستدعي النظر إليه نظرة دونية مع الاستعلاء عليه والانعزال عنه، مما أساء إلى الحركة الإسلامية وأعاقها عن الانطلاق، وتحولت بدلاً من ذلك إلى النظرة الإيجابية بالانخراط في المجتمع، ومعايشة الناس معايشة يومية، مع تبني همومهم ومعالجة مشاكلهم، والتواصل الاجتماعي والنفسي والفكري والثقافي مع المجتمع في إطار من الضوابط الشرعية، مما أعطى ثقلاً للحركة الإسلامية في الشارع ولدى الجماهير، وقبولاً لدى الناس بعد أن تحولت برامج الحركة إلى برامج إصلاح شعبي تبلورت وبلغت ذروتها في شعار «الإسلام هو الحل».

هذه النظرة الناضجة التي دعمتها الحركة الإسلامية باعتماد فلسفة جديدة لمسألة

الابتلاء على أنها ليست قدرًا نافذًا، قد تأكدت بعد التحولات العالمية التي أصابت المنطقة العربية ببعض عدوى المطالبات الديمقراطية والإصلاحات السياسية.

كل هذه المعطيات تجعل الحركة الإسلامية تقريبًا أمام واقع جديد، ونحن هنا لا يمكن أن نمضي في هذا الاتجاه دون أن نشير إلى حركة (كفاية) والانتفاضة التي رأيناها في مصر والتي صاحبت التغيير الدستوري لقانون انتخاب رئيس الجمهورية، هذه الانتفاضة والتي اتسمت بالحركة السلمية من خلال المظاهرات والمقالات والحوارات والتي يمكن أن نقول إنها صورة من صور الاعتراض المتعارف عليها في مجتمعات السلم والتي مثلتها مؤسسات المجتمع المدني المختلفة.

والناظر إلى (كفاية) هذه الحركة الجماهيرية التي تقودها مؤسسات وقيادات وتجمعات مثقفة تمثل اتجاهات المجتمع المدني ونقاباته كالمحامين والأطباء والاقتصاديين والصحافيين كما تمثل أيضًا قيادات فكرية وثقافية متنوعة المشارب، وهذا بالتقييم الواقعي العلمي لا يعدو أن يكون مظهرًا من مظاهر قوة المجتمعات، بالإضافة إلى أنه لا يمكن لهذه التجمعات الثقافية أن تتحرك تحركًا عشوائيًا فوضويًا، إذن لا بد قبل قيامه من وضوح الرؤية. وهذا ما دفع هذه الحركة للظهور، فهذه الحركة القوية حركة مهدفة وعند التحقيق في أهدافها نجد أنها لا تتعدى ثلاثة أمور:

الأول: إشعال ثورة شعبية لإسقاط النظام.

الثاني: عملية ضغط لإيجاد تعددية حزبية قوية ومتنوعة في المجتمع مثل غيرها من المجتمعات.

الثالث: نوع من الاحتجاج على الإهمال الحكومي وعدم التقدير لمؤسسات المجتمع المدني بأطيافه وأشكاله وتنوعاته.

ولو تناولنا هذه الأهداف الثلاثة سنجد أن الهدف الأول مستبعد بل ملغي نهائيًا؛ لأن الثورات في الغالب تنتهي إلى نهاية سيئة، خاصة في الدول العربية

والإسلامية والتي يصاحب هذه الثورات فيها تدخل خارجي معروف فيحول الثورة بما يخدم مصالحه الشخصية وهذا الرأي نتاج تجارب سابقة.

الهدف الثاني: وهو الحصول على تراخيص التعددية الحزبية تدخل فيها الأحزاب الإسلامية ذات القاعدة الشعبية العريضة ـ المتجاهلة للأسف ـ وهذا أيضًا مستبعد لأن كل الدلالات الحالية وما قبلها تؤكد مواجهة الحكومات للتيارات المعارضة مواجهة شرسة لا هوادة فيها، وإن كانت هذه التيارات تحظى بالقبول في الشارع الوطني فدولة الحزب الأوحد لا تحب المنافسة الشريفة، فهي تسعى دائمًا لإجهاض أي محاولة شعبية تحاول الظهور أيًا كان الاتجاه إسلاميًا أو غير إسلامي وإن اتسمت المواجهة بالعنف إن كان الاتجاه إسلاميًا كالإخوان مثلاً.

إذن يبقى الهدف الثالث وهو الضغط على الأنظمة لكي تعطي هامشًا من الحرية يتسم بشيء من التقدير والاعتبار لتلك الحركات وعدم إنكار دورها في بناء المجتمع المدني، وهذا الذي ظهر في حركة الاحتجاج التي قامت بها حركة (الإخوان المسلمين).

وحقيقة فإن الناظر إلى الإخوان المسلمين من خلال رسائل الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ يجد أنهم مؤمنون بأن الحكومة قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي، فالإسلام لا يقر الفوضى ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام، وقد وجه النبي ﷺ أحد أصحابه: «أنه إذا نزل ببلد وليس فيه سلطان فليرحل عنه»، والأنظمة العربية اليوم سواء في مصر أو سوريا أو ليبيا أو حتى تونس مطالبة بالتعامل العقلاني مع الحركات الإسلامية المعتدلة التي تؤمن بالمجتمع المدني وبخدمة الوطن والمجتمع من خلال المؤسسات الاجتماعية والمدنية، كنوع من التقدير لهذه الحركات التي ساهمت وتساهم بنصيب كبير في الإصلاح الاجتماعي.

إذن كل ما تطالب به الحركة الإسلامية هو نوع من التقدير والمشاركة في صناعة القرار السياسي من أجل بناء الوطن، وأن يفتح لها الباب لتثري حركة المجتمع وتعين على الإصلاح، بدلاً من نظرة العداء والتجاهل والريبة.

تقول الصحفية (جويس ديفس) التي تعمل بمعهد الولايات المتحدة للسلام في مقال لها تحت عنوان (الإسلاميون والأنظمة العلمانية: هل العنف ضروري؟!): «المؤكد أن هناك تعاطفًا متزايدًا في جميع أنحاء العالم الإسلامي مع النوع الأخير من الحركات الإسلامية، فالجماهير المسلمة تريد أن تعيش في دول إسلامية حقيقية، ويتزايد التعاطف مع الحركات الإسلامية المعتدلة في الدول التي تفتقر إلى نظام سياسي تعددي وديمقراطي، وحيث يتم قمع المعارضة وتتزايد حالات الفساد السياسي والاقتصادي، وهذا التعاطف لا يترجم بالضرورة في تأييد شعبي للهجمات المسلحة على الأبرياء كما يحدث في الجزائر، ولكن قد يترجم في تأييد الهجمات على الحكومات التي تبقى في الحكم استنادًا إلى القوة والخديعة.

لقد خلصت من دراستي وبحثي للظاهرة الإسلامية إلى حقيقة تقول: إن الحكومات التي تسعى إلى قمع الإسلاميين ولا تسمح لهم بالحركة سوف تواجه اضطرابات مستمرة، وإن المعارضة الحقيقية في العالم الإسلامي إنما تأتي من جانب الحركات الإسلامية التي تعتقد أن من واجبها محاربة الفساد، وأن الشعوب سوف تقف وراءها لتحقيق هذا الهدف.

وفي هذه الحالة يكون على السياسة الأمريكية إما أن تدعم التحول الديمقراطي الذي من المؤكد أن يأتي بالإسلاميين إلى السلطة، أو أن تتخلى عن المبادئ الديمقراطية بدافع الخوف من الإسلام السياسي».

*** الحركة الإسلامية والسؤال الخجول:**

تكاد الحركة الإسلامية عند كل منعطف تاريخي تمر فيه تفتح هذا الجرح، ولا تكف عن هذا الطرح: لماذا تأخر النصر؟ وتنطلق حوارات داخلية وفق مستويات مختلفة داخل تيار الصحوة حول الغاية الكبرى التي تسعى لها جميع الفصائل الإسلامية وهي التمكين لدين الله في الأرض.

هذا السؤال الخجول يصبح أكثر إلحاحًا مع مرور السنوات، فبعد عقدين من الآن تحل ذكرى مرور قرن على تأسيس الفكر الإسلامي الحركي ممثلاً بتيار

«الإخوان المسلمين» الذي جاء ضمن حيثيات وظروف نكبوية وبشكل أساسي حادثة سقوط الخلافة الإسلامية، وقبل ذلك تيار التجديد الذي قاده الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» والرموز الإسلامية الأخرى في القرن الماضي مثل الشيخ «محمد رشيد رضا» أو حتى المؤسسات التقليدية كالأزهر الشريف وغيره.

ابتداءً لا يمكن اختزال فكرة النصر في مجرد معركة فاصلة بين الحق والباطل تكون فيه الغلبة للحق بعد مراحل الابتلاء ثم المغالبة ثم التمكين، فقد يصلح هذا الحصر للأحزاب الأرضية التي تتصارع على الدنيا وزينتها، وقد ذاقت الأمة بسبب مثل هذه الصراعات الويلات، دون أن تصل إلى بصيص من أمل إلى الحرية والكرامة الإنسانية.

وظلت الحركة الإسلامية وسط تلك الثورات العسكرية تدفع ثمن هذا الصراع، بل كثيرًا ما تحمل أدبيات الحركة الإسلامية تعبيرات الألم من الثمن الذي تدفعه الحركة من دماء أبنائها دون أن تتمكن من تحقيق غاياتها، منذ رحيل الاستعمار الذي تم بدوافع وجهود ورموز إسلامية، انطلقت في ثورات تحرر ذات صبغة دينية، ثم جاءت الوجوه العلمانية واليسارية واللادينية بعد رحيل الاستعمار لتدير شؤون البلاد والعباد وفقًا لتصوراتها القاصرة الهزلية.

الحركة الإسلامية تدرك أن صراعها ليس من هذا النوع، وأن غايتها لا تتوقف على تحقيق نصر سياسي أو عسكري يوصلها إلى السلطة، فقد كانت الحركة الإسلامية ولا زالت تردد أنها لا تهتم بشخصانية الحكم بل بمنهاجية الحكم، وأن غاياتها الأساسية هي تعبيد الناس لله ـ سبحانه وتعالى، وتحكيم شرعه في أرضه، ونشر الدعوة الإسلامية على مستوًى عالمي؛ لتحقيق السعادة للناس وإنقاذهم من قلق الدنيا ونار الآخرة.

نعم، قد يتأخر النصر لأسباب كثيرة بعضها خارجي وبعضها داخلي، بعضها موضوعي وبعضها ذاتي، ولكن استمرار سرد الأعذار لإيهام النفس بأن هناك أسبابًا منطقية لتأخر النصر، سوف يوجد ذريعة لإهمال التأمل في تلك الأسباب،

ووضع الحلول المناسبة والانتقال إلى مواقع ومساحات جديدة في العمل الدعوي، ليس بهدف الوصول إلى إجبار الظروف على تحقيق النصر، ولكن بهدف الإعذار إلى الله وأداء المسؤولية الشرعية والتاريخية التي ارتضى الدعاة حملها من اليوم الذي أعلنوا فيه انضمامهم لقافلة الرواحل ووضعوا القدم الأولى في قطار الدعوة.

* **أسباب تأخر النصر:**

هنا من الضروري أن نثبت قطعة فكرية في غاية الأهميَّة للأستاذ (سيد قطب) ـ رحمه الله ـ عن أسباب تأخر النصر؛ حيث كتب في الظلال: «والنصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله.

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكًا لعدم قدرتها على حمايته طويلاً!

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا، لا تبذله هينًا رخيصًا في سبيل الله.

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر، إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سندًا إلا الله، ولا متوجهًا إلاَّ إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على المنهج بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله

ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئًا من المشاعر الأخرى التي تلابسه.

وقد سُئل رسول الله ﷺ: الرجل يُقاتل حمية، والرجل يُقاتل شجاعة، والرجل يُقاتل ليرى، فأيها في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سيبل الله»[(١)].

كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصًا، ويذهب وحده هالكًا، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تمامًا، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارًا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يُبقي الباطل حتى يتكشف عاريًا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار، فيظل الصراع قائمًا حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

---

(١)أخرجه البخاري (٣٢١)، ومسلم (٤٠٩١)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [(١)]» [(٢)].

وهنا نؤكد على قضيتي الصلة بالله والتجرد في الدعوة لدين الله، فهي قضايا قلبية واعتقادية لا علاقة لها بالظروف الخارجية الضاغطة، فهي نقطة البداية وهي الأساس الذي إذا كان منحرفًا فلا يُرتَجى بعد ذلك استقامة البناء مهما كان عاليًا أو مزخرفًا خداعًا.

*** نجاحات وإخفاقات الصحوة:**

وقبل أن نستطرد في النقد الذاتي في جوانب قصور الصحوة التي حالت دون بلوغ الغاية لا بد ـ من باب الإنصاف ـ الحديث عن نجاحات حققتها الصحوة الإسلامية أو أسهمت في تحقيقها مثلما أخفقت في جوانب أخرى أو جانبها الصواب.

فالحركة الإسلامية أسهمت، وبجزء كبير وبشكل فعال، في تحقيق التحرر من الحركات الاستعمارية، والتي كان آخرها الانسحاب الصهيوني من غزة، كما أنَّ حركات التجديد والإحياء الإسلامي أسهمت في نشر الوعي بين عامة المسلمين في أهمية التمسك بمرجعية الإسلام والتصدي لذيول الغزو الفكري والثقافي وحركات التغريب.

كما قامت الصحوة الإسلامية بنصيبها من العمل التطوعي والإنساني وخدمة مجتمعاتها الإسلامية والمساهمة في التنمية وعودة الشاب إلى الله والفتيات إلى الحجاب وبروز مؤسسات اقتصادية تعتمد على المعاملات وفقًا للشريعة.

كما أن الصحوة الإسلامية تواجه تحديات لا زالت قائمة مثل إشكالية ضياع الخلافة واستمرار المشروع الصهيوني قائمًا حتى الآن، وتوحيد الأمة وتحقيق العدالة

---

(١) الحج: ٤٠، ٤١.

(٢) الظلال (٤/ ٦٢٤٢، ٧٢٤٢).

الاجتماعية، كما توجد تحديات أخرى في مجال الشورى والحريات العامة وحقوق الإنسان، بالإضافة طبعًا إلى تحدي الهوية والمرجعية وآثار العولمة السلبية.

نعلم أن هناك أسبابًا ومعطيات خارجية حالت دون تحقيق النصر؛ وهي أسباب مفهومة ومنطقية ومن السنن المرتبطة بأي تغيير إنساني سواء كانت تلك الأسباب ممثلة بدول وأنظمة تخاف من التجربة الإسلامية وتعاديها؛ أو بسبب بعض بني جلدتنا الذين ما زالوا يرسمون في مخيلتهم صورة سوداء للدولة الإسلامية اختصرتها إحدى المجلات العربية في صورة غربان تنعق على خرائب وكأنها مقطع من أحد أفلام الرعب الأمريكية!!

يقول الأستاذ «عمر التلمساني» ـ رحمه الله: «لعل أكبر الأسباب التي دعت هؤلاء الناس، إلى شعار الحكومة الدينية، هو فزعهم من ظهور المد الإسلامي.. فمنذ ذلك الحين وصرخات محمومة، بأقلام مريبة على صفحات من الجرائد التي تشكك في كل ما هو إسلامي، محذرة الناس من قيام ما يسمونه خداعًا بالحكومة الدينية، قياسًا على الحكومة البابوية.

إن الحكومة الدينية تعبير مستحدث لم يرد في كلام ولا مؤلفات أي واحد من فقهاء المسلمين، الذين عنوا بالحكم ومقوماته، إنَّهم لم يعرفوا شيئًا اسمه الحكومة الدينية، ولكنهم تعرضوا لحكومة تطبيق شرع الله، وهو المطلب الذي ينادي به الإخوان المسلمون منذ قيامهم بدعوتهم الطاهرة النقية البريئة، إنهم تحدثوا عن حكومة يتساوى أمامها خلق الله جميعهم، حاكمهم ومحكومهم، لا يتفاضلون إلا بمقدار تقواهم لربهم العلي القدير، تأسيسًا على أن كل مسلم هو رجل دين، فحكومته حكومة إسلامية لأن أشخاصها مسلمون متدينون، حتى ولو جرف بعضهم شيء من الانحراف أو الأهواء»[1].

والحركة الإسلامية تدرك أكثر من غيرها سنن التغيير الاجتماعي، فهي تدرك أن

---

(١) عمر التلمساني: الحكومة الدينية، ص ١٤، ١٥.

الباطل مهما علا فإن جذوره ضعيفة لا تملك مقومات البناء، وأنَّ النصر بطبيعته لا يأتي للضعفاء القاعدين، وأن الذل والصَّغَار دائمًا من نصيب المفتونين بالدنيا وزخارفها.

* **دروس من السيرة:**

ولنا في السيرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ دروس ودروس، وهي تغص بالمواقف والأحداث التي ترشد الجماعة المسلمة إلى انتهاج سبيل النصر عبر تحقيق شروطه ومقوماته.

والقرآن الكريم عندما يتعامل مع بناء الدولة الإسلامية ومقومات المجتمع المسلم، لا يجامل على حساب الحق أحدًا، بل يخرج ما في النفوس والقلوب ويحلل الأحداث ويرصد النتائج ويضع الضوابط لتحقيق النصر لتعبيد الناس لرب العالمين وفق الشريعة الغراء.

ففي غزوة أحد بعدما خالف الرماة أمر النبي ﷺ انقلبت ريح المعركة لصالح المشركين، وكادت أن تقع الهزيمة في صفوف الجيش الإسلامي، وقد علق «ابن القيم» على الموضوع فقال: «كان في قصة أحد وما أُصيب به المسلمون من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقعهم الذي أمرهم الرسول ﷺ إلاَّ يبرحوا منه»[1].

وفي موقف لافت بعد المعركة وقف الرسول ﷺ يدعو ويُثني على ربه وكأنه يعلم أصحابه أهمية تقوية الصلة بالله، حتى لا يكلهم الله إلى أنفسهم إن هم خالفوا أمره أو أمر رسوله ﷺ، فلا يكتب الله النصر حتى يتجردوا من الدنيا وما فيها ويقدموا عليها مصلحة الدعوة.

فقد قال ـ سبحانه ـ في عرض أحداث الغزوة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا

(١) زاد المعاد (٢/ ٩٩).

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ (١)، قال ابن مسعود: «ما شعرنا أن أحدًا من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا وعَرَضَها حتى كان يوم أحد».

أما في يوم حُنين فيعيد القرآن الكريم تذكير الجماعة المسلمة بقوانين النصر، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥﴾ (٢). فالقرآن يعلق كيف اغتر الصف المسلم بالكثرة حتى قالوا: لن نغلب اليوم من قلة، خصوصًا أنَّ أعدادًا كبيرة من الجيش الإسلامي كانت حديثة عهد بالإسلام، فأراد القرآن أن يعيد تذكيرها بسنن النصر، حتى تتعلم الدرس وتكون سندًا للدولة الإسلامية الناشئة بعد ذلك سواء في معارك حروب الردة أو في فتوحات فارس والجزيرة والشام.

*** احذروا الثلاثية القاتلة:**

والحركة الإسلامية اليوم أمام تحديات داخلية تتكرر في كل حين وبأشكال مختلفة، وعليها أن تمارس النقد الصادق بحق نفسها وقواعدها، حتى لا تبقى أسيرة تكرار نفس الأخطاء وصولاً إلى نفس النتائج، ولسنا بصدد استعراض شامل لما يجب على الحركة الإسلامية أن تواجهه داخل صفوفها، لكنها فرصة نحذر فيها بالذات من الثلاثية القاتلة التي تعشش في الكثير من أوساطها، وهذه الثلاثية تتصف أيضًا بثلاث صفات تزيدها سوءًا، فهي أولاً لصيقة بطبيعة العمل الإسلامي الجماعي لا تكاد تغادره، وهي كذلك تستنزف جهودًا كبيرةً من رموز الدعوة وقياداتها، وهي للأسف كذلك مدخل إلى ثغرات وأمراض أخرى كالتفرق والتشرذم الحاصل في الساحة الإسلامية.

وأول تلك الثلاثية «النَّفَس الحزبي» الذي يسيطر على بعض الرموز والقواعد الإسلامية حيث تعتبر بعض الجماعات والحركات الإسلامية: «أنها الناطق باسم

(١)آل عمران: ١٥٢.

(٢)التوبة: ٢٥.

الإسلام، والممثل الشرعي والوحيد له، مما جعلها تنظر للآخرين بنوع من الارتياب، والإدانة والاتهام، الأمر الذي أخرجها من مهمتها في الهداية والترشيد، وإلحاق الرحمة بالناس، إلى نطاق المواجهة والصراع، والحكم بالتجريم والتأثيم»[١] مع التوهم بامتلاك الحقيقة المطلقة والصواب الذي ليس بعده صواب.

وثاني تلك الثلاثية: «عدم مراعاة حقوق الأخوة»، حتى إن بعض تلك الجماعات أصبحت من الأسباب الحقيقية والرئيسية في تفرق وتشرذم المسلمين بعد أن كان الأصل من وجودها هو تجميع المسلمين على الخير والهداية والرشاد، وانظر إلى أحد الدعاة وهو يحدثك عن تلك الواقعة حيث قال: «استمتعت إلى أحدهم في محاضرة عامة يتحدث عن الأخوة والمحبة، وأخذ يسرد ـ ببراعة فائقة ـ النصوص الشرعية في التحذير من الغيبة والنميمة، حتى أسر القلوب وأثر في سامعيه تأثيرًا بالغًا، ثم اجتمعت به ـ بعد يومين فقط ـ في مجلس خاص ضم عددًا من الدعاة، فرأيته يتحدث بلسان آخر عن إخوانه، أصبح التجريح أول ما ينطلق من اللسان، وأصبحت التهمة والأخذ بالظن هما الأساس، وتحول الاختلاف السائغ في الرأي إلى أزمة في الثقة[٢].

بل أعرف أحدهم قد تفرغ لإصدار النشرات التي تطعن في رموز دعوية مضت إلى ربها قبل نصف قرن تقريبًا، وحملت تلك النشرات افتراءات ولوي عنق الحقائق والنصوص من أجل الإساءة إلى تلك الرموز، وكأن هذا المنتسب للدعاة يعمل مستشارًا لدى جهة أمنية تسعى لتشويه صورة الرموز، وليس داعية يفترض فيه كف لسانه عن الدعاة وأعراضهم.

وثالث تلك الثلاثية المقيتة وأهمها على الإطلاق: «ضعف الصلة بالله ـ سبحانه وتعالى»، وقد تحدثت عن هذا الموضوع بإسهاب عند حديثنا عن «أوهام التصوف الحركي» حيث يقود هذا الضعف في الصلة بالخالق سبحانه وتعالى إلى نتيجتين لا

---

(١) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة: عمر عبيد حسنة، ص ١٢٦.
(٢) في البناء الدعوي: أحمد الصويان، ص ٩٩.

تقلان خطورة عن الثلاثية القاتلة.

النتيجة الأولى: أن يضعف التجرد بالعمل لصالح الدعوة، وتتحول إلى تحقيق للمصالح والمغانم الدنيوية تحت ستار خدمة الدعوة، بحيث تصبح القرارات والمعطيات الدعوية تتعلق بتحقيق تلك المصالح الخاصة لا مصالح الدعوة العامة.

والنتيجة الثانية: تأتي كمحصلة طبيعية لما سبق، بأن يبدأ الداعية في الذوبان في المجتمع الذي يسعى لإصلاحه، ويبدأ يسوق نظريات جديدة يستقيها من الواقع ويلفق لها الأدلة الشرعية عن صوابية ذلك الواقع الذي كان في يوم من الأيام يذمه وينتقده ويسعى لإصلاحه وتغييره نحو الأفضل.

إن النصر لا يستقيم إلا لمن استقام له، والدعاة مطالبون ببذل الجهد والأسباب وإخلاص النوايا، وليسوا مطالبين كيف ومتى تأتي الثمار، فهي دعوة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينصر بها عباده وفق قاعدته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ ﴾[1].

وأمام الحركة ـ بدل أن تنشغل بمواجهة إصابات الثلاثية القاتلة وذيولها ـ الاستفادة من الفرص المتاحة، مع الوضع في الاعتبار أن الابتلاء ليس قدرًا سرمديًا نهائيًا، وأن العقلانية في التعامل مع المعطيات الدولية والإقليمية تجنب الحركة الإسلامية الكثير من الآلام التي ندفعها بسبب تهور غير مدروس، أو اندفاع غير محسوب.

ü ü ü

---

(١) محمد: ٧.

المبحث السابع
رايات الثبات في حياة الدعاة

عندما تدخل لحظة النور في قلب المسلم فيلتزم دينيًا ويحول رحاله في الحياة نحو غاية واحدة هي رضوان الله سبحانه وتعالى، ومن ثم حشد كافة الأهداف الفرعية والتفصيلية في حياته لتحقيق الغاية الكبرى من وجوده في هذا الكون وهو تحقيق معنى العبودية لله، فإن صافرة الانطلاق للحظة النور هذه والتي تعلن عن بدء الانضمام لقافلة الدعاة تشهد حماسة متوقدة تترجم إلى التزام بشعائر الإسلام، وحرص على العلوم الشرعية، وانكباب على مجالس العلماء، وتمسك بالصحبة الصالحة والرفقة الطيبة، والانحياز للمشروع الإسلامي وتبنيه والدفاع عنه.

وقد تشهد هذه الرايات تصورات غير مكتملة، وأفكارًا غير ناضجة، وربما حصلت اندفاعة غير مدروسة تقف خلفها حماسة متوقدة لتعويض ما فات من العمر في الارتقاء بالنفس والنجاة من مسالك الغفلة في هذه الحياة، وتعتبر سنوات البداية لأي داعية هي السنوات الذهبية في النفسية المندفعة والحماسة المتوهجة لخدمة الدعوة والقيام بأعبائها.

ولأن نفس الحياة وروتينها يلقي بظلاله على النفوس، ولأن طبيعة النفس ملولة تحب التغيير والتجديد، ولأن تكاليف هذا الدين تحتاج إلى صبر على الطاعات وصبر عن المعاصي، مع فعل المأمورات والامتناع عن المنهيات والإقلال من المباحات خوفًا من أن تجر إلى حرام، كانت النفس في حاجة إلى زاد ومعين لا ينضب يجدد اندفاعة النفس في سيرها إلى خالقها، وربما يجد الدعاة هذا المعين في القربات والطاعات وابتغاء وجه الله واللجوء إليه في أوقات السحر، وبين صفحات القرآن، والصيام والقيام والأذكار ومجالس القلوب والرقائق، وهذه كلها مطلوبة تغني عن فن المراقبة للنفس وتقويمها وفن محاسبة النفس ومراجعتها خوفًا من تغير النوايا أو دخول الهوى أو الانشغال بالتوافه وما لا يليق بالداعية.

والهدف الأكيد من وراء تلك القربات وإعمال المراقبة على النفس ثم المحاسبة

والمراجعة فيما فعلت من خير وشر هو تأكيد بقاء الداعية على العهد مع خالقه لا يبدل ولا يغير، لا يلين ولا يستكين مهما توالت الخطوب، وتغيرت الأوزان، وأقبلت الفتن بالألوان، ومهما تقلب الداعية ما بين محنة ومنحة، ووطن ومهجر، وتنقل واستقرار، فهذا لا يغير منه شيئًا ما دامت رايات الثبات خفاقة الاستقامة سيدة الموقف.

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك «وفي رواية غيرك»، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»[(١)]، وقد ذكر الإمام القرطبي في تفسير الاستقامة أكثر من عشرة أقوال للصحابة والسلف، ثم عقب: وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها: «اعتدلوا على طاعة الله عقدًا وقولاً وفعلاً وداوموا على ذلك»[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾[(٣)].

إن الذين آمنوا بالله ثم استقاموا فلم يشركوا به في عبادته أحدًا فأدوا الفرائض واجتنبوا النواهي وماتوا على ذلك.. هؤلاء تتنزل عليهم الملائكة أي تهبط عليهم وذلك عند الموت بأن تقول لهم لا تخافوا على ما أنتم مقدمون عليه من البرزخ والدار الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم وأبشروا بالجنة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾[(٤)]، وانظر كلمة: ﴿ثُمَّ﴾ في الآية الكريمة فهي تفيد التراخي؛ لأن الإيمان يحصل بالنظر والتأمل دفعة واحدة، أما الاستقامة فتحتاج إلى مراقبة النفس وذكر

---

(١)أخرجه مسلم (٣٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٤٨٩)، وأحمد (٣/ ٤١٣).

(٢)الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٥/ ٣٥٨)، دار عالم الكتب، الرياض، ٢٠٠٣م.

(٣)فصلت: ٣٠، ٣١.

(٤)الأحقاف: ١٣.

الوعد والوعيد في كل طاعة من فعل أو ترك.

*** الاستقامة دعامة الثبات:**

والاستقامة لغة: ضد الاعوجاج، واصطلاحًا: الاعتدال في السلوك عن الميل إلى جهة من الجهات، ويقال: هي ألا يختار العبد على الله شيئًا، وسببها: كمال العلم بالأحكام، ومجاهدة النفس في كسر الهوى، وثمرتها السلامة من الحساب، والتخلق بشريف الآداب.

الاستقامة: درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيمًا في حياته ضاع سعيه، وخاب جهده، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾[(١)]، ومن لم يكن مستقيمًا في صفته لم يرتق من مقام إلى غيره، ولم يبن سلوكه على الصحة.

قال الدقاق: الاستقامة لها ثلاثة مدارج: أولها: التقويم، ثم الإقامة، ثم الاستقامة، فالتقويم من حيث تأديب النفوس، والإقامة من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار، فالأول تمحيص، والثاني تحقيق، والثالث توفيق.

والاستقامة: بالنظر إلى محالها خمسة أنواع: استقامة اللسان، واستقامة القلب، واستقامة الروح، واستقامة السر، واستقامة العقل، فالأولى: بالنطق بالحكمة، والثانية: بصدق الهمة، والثالثة: بحسن الخدمة، والرابعة: بتعظيم الحرمة، والخامسة: بالاشتغال بالمنعم دون النعمة.

وقال أبو بكر الصديق ﷺ في معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾[(٢)]: لم يشركوا. وقال عمر: لم يروغوا روغان الثعالب. فقول الصديق محمول على طلب التأويل، والقيام بشروط العهود.

---

(١) النحل: ٩٢.

(٢) الأحقاف: ١٣.

وقال ابن عطاء: «استقاموا على انفراد القلب بالله تعالى».

وقيل: إن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر، لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق.

وقال الواسطي: الخصلة التي بها كملت المحاسن، وبفقدها قبحت المحاسن: الاستقامة.

ويقال: الاستقامة في الأقوال بترك الغيبة، وفي الأفعال بنفي البدعة، وفي الأعمال بنفي الفترة، وفي الأحوال بنفي الحجبة.

والاستقامة توجب دوام الكرامات، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [١]، ولم يقل: سقيناهم بل قال: لأسقيناهم، يقال: أسقيته إذا جعلت له سقيا، وسقيته إذا ناولته ليشرب، فهو يشير إلى الدوام.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان.

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «يا عبد الله بن عمرو، إن لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنة أفلح، ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر»[٢]قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

*** السلف الصالح والاستقامة:**

الاستقامة: روح تحيا به الأحوال وزكاة تربو عليها الأعمال، فلا زكاة للعمل ولا صحة للحال بدونها.

فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، ولنقف مع أولئك الأخيار وحالهم مع الاستقامة

---

(١)الجن: ١٦.

(٢)أخرجه أحمد (٢/ ١٥٨) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

على طريق الرب الغفار.

عن مسلم البطين: «أن الربيع بن خثيم ـ أو خيثم ـ جاءته ابنته فقالت: يا أبتاه، أذهب ألعب؟ قال: اذهبي فقولي خيرًا».

فيا لله لا ينطق أبدًا بكلمة اللعب... فما بال أقوام لا يفيقون من اللهو واللعب والغفلة.

وقال رجل: «صحبنا ربيع بن خثيم عشرين سنة، فما تكلم إلا بكلمة تصعد، وعن رجل من بني تيم: جالست الربيع عشر سنين، فما سمعته يسأل عن شيء من أمر الدنيا إلا مرتين، قال مرة: والدتك حية؟ قال مرة: كم لك مسجدًا؟ وقال بعضهم: صحبت الربيع عشرين عامًا، ما سمعت منه كلمة تعاب».

قال بكار بن محمد السيريني: «ما رأيت عبد الله بن عون يماري أحدًا ولا يمازحه، ما رأيت أملك للسانه منه، وكان إذا جاءه إخوانه، كأن على رؤوسهم الطير، لهم خشوع وخضوع، وما رأيته مازح أحدًا، ولا ينشد شعرًا، كان مشغولاً بنفسه، وكان له ناقة يغزو عليها ويحج، وكان بها معجبًا، فأمر غلامًا له يستقي عليها، فجاء بها وقد ضربها على وجهها، فسالت عيناها على خدها، فقلنا: إن كان من ابن عون شيء، فاليوم، قال: فلم يلبث أن نزل، فلما نظر إلى الناقة، قال: سبحان الله، أفلا غير الوجه، بارك الله فيك، اخرج عني، اشهدوا أنه حر».

قال وهب ـ رحمه الله: «إن استطعت أن لا يشغلك عن الله تعالى أحد، فافعل».

وعن عبد الله بن المبارك قال: قيل لوهيب بن الورد: أيجد طعم العبادة من يعصي الله؟ قال: لا، ولا من هم بمعصية.

وقال ـ رحمه الله: لا يكن هم أحدكم في كثرة العمل، ولكن ليكن همه في إحكامه وتحسينه، فإن العبد قد يصلي وهو يعصي الله في صلاته، وقد يصوم وهو يعصي الله في صيامه.

ولله ما أجمل قوله في ترك ظاهر الإثم وباطنه، قال: «اتق الله أن تسب إبليس في

العلانية، وأنت صديقه في السر».

قال بندار: اختلفت إلى يحيى بن سعيد أكثر من عشرين سنة، ما أظنه عصى الله قط، لم يكن في الدنيا في شيء».

قال أبو حفص النيسابوري ـ رحمه الله: من لم يزن أحواله كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعده.

ولله دره، وما أعلى استقامته حين يقول: «حرست قلبي عشرين سنة، ثم حرسني عشرين سنة، ثم وردت عليَّ وعليه حالة صرنا محروسين جميعًا».

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: استقاموا: أدوا الفرائض.

قال مجاهد ـ رحمه الله: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلاَّ الله حتى لحقوا بالله».

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: « يا معشر القراء استقيموا، فقد سبقتم سبقًا بعيدًا فإن أخذتم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة، وقال أيضًا: «استقاموا على محبته وعبوديته فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة».

ü ü ü

حتى لا تنقرض الذاتية الدعوية

إشكالية تقديس الأفراد في العمل الإسلامي إشكالية ليست بجديدة، والحديث عنها مكرر ومعاد ونتائج هذا التقديس غير الحميد وخيمة على الدعوة وعلى القواعد الدعوية، فالتقديس الذي يحول الرموز الدعوية إلى ما يشبه الأصنام التي يجب أن لا تمس ذواتها خطير حتى على منهج الدعوة ومستقبلها، فهي تمنع من الرؤية الحيادية المنصفة لهذا الرمز باعتباره بشرًا يصيب ويخطئ، كما أنه يحول القواعد الدعوية إلى (ريموت كونترول) لا تتحرك ولا تندفع للعمل والدعوة لدين الله إلا بناء على توجيهات من مستويات دعوية عليا.

*** شرنقة التبعية القاتلة:**

كما أن هذا التقديس يمنع تنمية الذاتية الدعوية ويحول دون تطورها، بل وقد يؤدي هذا التقديس بربط مصير القواعد الدعوية بمصير الرموز فإن سقط رمز من الرموز لسبب أو لآخر، تبعه العشرات أو المئات بل والآلاف من القواعد الدعوية، وكان الأولى بالقواعد الدعوية أن تفرق بين الاحترام لتلك الرموز وسابق بذلها للدعوة، وبين الخروج من شرنقة التبعية القاتلة التي تمنع التجديد في الوسائل والآليات لخدمة الدعوة في عصور مقبلة تختلف عن معطيات العصور السابقة التي برزت فيها تلك الرموز.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحاسب الناس يوم القيامة بالجملة، فهذه الجماعة كلها ناجية وهذه الجماعة كلها هالكة، والانتماء للدعوة من خلال العمل الجماعي لا يعطي صك غفران للدعاة المنتمين لتلك الجماعات، إنما هي أعمال العباد يحصيها الله لهم أو عليهم كل بشكل فردي ثم يحاسبهم عليها يوم القيامة، وإذا كان الإنسان يسعى لتدعيم سيرته الذاتية بالعديد من الخبرات والشهادات والدورات ليحصل وظيفة في الدنيا، فإن الداعية مطالب بالإبداع الذي يخرجه من الأسر الفكري لما يطرحه الرموز في كتاباتهم وخاصة الحديثة منها في القرن الأخير، ويكون لنفسه البناء الدعوي الذي يضع فيه بصمته، وندعو في هذا المجال إلى موقف وسط، فلا

ندعو إلى رفض كتابات هذه الرموز بالمطلق فهي كتابات ناتجة عن معاناة دعوية وتراكم خبرات جيل التأسيس الذي كان في أغلبه من الرواحل القيادية، وحازت كتاباتهم ومؤلفاتهم وأفكارهم قبولاً واسعًا في العالم الإسلامي، ولا زالت طبعات كتبهم تتكرر وتتجدد بسبب الإقبال على اقتنائها وهذا من توفيق الله وفضله عليهم، ومسحة الإخلاص التي لولاها لما استمر هذا الخير بالتدفق.

كما أننا لا نريد من جيل الدعاة الجديد أن يبقى أسير تلك الأفكار الكبيرة والعظيمة في الدعوة والعمل الجماعي، بل عليه أن يحافظ على الأصول والقواعد وينطلق مبدعًا ومجددًا في الوسائل والآليات، بل وحتى الغايات المرحلية، فآلية العمل في عقود المحن والفتن التي مرت بالدعوة ليس بالضرورة أن تصبح مناسبة في وقت يضج فيه العالم بالمتغيرات ويقل بالثوابت.

* **ذاتية الاندفاع الدعوي:**

إن غاية ما نطلبه من جيل الدعوة الجديد أن يحرص على ذاتية الاندفاع الدعوي في مجال التطبيق، فالدعوة ليست تحت وصاية أحد من الرموز الدعوية وإن كان لها احترامها وإجلالها، والدعوة ليست ملكًا شخصيًا لجماعة أو تيار أو هيئة أو مؤسسة، وإنما هو سبيل مفتوح يجمع فيه الداعية إلى الله مجموعًا حسنًا يؤهله للقبول في جنة الله حيث النعيم المقيم.

إن للذاتية الدعوية أسبابًا يجب أن يحرص عليها الدعاة، حتى لا تنقرض هذه الذاتية، ويقل المبادرون في ميزان الدعوة، فيصاب العمل الإسلامي بالجمود ومن ثم الترهل ومن ثم الاضمحلال، فمن الضروري أن تكون كتيبة المبادرة في الدعوة هي التي تقود الركب إلى مشاريع الدعوة الجديدة، وبأفكار تلهم الآخرين سبل التجديد والإبداع، وهي عناوين أثبتت الدعوة غير مرة أنها أهل لها، وقادرة عليها، بل هي سمة من سماتها الملاصقة لها بشكل حيوي ومتجدد.

ü ü ü

وسائل اكتساب الطبيعة التنفيذية

*** الوسيلة الأولى: الفهم الشامل الموزون للإسلام:**

علينا ـ حين نفهم الإسلام ـ أن نفهمه بشموله، ونقف على حقائقه وأحكامه، ونعني بقواعده وأصوله، وأن نتدارسه من مصدريه الأساسيين: الكتاب والسنة، وأن نلتمس تطبيقه في سيرة رسوله ﷺ، وألا نصطدم في إدراك حقائقه بفهم سلف الأمة الصالح.

ولا بد لنا إذ نتدارس الإسلام من أن نحذر تأثير الأوضاع والظروف التي نحياها في فهمنا له ... فالإسلام يجب أن يفهم بعيدًا عن أوضاع نفسية خاصة أو بيئات تاريخية محددة، بل يجب أن يفهم خالصًا نقيًا كاملاً من مصدريه الأساسيين وتتحدد ظروفنا وأوضاعنا تبعًا له وقياسًا عليه.

على أن تطاول الزمان، واختلاف البيئات، وتتابع الأحداث طمست في نفوس الناس حقائق وأدخلت فيها أهواء، فتعددت أفهام الناس للدين الواحد، والحق لا يتعدد، فكان لا بد من التنبيه والإشارة إلى حقائق هي من بديهيات هذا الدين.

الحقيقة الأولى:

وهي أن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل على إقامة الحق وزهق الباطل واجبة على كل مسلم بما يقدر عليه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله:

«وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به، وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به.

ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على ذاك، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب

تارة وفي الوقوع أخرى»[١].

ولقد حث القرآن الكريم في كثير من آياته على فرضية الدعوة إلى الله ووجوبها على كل مكلف، فكل بالغ عاقل من الأمة الإسلامية مكلف بهذا الواجب، ذكرًا كان أو أنثى، فلا يختص العلماء أو كما يسميهم البعض رجال الدين[٢]، بأصل هذا الواجب، لأنه واجب على الجميع، وإنما يختصون بتبليغ تفاصيله وأحكامه ومعانيه نظرًا لسعة علمهم به ومعرفتهم بجزئياته، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨ ﴾[٣].

فأتباع الرسول ﷺ المؤمنون به، يدعون إلى الله على بصيرة، أي على علم ويقين، كما كان رسولهم ﷺ يدعو، ومعنى ذلك أن من اللوازم الضرورية لإيمان المسلم أن يدعو إلى الله، فإذا تخلف عن الدعوة دل تخلفه هذا على وجود نقص في إيمانه يجب تداركه بالقيام بهذا الواجب.

واستشعار الداعية لفرضية الدعوة يبعث في نفسه الهمة للعمل والحث على التنفيذ، ذلك أنه لا تراخي في الفريضة ولا نكوص عن الواجب، تراه: « أسيرًا في يد الشريعة، ديدنه السنة، فإذا هو بمنأى عن البدعة وما لم يكن أمر رسول الله ﷺ، مشربه كوثر الحديث النبوي وحوض الخير المصطفوي، فهو يكرع من سلسبيل الإسلام الخالص ويشرب من عين الإيمان الصرف، فحق له أن يكون من أهل السنة الخالصة والجماعة الناجية، إن سئل عن طريق قال: الاتِّباع، وعن خرقته قال: لباس التقوى، وعن مقصوده ومطلوبه قال: يريدون وجه الله، وعن قضائه لوقته بالغدو والآصال قال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ٣٦ ﴾[٤]، وفي ميادين الدعوة ورد الناس إلى طريق الحق»[٥].

---

(١)مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٦).
(٢)ديننا لا يوجد فيه رجال دين وإنَّما علماء الدين وحفظته.
(٣)يوسف: ١٠٨.
(٤)النور: ٣٦.
(٥)الرسائل: حسن البنا.

الحقيقة الثانية:

هـي أن الـدين لا يقـوم ولا ينتـشر إلا بالجهـد البـشري، وبالطاقـة التـي يبـذلها أصحابه، والمؤمنون به، وبالإمكانات التي يملكونهـا ويـسخرونها في سـبيله، وبغـير هذا لا تقوم لهذا الدين قائمة ولا يرجى لها أن تقوم.

وهذه حقيقة عريضة في هذا الدين، وبديهية من بديهياتـه الأولى، عرضـها القـرآن الكريم في ثنايا نـصوصه في مواضـع متفرقـة، وفي أحـوال مختلفـة، وفي تعقيباتـه عـلى أحداث واقعية وقعت للفئة المسلمة وقت نزول القـرآن، كوقعـة أحـد ويـوم حنـين، مؤكدًا عليها ومدللاً على صدقها من واقع حياتهم.

إن هذا الدين منهج إل هي لحياة البـشر بجهـد البـشر أنفـسهم في حـدود طـاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة[1].

واستقرار هذه الحقيقة في النفوس يجعلها أكثـر جديـة في تحمـل أعبـاء هـذا الـدين وأقدر على النهـوض بواجباتـه؛ لأنهـا تـشعر بـأن قعودهـا عـن قافلـة الـدعوة تفـريط بالأمانة الكبرى ودفع للباطل أن يحيا، وهو ما لا يستقيم مع أوليات الإيـمان فكيـف بمرتبة الدعوة والجهاد؟

فتذكر أخي الداعية أنك على ثغر عظيم ودعوة كريمة، وأنك قـد اسـتؤمنت عـلى أمانة كبرى قد ناءت عن حملهـا الـسماوات والأرض والجبـال فعهـدت إليـك، فكـن حريًا بها تجد حبل الله منك قريبًا، كـن عليهـا أمينًـا تنـزل عليـك رحمـة الله وتحـوطـك عنايته وتغشاك رعايته، وإياك أن تلهو عنها أو تغفـل فإنهـا فرصـة للـشيطان يترقبهـا فيـك، وينتظـر سـهوك عنهـا سـاعة، فكـن أفطـن منـه وأذكـى، وعـض عـلى أمانتـك بالنواجذ وتعهدها بروحك ونفسك فإنها غالية عالية.

الحقيقة الثالثة:

تتعلق بغاية وجود الإنسان في الحياة ودوره فيها، فرسـالة الإنـسان في الحيـاة هـي

---

(١)هذا الدين: سيد قطب، ص ٤، ٨.

عبادة الله ـ تعالى، بمعنى العبادة الواسع الكبير الذي يتجاوز علاقة الإنسان الفردية بربه إلى علاقته بالحياة: عمارة الأرض واستخلافها وتفجير طاقاتها ومكنوناتها، واستغلال خيراتها، والاستفادة من قواها بشرط توجيه القصد وموافقة الشرع في كل ذلك، ويتجاوز كذلك إلى علاقته بالناس، ودعوتهم إلى هذا الحق الذي معه لإخراجهم مما هم فيه من ظلمات الجاهلية والشرك إلى نور الإسلام والحق، ومجاهدتهم في إعراضهم، والصبر على أذاهم، فذلك ما عليه، ولا عليه إن هم آمنوا به أو لم يؤمنوا، قبلوا دعوته أو رفضوها؛ لأنه لا سلطان له على قلوبهم، وحسبه أن يبلغ دعوة الله، وأن يقيم شرعه في الأرض، ولا عليه بعد ذلك إلى أي طريق تتجه أو تسير.

ولا بد لهذه الحقيقة من أن تستقر في النفوس كي لا يتسرب إليها اليأس ولا ينتابها الملل، فوظيفتها التبليغ والبيان وليس علينا أن نشق عن القلوب لندخل فيها الإيمان.

* **الوسيلة الثانية**: الإيمان العميق، والحماسة الفياضة، والتقوى والورع والإخلاص والتجرد:

وكلها آثار لتغلغل العقيدة في القلب واتصال الروح بالله وامتلاء النفس بمقامه، «وأصحابها رجال لأفئدتهم لوعة، ولقلوبهم لذعة، فإذا نومهم قليل، وكلامهم عند الضرورة فحسب، تجد عليهم روح السلوك إلى الله، وبهجة المحب للرب، قد أيقنوا أن نفوسهم إن تركت بلا محاسبة ومراقبة كانت رأس البلاء، ومعدن الفضيحة»[1].

لذلك كان تعميق الإيمان وزيادة اليقين هدفها الأول في ميدان الإصلاح والتوجيه فعكفوا على نفوسهم بالتزكية والتطهير وبالإرشاد والتوجيه حتى سلس لهم قيادها، وسهل عليهم علاجها، ولا شك أن لتزكية النفوس والتقوى، والإخلاص والتجرد أسبابًا كثيرة وأبوابًا من أهمها:

---

(١)تذكرة العربي.

أولاً: الذكر وقراءة القرآن:

وهذا باب من أوسع الأبواب ومن أيسرها وأكثرها أجرًا وأجداها نفعًا، فبالذكر يطمئن قلب الإنسان ويخشع، وبه يستشعر الذاكر عظمة الله ـ تعالى، ويتذكر أن كل شيء في هذا الوجود يسبح معه؛ ويحمد الله ـ تعالى ـ على النعم العظيمة التي أسبغها عليه من سمع وبصر، ومأكل، ومشرب وملبس . . . إلخ، ويكبِّر الله مستشعرًا أنه مع الله الحق الذي لا يكبر بجانبه كبير، ويحس أنه لا يخشى أحدًا إلا الله وحده، ناظرًا إلى الدنيا وطغاتها باستهزاء واستعلاء، لاتصاله مع الله الكبير المتعال.

ولا بد للذاكر أن يراعي أمورًا هامة حتى يكون ذكره لله مثمرًا مؤثرًا في نفسه وأهم هذه الأمور:

أ ـ ذكر الصيغ الواردة: ولا شك أن الذاكر له أن يذكر الله بما يشاء وما يطمئن له قلبه وينطق به لسانه، غير أن رسول الله ﷺ علمنا أذكارًا معينة في كل حال من أحوال المسلم هو من خير الذكر وأحسنه لأنه أوتي ﷺ جوامع الكلم، وأفضل الذكر ما ورد في القرآن ثم في السنة المطهرة.

ب ـ التفكر فيما يذكر: فالذكر الذي نتعبد به لله ـ تعالى ـ إنما جعله شفاء للنفوس: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[1]، فحين نسبح الله ـ تعالى ـ علينا أن نستشعر عظمته وجلاله ونحس بأن الوجود كله يسبح معنا، وحين نحمده ـ سبحانه، نتذكر نعمة الله الظاهرة والباطنة، وحين نقول: الله أكبر؛ نحس بعزة الإيمان وقوته لأن الله هو القوي العزيز، وهكذا مع سائر الأذكار.

جـ ـ الخشوع: فلا بد من الخشوع في الذكر، لأننا نذكر العظيم الجليل الواحد الأحد . . ولا بد أن يتناسب ذكرنا له مع مقامه وجلاله سبحانه.

ولقد قلنا: إن أفضل الذكر قراءة القرآن، فالقرآن هو أقوى سلاح في يد المؤمن

---

(١)الإسراء: ٨٢.

في هذه الدنيا، فإن كل شيء يطرأ عليه التبديل والتغيير إلا هذا الكتاب الكريم: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [(١)]؛ لذلك وجب على الداعية كثرة النظر في كتاب الله وأن يخصص لنفسه وردًا يوميًا لا يتركه بحال من الأحوال.

ولا بد لنا إذ نقرأ القرآن أن نقرأه على أنه روح من الله تعالى، إنه ـ تعالى ـ يأمرنا وينهانا، فلا بد لنا حين نقرأ القرآن من أن نستحضر عبوديتنا لله ـ تعالى ـ وأن نتأمل فيه ونتدبر معانيه ونقف على عبره وعظاته.

ثانيًا: ذكر الموت والإحساس بالغربة في الحياة:

ويكون شعاره ذلك الشعار الذي رفعه النبي ﷺ حين قال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[(٢)]، فيعيش المسلم في هذه الحياة كالغريب الذي لا يأوي إلى شيء، ولكنه يظل دائمًا في شوق إلى دياره يترقب لقاء الله، كما يترقب الغريب لقاء الأهل والولد، ويترقب رحمته ومغفرته، ويكون الموت منه على مرأى ومسمع، ينتظره في كل لحظة ويستعد له في كل حال، ينظر إلى القبور فيرى سكونها وهدوءها ليشعر أن تحت التراب أناسًا مثله قد أفضوا إلى ما قدموا، فمنهم الذين اسودت وجوههم وازرقت عيونهم وكأني به يرى الملائكة التي تعذبهم ولا تأبه بصراخهم وعويلهم، ويحس بضمة القبر وقد أطبقت على أضلاعهم، ثم ينظر إلى التراب نظرة أخرى فيرى أهل النعيم والجنات، مبيضة وجوههم، هادئة أرواحهم مطمئنة نفوسهم، ينظرون إلى رحمة الله ـ تعالى ـ ويحمدونه على النعيم، فيأخذ هذا الموقف زادًا له في دربه، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «أكثروا ذكر هادم اللذات»[(٣)] يعني الموت.

---

(١) فصلت: ٤٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (٤/ ٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٢)، والحاكم (٤/ ٣٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن غريب»، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

اذكر الموت هادم اللذات وما نعيم الدنيا إلا كخيال طيف أو سحابة صيف، فهو ظل زائل، ونجم قد تلى للغروب، فهو عن قريب آفل، قال النبي ﷺ: «ما لي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها»[(١)]، وقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[(٢)(٣)].

*** الوسيلة الثالثة: الإكثار من التفكر في خلق الله:**

وهذه عبادة تركها كثير من الناس وزهدوا فيها، فحري بالدعاة أن يعيدوها ويحيوها، كيف لا وقد ألزمهم بذلك ربهم ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ....﴾[(٤)]، وهي عبادة جليلة، وقربة إلى الله ـ تعالى ـ عظيمة تترك في النفس أثرًا لا يمحى وتكسب في القلوب رغبة ورهبة وتنزع منها شرورًا في النفس خافية.

ولذلك فقد مدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ المتفكرين في خلقه فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[(٥)].

ولذلك فحين نزلت الآية السابقة قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر»[(٦)] ولأمر ما، كان رسول الله ﷺ يختلي في غار حراء قبيل بعثته الليالي الطوال يتفكر في خلق الأكوان وفي أمر الحياة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (١/ ٣٩١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن صحيح».
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجه (٤١٠٨) عن المستورد بن شداد رضي الله عنه.
(٣) مدارج السالكين: ابن القيم (٣/ ٩٣).
(٤) سبأ: ٤٦.
(٥) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.
(٦) أخرجه ابن حبان (٦٢٠) عن عائشة رضي الله عنها، وحسّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٦٨).

نستكمل الأساليب المعينة على تنمية الذاتية الدعوية بعد أن استعرضنا خطورة الجمود عند عطاء الرموز وخلق حالة من القدسية تحول وتمنع التمدد الدعوة الذاتي، بحيث تفتقر الدعوة بسبب ذلك إلى المشاريع الإبداعية والتجديدية التي تقود التوجهات وترسم ملامح المستقبل للدعوة، وقد رأينا العديد من الحركات الإسلامية والجماعات الدعوية بسبب فقدان تنمية الذاتية الدعوية، قد آل مصيرها في المرحلة الأولى إلى الجمود لالتزامها وتيرة التقليدية والتكرار، فلم تعد تملك الجاذبية الجماهيرية، وهذا أدخلها في دوامة التراجع يدعمه الافتقار إلى التجددية الدعوية والحيوية الحركية، مما آل بها المآل في النهاية إلى التراجع والنكوص فيما يشبه الانقراض، وهذه الحالة لا تنطبق على التجمعات الإسلامية فقط، بل هناك العديد من الأحزاب الأخرى وحركات الاجتماع الإنساني قد تحولت إلى ما يشبه الذكريات أو هي إلى عمل المتاحف أقرب، وبعض هذه الأحزاب ترى بشكل واضح كهولة الصف القيادي وافتقاد الدماء الجديدة، وتحول الحزب إلى ما يشبه ساعة التنبيه التي تصدر البيانات السياسية في ذكرى بعض الأحداث، وكأنه أرشيف روتيني درج عليه الحزب منذ سنوات، والذي يفترق في حال العمل الإسلامي أن الدعوة:

أولاً: ليست ملكًا شخصيًا لطرف أو رمز.

ثانيًا: منطلقها مصالح الآخرة، فاللقاء ليس على مصالح الدنيا، وبقدر ما تقترب الحركة من هذه المعادلة تتقدم، وبقدر ما تخل بها تتأخر وتجد العقبات والصعوبات منتصبة أمامها.

وبعد هذه الأسطر من كلمات جاءت على نسق التنبيه دعونا نستكمل بقية الوسائل المعينة على تنمية الذاتية الدعوية.

*** الوسيلة الرابعة: حب الدعوة والغيرة عليها:**

والحب عاطفة وفطرة ربانية فطر الله الناس عليها: «والحب يورث شدة الولاء ويبعث إلى العمل والاجتهاد قربى إلى المحبوب وابتغاء لمرضاته عملاً من تلقاء النفس وطوعها لا يراقب منفعة مرجوة ولا تحده مراعاة أجر مرغوب».

«والإنسان بالغريزة المركوزة فيه يحب نفسه ويشمل بعاطفته كل شيء يتمثل نفسه فيه أو يرى وجوده ممتدًا إليه ـ وذلك هو سبب حب الإنسان لم ينتسب إليه من أهل وملك وموطن ـ وما يشاكله ويلائمه بأي وجه من الوجوه، وبهذا المعنى أيضًا يحب الإنسان ربه متى اهتدى إليه فوجوده كله لله وقيامه ودوامه به، ورجوعه إليه تربطه بربه وشائج أوثق من كل قرابة، لأنه أثر منه تعالى، صنعه بيديه، ونفخ فيه من روحه، ولقنه من علمه، وحاطه برحمته وقدرته»[١].

ويكاد يكون مركز هذه العاطفة ـ عاطفة الحب ـ هو ذات الإنسان نفسه، فكلما اتصل الشيء بذاته كان أقرب إليه وأحب إلى نفسه، وهكذا حين ينغرس في قلب الإنسان أنه مخلوق لله ـ تعالى ـ قائم به، وراجع إليه؛ بأنه أثر منه ـ سبحانه ـ وأن وجوده متصل بوجوده، فتمتلئ نفسه بمشاعر الحب له ولما يصدر منه، وهكذا يحب الإنسان ربه ويحب منهجه وشريعته ودعوته ويحب العمل لها والجهاد في سبيلها.

وحين يبلغ الحب مرتبة عليا في نفس الإنسان تقوم الغيرة تحرس حماه وتصون محارمه أن تستباح، ومن علامات الغيرة الغضب إذا انتهكت محارم الله والثورة لإبطال ما يرى من منكر، قالت عائشة رضي الله عنها: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت سهوة (وهو ما يشبه النافذة) لي بقرام (وهو الستار) فيه تماثيل: فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه وتلون وجهه وقال ﷺ: «يا عائشة، أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله»[٢].

ومن علامات الغيرة كذلك ألا يطيق أن يرى رسالته معطلة أو خاضعة لسلطان رسالة أخرى، ومن هنا نرى المؤمن الحق والداعية المفطور يلح في أن يجمع لرسالته كل سلطان روحي ومادي يكفل لها الهيمنة على ما سواها[٣].

---

(١)الإيمان وأثره في حياه الإنسان، ص ٦٦، ٦٧.

(٢)أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧)، والنسائي (٨/ ٢١٤)، وأحمد (٦/ ٣٦) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣)تذكرة الدعاة: البهي الخولي، ص ٢٣٣.

إن حب الدعوة وحب العمل دليل على حب الله ورسوله وثمرة من ثمراته، وإن لم يؤد حب الله إلى هذه الثمرة فهو ادعاء كاذب وعاطفة غامضة، وليس لها على النفس توجيه ولا سلطان، فإن الحب الصادق دليله أن يكون الله ورسوله والعمل لدينه أحب إلى النفس من كل ما تحبه وتعتز به: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

*** ومن علامات محبة الداعي المسلم لربه كذلك:**

أ - الولع بذكره - تعالى - في كل حين فلا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو من قلبه، فمن أحب شيئًا أكثر بالضرورة من ذكره وما يتعلق به، ومن هنا كان من علامات المحبين الإكثار من تلاوة كتاب الله - تعالى.

ب - يأنس بمناجاة الله، فهو لا يستوحش منها ولا يضيق بها، بل ويعتبرها فرصة لهذه المناجاة.

جـ - يتنعم بطاعته ولا يستقلها، فإن المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وينشط لها، ولهذا كانت الصلاة قرة عين لرسول الله ﷺ وراحة لنفسه الكريمة من نصب الدنيا، قال الجنيد رحمه الله: علامة المحب دوام النشاط في طاعة الله بقول الشاعر:

تعصى الإله وأنت تُظهر حبه	هذا لعمرى في الأنام شنيع
لو كان حبك صادقًا لأطعته	إن المحب لمن يُحب مطيع

د - لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت من ذكر الله وعن القيام بخدمته وطاعته.

هـ - يؤثر ما يحبه الله على ما يحبه هو في ظاهره وباطنه، فإن المحب الصادق يؤثر دائمًا ما يحبه محبوبه، ولا يبالي بالمشاق والتعب في هذا الإيثار.

---

(١)التوبة: ٢٤.

و ـ يحب لقاء الله لأن المحب يحب لقاء الحبيب، وبالتالي فهو لا يكره الموت إذا جاءه لأنه مفتاح لقاء وطريق الوصول إلى الله[١].

*** الوسيلة الخامسة: دوام التذكير بالغاية:**

وإنما قصدنا التذكير بالغاية لا التعريف بها؛ لأن أمر التعريف بالغاية من مقتضيات فهم مبادئ الإسلام الأولى، وهو ما لا بد منه لكل منتسب إلى هذا الدين فضلاً عن الدعاة إليه، أما التذكير بالغاية فهو شيء آخر، وهو ما لا بد منه لكل مسلم، كبيرًا كان أم صغيرًا، عالمًا كان أم متعلمًا، داعيًا له أو من عامة المسلمين، ذلك أن الإنسان قد ركب في فطرته الغفلة والهوى، والسهو والنسيان، وإن لشهوات الدنيا ومغرياتها لثقلاً على نفسه وضغطًا على عقيدته وفكره، وهو ما يحتم عليه تذكيرًا دائمًا بالميزان، ومراجعة متواصلة ومحاسبة، وإعادة للأمور إلى نصاب الحق على الدوام، فإذا تأكد للداعية غايته ـ وهي مرضاة ربه سبحانه ـ فقد وجب عليه أن يحيي قلبه بالسير إليه وأن يجتهد في ذلك ما استطاع، وأن ينتزع الناس ـ ممن حوله ـ من الدنيا ليسيروا معه في الرحلة الطويلة البعيدة.

نحن على رأس رحلة إلى الله ـ سبحانه وتعالى، فإذا اجتزنا مراحلها على ما يرضيه فعند الصباح يحمد القوم السرى، ويحطون رحالهم في دار المقامة من فضله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[٢]. وهي بعد رحلة لا تقطع بقطار أو سيارة، وإنما تقطع بالقلب، والقلب فيها هو كل شيء فيه يبصر الإنسان غايته أو يبصر الله تبارك وتعالى.

كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « وغايتنا لا تدرك بالأبصار، ولكن تدرك بالقلوب التي في الصدور، وما لم يبصر الإنسان غايته لم يعرف إليها سبيلاً، ولم يدرك لها جمالاً».

---

(١) أصول الدعوة: عبد الكريم زيدان، ص ٣٢٧.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

وبه يستبين الطريق إليها فلا تلتبس المعالم على ذوي القلوب الحية: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .....﴾ [(١)]، وما المعالم هنا إلا الطيب والخبيث، والحسن والقبيح، والنافع والضار، والحلال والحرام، وهو الذي يضاعف أشواق المرء إلى غايته ويستحث همته إليها، فتهون عليه المراحل والعقبات، وكلما أدركه الكلل أو الملل، لاحت له بوارق من دار السلام فيتجدد عزمه ويحيا رجاؤه على حد قول الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها　　　عن الطعام وتلهيها عن الزاد

إذا اشتكت من كلال السير أوعدها　　　روح القدوم عند ميعاد

فالقلب يا أخي هو كل شيء في هذه المرحلة الأولية، هو كل شيء في حياتك، وما الجسم إلا مطية له أو ظرف يصونه.

وإذا تقرر أن القلب هو كل شيء في عوامل الرحلة، وهو أهم شيء فيها ـ فهو الذي يبصر الغاية، وينير الطريق، ويجدد العزائم، ويستحث الأشواق ـ وجب أن نتيح له من الهدوء وفراغ البال ما يجعله يستمر على ذكره وفكره، وإقباله على الله ـ سبحانه ـ في طمأنينة وسكينة، وفي رأيي أن القلب إذا أحيط بما يقيه ويحفظه من المؤثرات العارضة فقد مضى إلى غايته على هدًى وصراط مستقيم، ويمكن للداعية أن يجمل هذه المؤثرات فيما يلي:

أ ـ مؤثرات اقتصادية:

نعم فمطالب العيش وكل ما يتصل بالحياة الاقتصادية له تأثيره المباشر القوي على القلب، كالفقر والتعطل عن العمل والمرض... إلخ، وعلى الداعية أن يدرك هذا وأن يبذل غاية جهده لصيانة القلب منه، والمحافظة على بقائه في روض سلامته، ونعيم ذكره وفكره، ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

بك من الهم والحزن... وأعوذ بك من ضلع الدين وغلبة الرجال»[١]، ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»[٢]، وليس في البشر كافة من هو أسمى همة من رسول الله ﷺ، فهل تراه فزع إلى الله واستعاذ به إلا لأن الحزن والهم وغلبة الدين والفقر من مهلكات القلب كالذنوب والشهوات سواء بسواء؟

فإذا نحن عنينا بتقرير هذه العوامل الاقتصادية، وأثرها على حالة المرء النفسية، فلسنا نقف بمرادنا عند حدود اللقمة التي تسد جوعه وتستر عورته، بل نرمي إلى ما وراء هذه الحدود من انقشاع الظلمة عن القلب، وصفاء الأفق من حوله، وعودة الطمأنينة إليه، ليواصل سيره إلى غايته، حتى مع بقاء أسباب الجوع، وخلوّ بيته من القوت فلا يتضعضع لأحد لينال من فضله شيئًا، ولا يهمه أو يغمه، بل يربط الحجر على بطنه.

ب ـ مؤثرات نفسية:

وهي عوامل ترجع إلى غرائز الإنسان الحيوانية، وأهمها كلها هنا غريزتا الجنس وحب المال، وكل منهما إذا ثارت بصاحبها عصفت بعقله ومزقت همة قلبه فتعبث به كالريشة في مهب الريح، ولا بد لانتظام سير الإنسان أو لانتظام سير قلبه إلى الله من معالجة جموح هذه الغرائز وتلطيف حدتها وثورتها.

ولذلك فقد رغب الرسول ﷺ الشباب بالزواج ودل من لم يستطع ذلك إلى سبيل ميسور: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[٣].

جـ ـ مؤثرات اجتماعية:

وهي عوامل ترجع إلى العادة والعرف في تقدير قيمة العرض والعفة والفضيلة،

---

(١)أخرجه البخاري (٢٨٩٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢)أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي (٣/ ٧٣) عن أبي بكرة رضي الله عنه، وصحح الألباني إسناده.

(٣)أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)، والترمذي (١٠٨١)، والنسائي (٤/ ١٦٩، ١٧٠)، وابن ماجه (١٨٤٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وأبرز ما في هذا الباب، تبرج النساء واستعلان الناس بما يأتون من منكر، فإن ذلك مما يقطع على القلب طريقه، ويُفسد عليه هدوءه وطمأنينته، والنظرة سهم من سهام الشيطان كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ: «النظرة سهم من سهام الشيطان من تركها مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»[1]. وما ترك رسول الله ﷺ بعده فتنة أضر على الرجال من النساء، ومطلوب من الداعية أن يعمل بكل ما يستطيع من الوسائل على تطهير البيئة من كل فساد يضر بحياة القلب.

*** الوسيلة السادسة: التركيز على أصول التكوين الذاتي:**

وذلك من خلال:

١ ـ بيان الكيفية: نحو كيف تقرأ؟ كيف تتثقف؟ كيف تُحلل؟ كيف تُنظم؟ كيف تستغل الوقت؟ وهكذا في كل أمر تعليمي. فعلى سبيل المثال لا يكفي أن نوجه الأفراد للقراءة ونحثهم عليها مبينين أهمية الاطلاع، بل لا بد من تنمية وصقل الكيفية التي تكون بها المعرفة.

٢ ـ دراسة أساليب التطبيقات العملية لتحركات القادة والمصلحين في بنائهم لأنفسهم ولغيرهم، وسيرهم ـ رحمهم الله ـ كثيرة ومبثوثة في كتب السير والتراجم.

٣ ـ تنشيط الإبداع والابتكار والتفكير بالجديد، وذلك باتباع نظام التشجيع على الإبداعات التي فيها دفع للعمل الإسلامي إلى الأمام، مع عدم إخلالها بالثوابت التي تقوم عليها الدعوة الإسلامية، ومن صور التشجيع بيان أهمية المشروع المبدع فيه للمسيرة الإسلامية مع ربطه بأمثلة كانت في السابق ظهرت نتيجتها الإيجابية للدعوة الإسلامية، وتحميله مسؤولية تنفيذ هذا الإبداع مع إعانته عليه.

ü ü ü

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١٣، ٣١٤) عن حذيفة رضي الله عنه، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

خمسة أسباب لمحاصرة الإرهاب

العنف أسوأ وسيلة للتغيير، والثورات العربية التي استخدمت العنف في التغيير كانت وبالاً على الشعوب التي وقعت مقهورة تحت حكمها، وعندما تستطيع الدبابة أن تغير وجوه الصف الأول، فإن تلك الوجوه تسعى جاهدة أن تغلق طريق الدبابات حتى لا يتكرر فيها ما صنعته هي بأسلافها، بل وتسعى لإزاحة كل الوجوه التي شاركت في حلاوة الوصول بالدبابة إلى القصر الجمهوري، ولذلك قالوا: «إن الثورة تأكل أبناءها»، وهي مقولة صحيحة تمامًا.

والمشرط الأمريكي العنيف الذي استعمل في أفغانستان ثم في العراق يعكس اليوم أزمة أكثر مما يعكس ازدهارًا وديمقراطية في الدولتين، وما حدث في قلعة «جانحي وتورا بورا» الأفغانية حدث منه شيء مقارب في «أبو غريب»، ولم يكن في تصور الشعبين في أسوأ أيام الحكم السابق أن يتم قصف حفل زفاف مدني لمجرد الاشتباه أو التصوير مع جثث الموتى للذكرى مع ابتسامة تخلو من حياء أو خلق أو إحساس.

وتيار العنف الذي يضرب المنطقة اليوم لم يتعلم من التجارب السابقة، وأعتقد أنه حرب استنزاف شبيهة بحرب الاستنزاف ضد الوجود السوفييتي في أفغانستان، والشيء الوحيد الثابت في المعادلة أن النسر الأمريكي استفاد من انحدار السوفييت من أفغانستان؛ ويستفيد حاليًا من الأعمال الإرهابية التي تُمَارس ضد المملكة العربية السعودية بلاد الحرمين الشريفين، وإن دعوى إخراج القوات الأجنبية من أرض الجزيرة لم تعد مقنعة، أو بعبارة أصح أصبحت كقميص عثمان الذين يريدون به تحقيق مآرب أخرى قد لا تمت إلى ما يحدث بصلة، وخصوصًا أن أكبر القواعد الأمريكية في المنطقة خارج الحدود السعودية، ورغم ذلك يتم تجاهلها والتركيز فقط على المملكة مما يضع خطوطًا سميكة حول مصداقية تلك الدعاوى.

ما هو مطلوب اليوم أكثر من مجرد الإدانة التي كانت من الممكن قبولها في بداية أحداث العنف، ما هو مطلوب اليوم استراتيجية مواجهة وليس تكتيكًا لتبادل

العنف بالعنف، والهدف ليس هو سلاح الإرهابيين بل العقول التي تقف خلف تلك الأسلحة، والوسيلة ليست أمنية بحتة وإن كان التحرز الأمني جزءًا هامًا منها، والغاية ليست مجرد إنهاء دوامة العنف، إنما تأسيس مجتمع غير قابل لاستنبات هذه التجارب المريرة مرة أخرى.

نحن نحتاج وصفة علاج يمكن أن نلقي الضوء على بعض ملامحها في البنود التالية:

أولاً: تسريع خطى الإصلاح، والتحول من اللقاءات البروتوكولية والرسمية إلى وضع الخطط والمحاور والجدولة الزمنية التي تلائم المنطقة بروحها العربية والإسلامية، وليس بالضروي أن تكون هذه الخطط متوافقة مع رؤى القوى الخارجية، فهذا سيصنع تطرفًا ورفضًا مضادًا للإصلاح معتمدًا على الدفاع عن الهوية الذاتية.

كما أن هذا الإصلاح يجب أن يمتد لمختلف المجالات؛ مما يعني إزالة تراكمات وبيروقراطيات قاتلة، وربما التصدي لفئات ترى مصالحها الشخصية في الحفاظ على الوضع القائم، وأفضل وسيلة لذلك أن يتحول الإصلاح إلى قناعة لدى مختلف الطبقات القيادية في المجتمع مع تحييد وعزل المنتفعين من قلاقل الوضع الحالي، وبالدفع بالوجوه الجديدة مع دعمها بالخبرات العريقة حتى تصبح عملية الإصلاح عملية ميكانيكية حيوية تتم عبر كل المستويات الوظيفية والمهنية، حتى يتحول الإصلاح من مجرد شعارات تهدف إلى تخفيف الضغط الخارجي والمطالبة الشعبية إلى اندفاعة مدروسة ضمن برامج تتبناها الجهات العليا حتى ينتقل هدف الإصلاح من زاوية الجمود والركون إلى زاوية الحركة والتطبيق.

ثانيًا: تصحيح التصور الخاطئ عن الوضع العربي والتركيبة النفسية والعقلية لدى القيادات الغربية، وخاصة رجال الكونغرس الأمريكي الذين يتحفوننا كل يوم بهجوم جديد على المعاهد الشرعية والقرآنية، علمًا بأن التطرف الذي يتحدثون عنه نشأ في جزء منه لتحقيق مصلحة أمريكية في أفغانستان في منتصف الثمانينات من

القرن الماضي، وإن طلبة العلم الذين تخرجوا من تلك المعاهد الشرعية هم البنية التحتية الذين يعملون الآن في الساحة السعودية لمحاربة التطرف والإفراط والدعوة إلى التسامح والوسطية.

وإن خلط الأوراق بين الإسلام كدين وبين ممارسات البعض الخاطئة التي تنسب إلى الإسلام لن تؤدي إلا للمزيد من التطرف، وأن أفضل وسيلة لتغذية التطرف يكمن في إغلاق المعاهد القرآنية التي تقوم على منهج سلفي نقي وسليم ويحظى بمتابعة الجهات الرسمية ويلقى القبول لدى شرائح المواطنين المختلفة، وبالتالي فإن الحاجة تزيد إلى تفعيل العلاقات العامة وبرامج الإعلام الموجهة ببعض الساسة الغربيين حتى لا يهرفوا بما لا يعرفون، ولا يصبوا الزيت على النار، ومن ثم بدلاً من أن نعالج صداع الرأس نجد أنفسنا وجهًا لوجه مع مرض خبيث تمكن وسيطر في ظل التضييق على معاهد الوسطية والاعتدال.

ثالثًا: فتح المجال أكثر وأكثر أمام التيارات الإسلامية التي أظهرت وسطية وعقلانية وحرصًا منقطع النظير على مصلحة الوطن، وهي التيارات التي انحازت لصالح الدين والوطن في مواجهة هذا العنف المستمر، وهذه الوصفة ليست وصفة ينادي بها زعيم تيار إسلامي يصنف تقليديًا بأنه: «من طيور الظلام»، ولا هي وصفة جماعات التأسلم السياسي كما يحلو للبعض أن يسميها، بل هي وصفة السير البريطاني «أندرو كوربنول» سكرتير الحكومة البريطانية الذي طرحه في مشروع خاص يحمل اسم «المنافسة»، وتقع وثائقه في أكثر من مائة صفحة لمعالجة المخاوف المتنامية عن إيواء بريطانيا نحو عشرة آلاف شخص من المتعاطفين مع تنظيم القاعدة، بل ويذهب المشروع بعيدًا إلى ضرورة توفير الدعم المالي للزعماء الإسلاميين المعتدلين خصوصًا من المواطنين، مع إنشاء أماكن عمل صديقة للمسلمين ومحطات إذاعة وتلفزيون دينية معتدلة.

ومن المفارقة أن يكون بين هؤلاء الأئمة الذين تعتبرهم بريطانيا معتدلين الواعظ «عمرو خالد» الذي طُرِدَ ومنع في أكثر من موقع ومكان بأوامر عليا، لتكتشف

بريطانيا اعتداله ووسطيته، ورأت فيه جزءًا من الحل بعد أن رأت أطراف عربية أخرى أنه جزء من المشكلة، وهذه المفارقة هي التي تجعلنا ندعو الحكومات العربية إلى إعادة النظر في تصرفات بعضها ضد الحركة الإسلامية التي يسبب التضييق عليها ومحاربتها واعتقال قياداتها في حملات أمنية متلاحقة إلى تغذية الاعتقاد الخاطئ لدى القيادات المتطرفة إلى أن هذه الأنظمة كافرة لا ينفع معها سوى البتر والعنف.

رابعًا: فتح أبواب الحوار، ثم المزيد من الحوار حول هذه الظاهرة في مختلف وسائل الإعلام، مع ضرورة الانتقال من مرحلة التنظير العام الهلامي حول حرمة الدم المسلم ودم المعاهد والذمي إلى الدخول في التفاصيل الفقهية، وإسقاط كل الحجج والبراهين المزعومة والاجتهادات الخاطئة التي يبرر بها هؤلاء أعمال العنف التي يقومون بها، فالحل الأمني وحده لن يعجز فقط عن حل المشكلة، بل سيفاقمها وتتحول المشكلة من عقول تملؤها معلومات مغلوطة واجتهادات ينقصها الكثير من التوفيق وتحتاج إلى القليل من الجهد لإنقاضها، إلى مشكلة ثارات متبادلة بين الإرهابيين ورجال الأمن، وسننسى أصل المشكلة وندخل في دوامة عنف تضيع فيه البداية والنهاية وتتحول إلى حرب عبثية تفتح الباب واسعًا لتدخلات خارجية خبيثة بطابور خامس مندس بين المسلمين، وحاقدة على التجربة الإسلامية ويحلم بيوم الوأد لها، وساعتها ستنتبه هذه العقول المغرر بها أنها خدمت أعداء الأمة خدمة عظيمة وجليلة عجزت عنها كل التيارات الذليلة التي تدين بالولاء للفكر الغربي والتصور الغربي للمنطقة العربية.

إن فتح باب الحوار لن يكون مجديًا فقط لإعادة الوعي لبعض تلك العقول المبرمجة على القتل في سبيل الفكرة المسيطرة على عقولهم، بل سيكون مفيدًا أكثر لبعض المتعاطفين معهم لأسباب تتعلق بتردي الأوضاع العربية بشكل عام، والإرهاب الذي يتعرض له الشعب الفلسطيني، والاحتلال الأمريكي للعراق بشكل خاص، فهؤلاء الذين يتعاطفون مع أعمال الإرهاب يحتاجون إلى إعادة تنبيه

عقولهم إلى التفريق بين أسباب المشكلات القائمة من جهة وكيفية حل تلك المشكلات، ونجاح الحوار على الأقل في هدم جبهة المتعاطفين مع تيارات العنف، لا شك أنه سيحاصر تلك التيارات ويضعفها، بل ويجفف الكثير من منابع الإرهاب التي تغذيها وتأتي في الغالب من المتعاطفين معها، مع ضرورة ترك باب التوبة مفتوحًا وعدم إغلاقه أمام من اكتشف خطأ الطريق الذي يسلكه، لأن اليأس وحده كافٍ لاستمرار العنف، وإن من الحكمة ترك هذا الباب مفتوحًا دائمًا، لأن بعض العقول التي تأخذها غفلة التنظير الخاطئ، قد تنتبه وتعي أن ما يحدث من سفك للدماء قد بلغ مبلغًا لم يعد مقبولاً، وأن المنكر الذي يدّعون أنهم يعملون على إزالته قد أتى بمنكر أكبر منه وربما لو استمر الوضع على ما هو عليه فإنهم سيدركون بأنهم بدلاً من أن يكونوا سببًا في إخراج القوات الأجنبية من جزيرة العرب، سببًا رئيسيًا في بقاء القوات الأجنبية في جزيرة العرب.

خامسًا: يجب أن يعود للمؤسسة الدينية هيبتها، تلك الهيبة التي اهتزت بسبب بعض الفتاوى أو التصرفات الشخصية أو الآراء التي خرجت بنفس سياسي، كما يجب تخفيف نزعة القدسية المتبادلة بين المؤسسة الدينية والسلطة، فالتاريخ كان دائمًا يحدثنا عن التصادم الذي يحدث وبدرجات متفاوتة بين نظرية المؤسسة الدينية، وتطبيق السلطة لنظرية المؤسسة الدينية، وأن عدم حدوث التصادم ينبئ بوجود خلل في الغالب لدى المؤسسة الدينية، فإذا ما كانت دعوات الإصلاح قائمة وملحة، وغاب هذا النفس الإصلاحي عن المؤسسة الدينية، بل ووقفت من الإصلاح موقف المشكلة بنية وعقيدة المطالبين بالإصلاح، فإن الجماهير لن تعود تنظر إلى تلك المؤسسة الدينية بالهيبة والمكانة التي اعتادت أن تعطيها لها.

فإن أضفنا إلى ذلك متغيرات شديدة تجتاح المنطقة، وحالات من التفكك لمنظومة من الأفكار المقولية الجامدة لسنين طويلة لا يمكن أن تصمد أمام موجة حارة وسريعة نقلتها ثورة الإعلام هبطت فيها بآراء المؤسسة الدينية من مرحلة القداسة والعصمة، إلى مجرد الرأي القابل للنقض متى ما وجدت المدارس

الإسلامية المقابلة الطريق مفتوحًا لطرح حججها وأدلتها الموافقة أمام أصحاب الأفكار الجامدة والمشفرة على رأي المؤسسة الدينية.

ü ü ü

أمتنا بين الإنهاك والإرباك

مخطئ من يظن أن الولايات المتحدة لم تحقق نتائج إيجابية في حربها ضد الإرهاب، ذلك المصطلح الذي سيطر على سياسات الدول والعلاقات الدولية، ورغم أن العالم لم يعد أكثر أمنًا منذ أن أطلقت الولايات المتحدة عملية «الحرية الدائمة» انتقامًا لهجمات الحادي عشر من سبتمبر التي استهدفت نيويورك وواشنطن، إلا أننا يجب أن نلاحظ أنه ومنذ الحادي عشر من سبتمبر الأمريكي عام ٢٠٠١م وحتى الحادي عشر من سبتمبر الأردني عام ٢٠٠٥م، لم تقع عمليات إرهابية داخل الولايات المتحدة الأمريكية، أو تكررت لديهم غزوة «مانهاتن» كما أطلق عليها أسامة بن لادن، رغم أن وتيرة عمليات العنف قد امتدت من أدنى العالم إلى أقصاه، فطالت تلك العمليات مدريد ولندن والعديد من الدول الأوربية، وبالطبع المنطقة العربية والإسلامية وجنوب شرق آسيا، لكن الولايات المتحدة لم يصبها شيء من تلك العمليات خلال السنوات الأربع الماضية، مما جعل الرئيس الأمريكي فخورًا بأنه نقل المعركة إلى «أرض الأعداء».

* **بين مطرقة عنف القاعدة وسندان الإصلاح الأمريكي:**

«أرض الأعداء» تلك هي المشكلة التي يدفع ثمنها العالم العربي والإسلامي،بحيث تحولت المنطقة العربية والإسلامية إلى أرض مفتوحة للصراع بين تنظيم القاعدة الذي يسعى إلى تطبيق نظرية: «العنف الفوضوي» من أجل خلخلة الأنظمة والسلطات تمهيدًا لإسقاطها، وبين الولايات المتحدة التي لا تعجبها البيئة التي أنتجت تلك «العقول المتفجرة»، وتسعى لإصلاح المنطقة من خلال نظرية «التفكيك البناء» التي تسعى من خلالها لإعادة ترتيب أوضاع المنطقة من خلال قيم «العولمة» و«الحداثة» وبالطبع «المصالح الأمريكية الاستراتيجية في المنطقة».

خلاصة هذا الصراع: أن المنطقة العربية وقعت بين مطرقة «عنف» القاعدة وسندان «الإصلاح» الأمريكي، ولا زالت شعوب المنطقة تدفع ثمنًا باهظًا من دم

الأبرياء نتيجة المواجهات والأعمال العسكرية التي تتخذ من المناطق المدنية ساحة حرب لها.

وهكذا وبعد أن عجزت أمتنا عن التعامل مع سنن التدافع البشري، ولم تحسن استغلال بواكير سنوات الاستقلال الأولى في بناء دول حقيقية، وكان همّ معظم الأنظمة إدارة الصراعات السياسية الداخلية والخارجية لحفظ أمن هذه الأنظمة بالدرجة الأولى، كانت النتيجة أن أمتنا أصبحت خاصرة العالم الضعيفة وأرضًا لتصفية الحسابات ومنطقة مفضلة لاستعراض العنتريات واستيطان الخلافات للقوة العظمى.

هذه الحالة المرهقة التي تعيشها المنطقة العربية طبيعية بالنسبة لسياسة «اللاموقف» واللامبالاة التي اتخذها النظام العربي، والتي تم تدشين عهدها بامتياز في الغزو الغاشم الأرعن الذي قام به صدام حسين للكويت، فكان بداية انفكاك التصريح لجامعة الدول العربية، بعد أن كانت حالة التضامن العربي في حدودها الدنيا، وبعد أن فقدت الجامعة العربية فعاليتها، أصبحت الخطوة التالية بعد تفككها تفكيك الأنظمة العربية نظامًا بعد نظام اتباعًا لنظرية «التفكيك البناء» تلك النظرية التي لا يمكن تنفيذها قبل إثخان الأمة بالجراح، حتى تزداد ضعفًا على ضعف ولا يمكن لهذا الأمر أن يتم دون عمليتي الإنهاك والإرباك.

وقد تكفل تنظيم القاعدة بعملية الإنهاك عندما أدخل الأمة في مواجهات غير مستعدة لها ولا هي قادرة على دفع استحقاقها، كما اتخذ من الدول المستقرة بالتحديد مسرحًا للعديد من العمليات مثل المملكة العربية السعودية، لإدخال دول المنطقة المستقرة في لائحة الأنظمة والمناطق المتوترة تمهيدًا لقيام الولايات المتحدة بعمليات الإرباك التي لها وسائل لا تعد ولا تحصى في تنفيذها.

*** الإنهاك والإرباك سياسة قديمة:**

فسياسة الإنهاك والإرباك ليست بجديدة، وهي معروفة على مستوى العمليات الاستخباراتية، والتغيير السياسي يحتاج إلى عمليات سرية وخاصة تمهد له عبر إنهاك

النظام أو الدولة تمهيدًا لإدخال الدول في نظام الإرباك الذي يمهد للفوضى، التي تتطلب تغييرًا ضروريًا لإنهاء مثل حالات التوتر والفوضى التي نشأت بسبب نجاح سياسة الإنهاك والإرباك.

وهذا المنهج من الإنهاك والإرباك قديم جدًا، وقد مارسه يهود المدينة المنورة لإنهاك وإرباك الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة المنورة، ولم يمنعهم من ذلك المعاهدة التي وقعوها مع الأمة المسلمة لحفظ الأمن في المدينة وتحديد علاقات مختلف الأطراف في المجتمع المدني، وهي حالة قريبة من المجتمع الدولي اليوم، حيث تغص قاعات الأمم المتحدة بالوثائق التي تدين العدوان والتدخل في الشئون الداخلية للدول، لكن ممارسات القوى العظمى شيء مختلف تمامًا عما هو مكتوب في تلك المعاهدات والوثائق.

ومن محاولات الإرباك التي حاول اليهود القيام بها في بدايات نشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة قصة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة؛ فقد روى أبو إسحاق عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وقد كان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [1].

فحادثة تحويل القبلة كانت فرصة لأهل الإرجاف أن يمارسوا الإرباك في الصف المسلم، فقال كفار قريش: «قد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دينكم. وقالت اليهود: قد التبس عليه أمره وتحير. وقال المنافقون: ما ولاهم (صرفهم) عن قبلتهم بل وزادوا محاولات الإرباك عندما قالوا: إذا كان بيت المقدس هو القبلة الصحيحة، فلماذا تحولوا إلى مكة؟! فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(١) البقرة: ١٤٤.

لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [(١)]، فكانت تلك الآيات الكريمات وأدًا للفتنة وقطعًا للطريق أمام سياسة الإرباك التي يقودها المنافقون واليهود، بل زاد الله سبحانه وتعالى عن ذلك فوصف هؤلاء بالسفهاء، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [(٢)].

وزاد الله ـ سبحانه وتعالى ـ إيضاح المسألة للأمة المسلمة فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾[(٣)]، وبيّن ـ سبحانه ـ سبب هذا الأمر الإل هي فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [(٤)]، فالأمة الإسلامية أمة الوسطية، والكعبة وسط الأرض، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [(٥)].

فالبيان القرآني كان شافيًا في الرد على فرقة الإرباك من اليهود والمنافقين، بل لقد قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وإنك تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟! ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك «إنما يريدون فتنته عن دينه»[(٦)].

وهكذا فشل مسعى الإرباك ورد الله كيدهم إلى نحرهم، ولكنهم كعادتهم لا يتركون فرصة إلا واستغلوها لإرباك الدولة الإسلامية، سواء بالتعاون مع أعدائها أو بإثارة الشبهات حول منهجها وحتى بالتحريض بين رجالها، وقد حاولوا مرارًا إدخال المسلمين في حرب أهلية من خلال إثارة النعرات العرقية بعد أن فشلوا في طعن المنهج الرباني الذي تتبناه الدولة المسلمة.

---

(١)البقرة: ١٤٣.
(٢)البقرة: ١٤٢.
(٣)البقرة: ١٤٢.
(٤)البقرة: ١٤٣.
(٥)البقرة: ١٤٣.
(٦)أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨٦)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢/ ٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٥٧٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال ابن إسحاق: مرّ شاس بن قيس ـ وكان شيخًا (يهوديًا) قد عسا[١]، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد التحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابًا من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان من قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة ـ يُبدي الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم ـ وغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة: الحرة ـ السلاح السلاح، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين، اللهَّ اللهَّ، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم».

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس»[٢].

*** من وسائل الإرباك والإنهاك:**

مع وجود أعداد مهولة من مراكز الأبحاث والمعلومات والدراسات في

---

(١) عسا: كبر سنه.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٢٣) عن زيد بن أسلم رضي الله عنه مرسلاً.

الولايات المتحدة التي تمارس عملها بمهنية عالية وبإمكانات مرعبة، لن تجد الإدارة الأمريكية أدنى عناء في إيجاد وسائل إرباك وإنهاك تقود المنطقة إلى التغيير نحو الأهداف الأمريكية، وخصوصًا أن المنطقة تحمل من الأسباب الذاتية الشيء الكثير الذي يقود بسهولة للتغيير، خاصة في ظل نظام إقليمي عربي متدهور، وأنظمة عربية لا تسير مع إيقاع العصر، ولا تقرأ الحاضر إلا بلغة الخمسينات والستينات من القرن الماضي عندما قفزت على السلطة واعتبرت معطيات تلك الفترة هي التي ستجعلها في مأمن من رياح التغيير.

ونحن لا نجد صعوبة في قراءة الوسائل التي تستخدمها الإدارة الأمريكية لإحداث حالة الإرباك والإنهاك في الأمة تمهيدًا للتغيير أو «التفكك البناء» وإن لم تكن تلك القراءة معتمدة على ما صدر وما يتم تداوله في مراكز الأبحاث والدراسات فمن الواقع السياسي للمنطقة وما يحدث فيها من أحداث مثيرة وفجائية.

وما يهمنا هنا ليس حصر تلك الوسائل، فهذا يطول ويطول، ولكن يهمنا تثبيت فكرة الإرباك والإنهاك التي تقوم بها الإدارة الأمريكية في المنطقة العربية، ولا نجد دليلاً واضحًا على هذه السياسة مثل تعامل الولايات المتحدة مع الشأن العراقي؛ حيث مارست الولايات المتحدة الإنهاك من خلال الحصار الذي استمر أكثر من ثلاثة عشر عامًا، ثم حصدت بعد ذلك هذا الإنهاك بالإرباك الذي أدى إلى التغيير، حيث ذهب النظام المقبور غير مأسوف عليه، ولعل اختيار العراق ليكون ساحة التغيير الأولى مرجعه الرفض الإقليمي لهذا النظام الدموي العدواني الذي ذهب غير مأسوف عليه.

ولكن الولايات المتحدة بسبب نجاحها في إسقاط النظام وفشلها في إقامة البديل المستقر، وبسبب تلك المواجهات المستمرة بينها وبين تنظيم القاعدة الذي تحول من أفغانستان إلى العراق، فإن كثيرًا من قوى المعارضة القومية والوطنية والإسلامية قد قررت تجميد أزماتها مع أنظمتها التي تحكمها، ليس حبًا في هذه الأنظمة الهالكة،

ولكن لأن الصورة التي قدمتها الولايات المتحدة في العراق كبديل للأنظمة القائمة صورة مفرغة ولا تشجع على قبول التغيير مهما كانت الأنظمة الحالية رديئة وسيئة، لأن لا أحد يريد لوطنه أن يصبح ساحة حرب بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين تنظيم القاعدة.

فالتغيير الذي يأتي بقوة السلاح، دون وجود تصور واضح لطبيعة المنطقة وتاريخها وحضارتها، مع الاستهانة بالقوة المحلية الموجودة وتهميش بعض القوى والطوائف لحساب قوى وطوائف وعرقيات محددة، سينتج عنه بالضرورة وضعًا بائسًا ومزريًا شبيهًا بالوضع العراقي القائم والذي يدفع ثمنه شعب العراق، وبالتحديد نساؤه وأطفاله وشيوخه، ومن ليس لهم حزب أو قوى أو طائفة تدافع عن حقوقهم أو كيانهم.

إننا لا يمكن حصر وسائل الإرباك والإنهاك التي تمارسها الولايات المتحدة ضد دول المنطقة، وتخيلوا كيف سيكون الوضع الإقليمي في منطقة يقترح فيها الأمريكان اقتطاع جزء من دولة كبيرة وإعطاءه لدولة صغيرة مجاورة، وكيف يمكن أن يؤدي مثل هذا الاقتراح إلى توتير وإرباك العلاقة بين الدولتين وتشنج العلاقات القائمة على حسن الجوار والتعاون مما ينشئ حالة من الإرباك السياسي والإنهاك الناشئ عن الأزمة الدبلوماسية الصامتة بين الدولتين.

الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا حريصة ليس فقط على تفكيك وبناء أنظمة الدول القائمة، بل يمتد هذا التفكيك ليشمل قوى المعارضة؛ للانفراد والغطرسة الأمريكية في المنطقة، وفي مقدمتها القوى الإسلامية؛ حيث تسعى الولايات المتحدة إلى تحقيق اختراق لتلك التيارات وقد وجدت ضالتها في ثلاثة تيارات ضمن الحالة الإسلامية القائمة.

التيار الأول: هو تيار العنف المسلح والمتمثل بشكل أساسي في تنظيم القاعدة، وهو تيار يعاني من إشكالية التعامل مع النص الشرعي، حيث يعتمد على المتشابهات ويدع المحكمات، ويستند إلى الجزئيات ويهمل الكليات، ويتمسك بالظواهر ويغفل

المقاصد، كما أن حسن نواياهم إن توفرت لا تبرر هذه الأعمال الطائشة التي طالت حتى الأطفال في صالات الأفراح.

التيار الثاني: هو الذي يحاول علمنة الإسلام، فهو تيار إسلامي بوجه علماني، وأبرز الجهود التي بذلتها الولايات المتحدة للترويج لهذا التيار كانت بدعمها وتسليط أضواء الإعلام على نكتة إمامة المرأة للرجال في الصلاة، ولكنها كانت محاولة فجة ومضحكة لأنها أشبه بالترجمة الحرفية للنسخة الكنيسية، وإن كان هذا لا ينفي وجود رموز في المنطقة تسعى لاعتلاء عرش هذا التيار لمصالح وأمور أخرى لا تخفى.

أما التيار الثالث: فهو التيار المنعزل السلبي، وهو تيار التصوف الذي بدأ ينتعش أخيرًا في المنطقة ويجد له سوقًا ومريدين، وهو تيار يرى في خطر «السلفية» و«الوهابية» أكثر مما يرى من خطر في القوة الغربية الدخيلة على المنطقة.

ومن وسائل الإنهاك والإرباك الأخرى، وهي وسائل مشهورة سبق التطرق إليها ولا حاجة للحديث عنها: التضليل الإعلامي واصطناع المناخ المناسب للتغيير، وإثارة حقوق المرأة والأقليات، وتسخير المفكرين والأقلام لترويج الإرباك والإنهاك والتعدي على الثوابت، وزرع هيبة الغرب في النفوس لتحقيق الاستعمار النفسي تمهيدًا للاستعمار السياسي وافتعال الأزمات والمشاكل وإثارة الرعب والفوضى، وبالطبع علمنة الأسرة، واستغلال الأحداث واستثمارها كما حدث في الملف اللبناني السوري، الذي أنهى مرحلة الإنهاك ودخل مرحلة الإرباك، في سيناريو شبيه بالحدث العراقي.

*** تقارير حقوق الإنسان الواقع الأليم:**

وقبل أن ننهي حديثنا في هذا الشأن لا بد من الإشارة إلى التقارير التي تصدرها الولايات المتحدة في مجال حقوق الإنسان؛ فقد صدر التقرير السنوي السابع حول انتهاك الحريات الدينية في العالم، حيث يتحول هذا التقرير سيفًا مسلطًا على دول وأنظمة العالم، وأوراقًا ووثائق في حقائب الدبلوماسيين الأمريكيين الذين يجوبون

العالم بحثًا عمن يحتاج إلى تأديب.

طبعًا يمكن إثارة ثلاث ملاحظات على التقرير الأمريكي، تسلبه كثيرًا من مصداقيته، إن لم يكن على مستوى المضمون فعلى الأقل على مستوى الأهداف والنوايا المبيتة التي تقف خلفه.

أولى تلك الملاحظات: أن التقرير صادر عن دولة عضو في الأمم المتحدة وليس عن الأمم المتحدة نفسها، وعلى الرغم من أن الأمم المتحدة تحوي تكتلات وقوى ضغط قادرة على إصدار تقارير باتجاهات محددة وهويات تميل إلى فرض أسلوب الحياة الغربي مثل مؤتمر المرأة ومؤتمر السكان، فإن الولايات المتحدة تجعل من تقاريرها برامج عمل لبعثاتها الدبلوماسية، وتأخذ إجراءات رقابية وعقابية تجاه الدول التي تعتبرها مارقة، وهكذا أصبحت الولايات المتحدة هي الوصية على المجتمع الدولي، وتحولت الأمم المتحدة أداة بيدها وهذا يفرغها من معنى وجودها.

الملاحظة الثانية: أن الولايات المتحدة تفتقد المسوغ الشرعي لإصدار مثل هذه التقارير، إن لم يكن بسبب ممارساتها التي كشفتها وسائل الإعلام أخيرًا وخاصة السجون التي تتبع المخابرات الأمريكية في أكثر من دولة، فبسبب الأوضاع المأساوية والمزرية التي يعيشها معتقلو جوانتانامو، وإن لم يكن بسبب هذا المعتقل الذي أصبح وصمة عار في جبين الحضارة الأمريكية، فبسبب أوضاع حقوق الإنسان نفسها داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

فمنظمة العفو الدولية قد أشارت إلى أن ١٨ ٪ من عمليات الإعدام في العالم عام ٢٠٠٢م قد تمت في ثلاث دول من بينها الولايات المتحدة الأمريكية، كما تشير بعض التقارير والإحصاءات إلى أن احتمال تعرض النسوة السود في الولايات المتحدة لدخول السجن تفوق بكثير نظيراتهن البيض، ويفصل في كل أسبوع حوالي ٨٨ طفلاً من المدارس الأمريكية لحيازتهم أسلحة نارية في الصف، ناهيك عن الازدواجية في التعامل مع الدول، ففي حين يعتبر إعدام المجرمين في بعض الدول انتهاكًا لحقوق الإنسان وسلبًا لحق الحياة، يصبح في إسرائيل «دفاعًا عن الذات»

عندما تقوم باغتيال الفلسطينيين من الجو وعبر الطائرات الأمريكية الصنع.

الملاحظة الثالثة والأخيرة: أن الولايات المتحدة لا تضع في اعتبارها «الخصوصيات والهوية المتعلقة بالدول والشعوب» عند إصدار تلك التقارير، بل تستند في وضع تلك التقارير إلى معايير الحضارة الغربية وتعتبرها معايير وقيمًا نهائية غير قابلة للنقض، وبمثل هذا المفهوم يصبح الحجاب مثلاً «سجنًا للمرأة» والحفاظ على عفة المجتمع «سلبًا للحق الجنسي»، وتصويت المرأة في الانتخابات قضية مصيرية يتحدد على ضوئها تقدم وتخلف الدولة في ميدان حقوق الإنسان.

ü ü ü

الانتخابات المصرية دروس وعبر

لا نعلم ما إذا كانت «الصدمة» من نجاح كل هذه الأعداد من مرشحي الإخوان المسلمين في الانتخابات المصرية الأخيرة صدمة حقيقية، أم صدمة مفتعلة؟ ولا نعلم ما إذا كان تضخيم هذا النجاح يحمل من بين معانيه التحريض على الحركة التي بدأت أخيرًا تشاهد ضوءًا في آخر نفق الكبت والحرمان السياسي؟

والراصد للأيام القليلة الماضية لردود الأفعال الدولية والمحلية والإقليمية لا يجد صعوبة في تلمس «الإثارة» الناتجة عن الانتعاش السياسي للإخوان في مصر، وما يحمله هذا الانتعاش من قراءات مختلفة ما بين الترحيب والتحذير والتحفظ.

فهناك من اعتبر فوز مرشحي الحركة وفي ظل التجاوزات التي حدثت إنما يمثل انتصارًا كاسحًا للحركة واستفتاءً حقيقيًا على شعبيتها برغم عقود التجريم والمنع والحرمان، وبعد سنوات طويلة من الضربات الاستباقية والإجهاضية المستمرة والمتكررة التي لم تستطع أن تحول دون امتداد المدرسة الإسلامية والفكر الذي تبناه الإخوان في مختلف مستويات النخب الاجتماعية في مصر.

ويعتمد هذا الاتجاه في تحليله على مجموعة من المعطيات والعوامل:

أولها: الأرقام غير المسبوقة التي وصلت إلى البرلمان من مرشحي التيار، الأمر الذي دعا البعض إلى اعتبار المجلس القادم «أقوى من كل ما عرفته مصر من مجالس نيابية منذ قامت الثورة في عام ١٩٥٢م» [(١)].

ثاني هذه العوامل: أن الإخوان لم يكونوا حريصين على استفزاز السلطة في اسقرار سياسي فكري لمعرفة «حدود اللعبة المتاحة» ولذلك رفعوا شعار «المشاركة لا المغالبة» وقد استطاعوا أن يحققوا النصر في ٥٦ ٪ من عدد الدوائر التي نافسوا فيها، فتصوروا مثلاً لو أن الانتخابات جرت في ظروف أحسن وتجاوزات أقل، فربما كان من الممكن أن تصل النسبة مثلاً إلى ٥٧ ٪ أو ٠٨ ٪ فتخيلوا لو حصل

---

(١)مقال «قبل أن يصبح الحل هو الحل»: فهمي هويدي، الوطن ٦/ ٢/ ٢٠٠٥م.

الإخوان على هذه النسبة، ولم يكتفوا فقط بمئة وخمسين مرشحًا وقدموا للانتخابات ٤٤٤ مرشحًا، فماذا ستكون النتيجة!!

العامل الثالث: هو أن الحركة قد حققت هذا النصر في ظل تغييب الشرعية عنها، وهو إنجاز كبير مقارنة بالأحزاب والتجمعات السياسية المصرية الأخرى التي تحظى بالشرعية ويغيب عنها القبول الجماهيري والقواعد الشعبية.

الفريق الآخر يشترك مع الفريق الأول في اعتبار ما حققه الإخوان انتصارًا واضحًا لا لبس فيه، ولكن هذا الفريق لا يذهب إلى المبالغة في توصيف هذا الانتصار، ولا إلى المبالغة فيما ينبني على هذه النتائج سواء في البرلمان أو في الحياة السياسية المصرية، ويذهب هذا الفريق إلى اعتبار ما حدث نتيجة متوقعة لا ينبني عليها ما أُثير من مخاوف وتحذيرات؛ وذلك لأنَّ الانتصار الذي حققته الحركة الإسلامية في مصر انتصار طبيعي، وكل المؤشرات تدل على هذا الاتجاه:

المؤشر الأول: في الانتخابات السابقة كانت الحركة تجد في الأحزاب المصرية وسيلة قانونية لخوض الانتخابات، والأحزاب المصرية تجد في الحركة القواعد الشعبية التي تحتاجها، وهكذا كان في انتخابات عام ١٩٨٤م عندما تحالفوا مع حزب الوفد وحصلوا على (٧) مقاعد،وعندما تحالفوا مع حزب العمل عام (١٩٨٧) وحصلوا على ٣٦ مقعدًا.

لكن الانتخابات الأخيرة شهدت رفض بعض التجمعات الحزبية انضمام الإخوان لهم بناء على أنهم تيار ديني وليس حزبيًا، وكانت النتيجة تفوقًا واضحًا للإخوان، وفي المقابل انتكاسة حقيقية لكثير من الأحزاب المصرية وخاصة اليسارية والقومية والراديكالية.

المؤشر الثاني: ما حدث من حراك سياسي قبيل الانتخابات، ابتداءً من الانتخابات الرئاسية: «وإن كان هناك من تميز في أداء قوى رئيسية في مصر على خلفية الاستحقاق الرئاسي، فهو بدون شك يرتبط بجماعة الإخوان المسلمين والحركات الاجتماعية مثل كفاية وغيرها من التجمعات الجديدة المطالبة

بالإصلاح، وقد أظهر الإخوان نضجًا سياسيًا واضحًا بتفاعلهم مع حركة الشارع المطالب بالإصلاح . . وبدعوتهم الناخبين للمشاركة بالانتخابات في بيانهم المعلن يوم ٢١ أغسطس ٢٠٠٥م على نحو أقنع العديد باحترامهم لقواعد اللعبة السياسية الشرعية وتثمينهم لإجراءات المشاركة الشعبية حتى ولو جاءت قاصرة بل واعتبرهم حركة لها وجود فعلي»[١].

«أما كفاية وأخواتها فهم تعبير عن تجديد وحيوية غير مسبوقة في الساحة المصرية، فتأسيس كفاية وأقرانها يعبر بجلاء عن محاولة واعية لتخطي حواجز حياة سياسية همشت قطاعات واسعة من المجتمع، وميزها خلال الأشهر القليلة الماضية ابتكار أساليب مستحدثة للوصول للمواطن العازف عن المشاركة والاهتمام بالشأن العام على نحو يوظف حالة الاستياء الشعبي لبلورة روح معارضة تعيد اكتشاف السياسة، وتذكر نخبة الحكم وأحزاب المعارضة بأن هناك من يتابع أفعالها» [٢].

المؤشر الثالث: الذي صب في خروج هذه النتيجة هي المتابعة الدولية للإصلاحات في الشرق الأوسط، فقد: « ركزت الكثير من التعليقات التي وردت في الصحف الأمريكية عن الانتخابات الرئاسية التي أُجريت في السابع من سبتمبر (الماضي) على النقاط السلبية التي فشلت الانتخابات بسببها في الارتقاء إلى المقاييس المقبولة للسباق الديمقراطي الحقيقي» [٣].

هذا الرصد الدولي يجعل الحكومة المصرية أكثر حرصًا على إجراء انتخابات لا تكون محل انتقاد قدر الإمكان، خاصة وأن البيت الأبيض اعتبر ما جرى في الانتخابات الرئاسية غير كافٍ، وأنه وحسب البيان الذي أصدره تعتبر ما حدث «خطوة نحو إجراء انتخابات حرة وتنافسية وتعددية» وهو ما يكشف أن واشنطن

---

(١)مقال «المعارضة المصرية ودلالات الاستحقاق الرئاسي»: د. عمرو حمزاوي، مجلة الديمقراطية، عدد ٢٠، أكتوبر ٢٠٠٥م، ص ٧٢.

(٢)المرجع السابق، ص ٧٤.

(٣)مقال «أمريكا ترى الانتخابات الرئاسية في مصر»: ميشيل دون، دورية الديمقراطية، العدد ٢٠، أكتوبر ٢٠٠٥م، ص ٧٧.

لا تعتقد أن الانتخابات قد ارتفعت إلى تلك المعايير المذكورة. وأعرب البيان الأمريكي عن ضرورة تصحيح الأخطاء الواضحة في انتخابات السابع من سبتمبر وتلافي تكرارها في الانتخابات البرلمانية المقبلة: «ورغم أن تلك البيانات المغلفة بكلمات لطيفة ومهذبة، لم تخلق جدلاً أو تثير حفيظة أحد في مصر، إلاَّ أنه لا شك أن الحكومة المصرية قد تلقت الرسالة واضحة»[١].

المؤشر الرابع: على هذه النتيجة سبب ذاتي مرتبط بحركة الإخوان المسلمين المصرية بالذات، فنتائج الانتخابات حصاد طبيعي: «ونتيجة منطقية لعلاقة تراكمت من خلال نفوذ وشعبية الحركة داخل المجتمع المدني، سواء في الاتحادات الطلابية، ونوادي أعضاء هيئة التدريس أو النقابات المهنية، ولم تقتصر العلاقة التي تراكمت على الحميمية الأيدلوجية: «الإسلام هو الحل» فحسب وإنما على حجم ونوعية الخدمات التي قدمتها كوادر الحركة للطلبة وأساتذة الجامعات وأعضاء النقابات.

فصعود الإخوان إذًا ليس ظاهرة فجائية، وإنما هي عملية ظلت تتطور داخل نسيج المجتمع المصري منذ عقود، ظهرت آثارها أخيرًا على الساحة السياسية وفي صناديق الاقتراع»[٢]، فالإخوان «ركزوا عملهم على الأحياء الفقيرة المحتاجة؛ حيث افتتحوا العيادات الطبية والمدارس مجانا للفقراء، كما فتحوا دور العبادة وأندية الرعاية الاجتماعية وغيرها، كما أن لديهم مشاريع وورش عمل، ومصانع يوظفون فيها أبناء الطبقات المسحوقة؛ مما جعل الناس تلتف حولهم وتدعمهم وتصوت لهم»[٣].

إذًا حركة الإخوان استفادت من الحراك السياسي لحركة كفاية ولم تعتبرها منافسًا لها كما اعتبرتها بقية الأحزاب المصرية ونظرت لها نظرة شك وارتياب، فالحركة

---

(١)مقال «أمريكا ترى الانتخابات الرئاسية في مصر»: ميشيل دون، ص ٧٨.

(٢)كيف نفهم صعود الإخوان: د. هشام العوضي، القبس ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٥م.

(٣)ماذا يعني فوز الإخوان المسلمين؟ د. شملان العيسى، السياسة ٥/ ١٢/ ٢٠٠٥م.

وبسبب الحجب السياسي وجدت في حركة كفاية منفذًا للإطلال على المشهد السياسي المصري.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ساهمت الشمولية التي تؤمن بها الحركة على الاندماج في المجتمع المصري، فهي: «دعوة سلفية، وطريقة سنية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية»(١)، وهذه الشمولية تفتقدها الأحزاب المصرية، فهي أحزاب في الدرجة الأولى، تعمل وسط النخبة المثقفة، وهذا جعل احتكاكها بالجماهير يتضاءل وينقرض، خاصة في ظل الخطاب التقليدي القديم الذي تتبناه، وموقف الكثير منها السلبي تجاه حركة كفاية، مما جعلها في نظر الناخب المصري جزءًا من ديكور النظام السياسي القائم، والذي يحتاج إلى هدم وإعادة بناء.

هذا الفريق الذي يعتبر نتيجة الانتخابات حصادًا طبيعيًا للمعطيات الدولية والواقع السياسي المصري، أيضًا يلفت الانتباه إلى أن هذه الضجة المفتعلة حول فوز الإخوان يجب ألا تشغلنا عن ثلاث حقائق:

الأولى: أن المقاعد التي حصل عليها الإخوان لا زالت دون ثلث المقاعد بكثير.

الثاني: أن مجلس الشعب محدود التأثير حيث لا يملك ـ طبقًا للدستور المصري ـ صلاحية سحب الثقة من الوزير، أو إحداث أي تغيير في بنود الميزانية.

الثالث: وهي حقيقة مهمة أن ٧٦٪ من الناخبين غابوا عن عملية التصويت كانوا ربع الشعب المصري ممن له حق التصويت والمشاركة في العملية الانتخابية.

*** ردود الفعل:**

بناء على المعطيات السابقة، تفاوتت ردود الفعل في الشارع المصري بين المعتدل والمتطرف والمستفز، فقد كتب «د. عبد العاطي» في الأهرام عن «فاعلية نواب الجماعة» حيث: «من المتوقع أن تكون أكثر قوة من السابق لأنهم ليسوا في حاجة إلى

---

(١) رسائل الإمام حسن البنا: رسالة المؤتمر الخامس، ص ١٧٤ (بتصرف).

التحالف مع حزب بعينه، فضلاً عن أن مقاعد أحزاب المعارضة المدنية محدودة للغاية»[١] مما دعا دكتور «عبد المنعم سعيد» في نفس العدد إلى ضرورة الانتباه إلى البرنامج الانتخابي الفعلي للإخوان الذي عرضوه على الناخبين: «وهو البرنامج الذي مع الأسف لم يلق ما يستحق من اهتمام».

أما ردود الأفعال المتطرفة فقد حذر منها الكاتب «فهمي هويدي» في مقال الوطن؛ حيث نبه على أن: «مشكلتنا ستكون أكبر لو أن ميليشيات البلطجة اختفت من الشوارع، في حين استمر نظراؤهم في ممارسة الدور عبر وسائل الإعلام»[٢].

وقد وجدنا هذا التطرف في غلاف مجلة روز اليوسف المصرية؛ حيث وصفت وصول الإخوان للبرلمان بعنوان مثير: «القاعدة في البرلمان»[٣] وهو تجنٍّ كبير على الحركة لما يعلمه المتخصصون في الحركات الإسلامية من الفارق الشاسع بين المدرسة الإخوانية ومدرسة القاعدة من حيث الأيدولوجية والتنظير الفكري والثقافي، وقد حاولت روز اليوسف صبغ الحركة بفكر القاعدة التكفيري عندما كتب «عبد الله كمال» في نفس العدد ما نصه: «تم شحن القواعد الإخوانية» نفسيًا ومعنويًا على أنهم يخوضون صراعًا ضد «حكومة ظالمة ونظام كافر»!! وقد كتب المقال مع صورة لأسامة بن لادن لصيقة بصور المرشد ومحمد حبيب وعصام العريان!!

هذا السلوك الإعلامي المتطرف حذر منه «د. عبد المنعم سعيد» عندما انتقد التلفزيون المصري الذي: «قام بحشد جامع لكل الناقدين - عن حق - للإخوان المسلمين، ولكن دون حضور لأي من ممثليهم، ففقد النقد مصداقيته»[٤].

هذا التهويل من جانب وسائل الإعلام الرسمية وشبه الرسمية، إنما هو رسالة

---

(١)الأهرام العربي، عدد ٤٥٤، ٣/ ١٢/ ٢٠٠٥م.

(٢)مقال «قبل أن يصبح الحل هو الحل»: الوطن، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٥م.

(٣)روز اليوسف، العدد ٤٠٤٣.

(٤)مقال «لو حكم الإخوان المسلمون مصر»: الأهرام العربي، العدد ٤٥٤، ٣/ ١٢/ ٢٠٠٥م.

من الحكومة المصرية إلى الولايات المتحدة إلى خطورة «البديل» المتوفر حاليًا، «وحاليًا ينبغي التمسك بخشبة الخلاص هذه كسد أمام الحكم الإسلامي» كما كتب عبد الله إسكندر في جريدة الحياة»[١].

* **الموقف الأمريكي:**

الموقف الأمريكي المتشكك أساسًا من الحركات الإسلامية ربما سيزداد تشككًا بعد هذه النتائج التي عززت التشدد الإسلامي في المنطقة كما تعتقد واشنطن التي كانت «تتمنى لو أن التيار الليبرالي كان لديه نفس الحظوظ التي يتمتع بها الإخوان في الشارع المصري» كما يقول موقع «تقرير واشنطن الإلكتروني» هذا الارتياب الأمريكي يقودنا مجددًا إلى نظرية «دانيل بايبس» والتي تتحدث عن ضرورة «هدم الهويات قبل بناء الديمقراطيات»، وذلك من خلال هدم الهوية الإسلامية وإضعاف التيارات الإسلامية في المنطقة قبل السماح ببناء الديمقراطيات حتى لا يستغلها الإسلاميون ويقفزون على السلطة.

الإدارة الأمريكية اتخذت موقفًا وسطًا، فهي لم تشعر بالارتياح إزاء ما تردد من أعمال عنف وتدخل قوات الأمن المصري لمنع الناخبين من الإدلاء بأصواتهم، وهي في نفس الوقت تحفظت لصعود الإخوان باعتبارها تتبنى مشروعًا لتغيير وجه الشرق الأوسط وتعزيز الديمقراطية.

جماعة الإخوان المسلمين من جهتها سعت لطمأنة مخاوف الغرب، ونفت أسباب تلك المخاوف وهذا الموقف للجماعة ليس بجديد،فقد سبق للمرشد الأول الإمام حسن البنا أن تحدث عن العلاقة مع الغرب تحت عنوان: «الإسلام لا يعكر صفو العلائق بيننا وبين الغرب» وقد كان الإمام دقيقًا في توصيف المواقف والنوايا فقال: «قد يظن الناس أن نظم الإسلام في حياتنا الجديدة، تباعد بيننا وبين الدول الغربية، ويعكر صفو العلائق السياسية بيننا وبينها بعد أن كادت تستقر، وهو أيضًا ظن

(١) مصر ـ الثنائية والطرف الثالث: الحياة، ٤/ ١٢/ ٢٠٠٥م.

عريق في الوهم، فإنَّ هذه الدول إن كانت تسيء بنا الظنون فهي لا ترضى عنا سواء تبعنا الإسلام أم غيره، وإن كانت قد صادقتنا بإخلاص وتبلورت الثقة بينها وبيننا فقد صرَّح خطباؤها وساستها أن كل دولة حرة في النظام الذي تسلكه في داخل أرضها، ما دام لا يمس حقوق الآخرين، فعلى ساسة هذه الدول جميعًا أن يفهموا أن شرف الإسلام الدولي هو أقدس شرف عرفه التاريخ، وأنَّ القواعد التي وضعها الإسلام الدولي لصيانة هذا الشرف وحفظه، أرسخ القواعد وأثبتها»[1].

* **درس للأنظمة:**

هذا الدرس تقدمه (مادلين أولبرايت) وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة، عندما اعتبرت أن أنجع وسيلة لانحسار التطرف في الشرق الأوسط، هو السماح للمعارضة الإسلامية غير العنيفة بالمشاركة في الحياة السياسية، وهذا الدرس المفترض أن تستوعبه جميع الأنظمة التي حاربت الإسلاميين، وخاصة التيارات المعتدلة، فقد دمرت بتوجهها هذا ـ وبشكل منظم ـ فعاليات المجتمع المدني، ولو لاحظنا الحياة السياسية في الدول العربية التي مارست القهر السياسي تجاه الحركة الإسلامية، لوجدنا خمولاً سياسيًا وتراجعًا عن الحريات والحقوق السياسية بشكل يجعلها مرشحة أكثر من غيرها؛ لتكون على جدول الإصلاح السياسي الذي تنادي به الولايات المتحدة الأمريكية.

إنَّ العقلاء وحدهم يدركون أن حجب هامش الحرية عن الحركة الإسلامية أو أي تيار آخر، يحظى بالشعبية والقبول، إنَّما هو دعوة لأنْ تتنفس الأحزمة الناسفة بعد أن منعت العقول من تنفس الهواء الطبيعي والتفاعل السياسي المثمر والبنَّاء.

وقد وضَّح الإمام البنا، أن الثورة ليست من نهج الإخوان، وإن كان الكبت والقهر السياسي هو الذي سيجعل الناس والأحزمة الناسفة تنفجر، فقال: «أمَّا الثورة، فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها

---

(١) رسائل الإمام حسن البنا: رسالة نحو النور، ص ٨٤.

ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال، ولم يفكر أولو الأمر في إصلاح عاجل وعلاج سريع لهذه المشاكل، سيؤدي ذلك حتمًا إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال، وإهمال مرافق الإصلاح»[1].

ولذلك، من يريد أن يضع استراتيجية للدولة لمكافحة التطرف، فعليه أن يسعى لتطويق الانفجار الموجود داخل النفس البشرية؛ نتيجة القهر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفساد والمحسوبية، لا أن يسعى عبر تلك الاستراتيجية إلى تصوير المجتمع كحالة مثالية ملائكية إرضاءً للسلطة، ورمي كل التُّهَم والشناعات على الحالات المتطرفة، وسلب تلك الحالات الأسباب الحقيقية للتطرف، والتستر بأسباب واهية محصورة فقط في الإعلام والتعليم والمناهج والبيئات القابلة للتطرف.

لقد أحسنت الدول الأوربية في التعامل مع الأقليات المسلمة ولم تأخذ البريء بجريرة المذنب في أحداث كثيرة؛ فنجحت في امتصاص تلك الأحداث إلى حدٍّ كبير، وهذا ما نجحت فيه كذلك المملكة العربية السعودية والكويت والأردن إلى حدٍّ كبير، فيما فشلت فيه دول أخرى كسوريا وتونس عندما تبنت الحل الاستئصالي، فشرَّدت عشرات الآلاف، وراح ضحية هذا الحلّ عشرات الألوف من الأبرياء والنساء والأطفال، فحصل الفراق الذي لا عودة فيه، ودفع المجتمع المدني الثمن غاليًا ولا يزال.

*** دروس للحركة الإسلامية:**

والحركة الإسلامية في الخليج، مدعوَّة للتأمّل في تجربة الحركة الإسلامية في مصر، فمن المؤشرات القوية على اهتمام الحركة الإسلامية في مصر بالحسّ الدعوي والروح الدعوية، هذه النتائج الانتخابية، فحرص الحركة الإسلامية في مصر على

(١)رسائل الإمام حسن البنا: رسالة المؤتمر الخامس، ص ١٩٠.

الدعوة إلى الله في وسط ظروف صعبة وملاحقة أمنية، تعكس الأصالة في البناء الفكري والتربوي، حيث لم يتعرَّض هذا الجانب للإهمال بحجة الحجب السياسي والملاحقات الأمنية، وهو درس كبير للعديد من الحركات الإسلامية.

فالحركة الإسلامية في مصر، لا تملك الإمكانات المادية التي تملكها الحركة الإسلامية في الخليج، كما لا تملك وجودًا قانونيًا وشرعيًا معترفًا به كما هو في الخليج أو الأردن، وهي عرضة للملاحقة والاعتقال والمطاردة، سواء القواعد أو الرموز، ورغم ذلك فإن نتائج الحركة الإسلامية في مصر في أول محك للتعبير ولو في حده الأدنى عن توجهات الشعب المصري، كانت هذه النتيجة الباهرة، فأولى بالحركة الإسلامية في الخليج والدول الأخرى، التي تجد التفهم من الحكومات والسلطات فيها، وتسمح لها ببيئة عمل مستقرة وآمنة، أن تأخذ العبرة من التجربة الإسلامية المصرية، وأن تعيد حساباتها حتى لا تتراجع نتائجها. ولن يتم ذلك إلا بالعودة إلى أصالة الدعوة، والحرص على العمل الدعوي والذاتية الدعوية التي تعرضت لكثير من التقلص في الفترة الأخيرة في حياة الدعاة.

وانظر إلى المعاني الراقية التي ضمنها المرشد في رسالته إلى القواعد حيث قال: «إن الإخلاص هو قلب العمل ومعياره، وأن صلاح العمل وانضباطه بضوابط الشرع هو شرط قبوله عند الله»، بغض النظر عن نتيجته وثمرته، فما على المسلم إلا أن يسعى، والنتيجة على الله... ويضيف قائلاً: «الجانب السياسي الذي نسعى لممارسته ممارسة نظيفة ملتزمة بالقواعد الأخلاقية الإسلامية حتى نصلح الفرد والمجتمع».

فالعمل السياسي من وسائل الدعوة، ولا يجب أن يتم إهمال باقي الوسائل لصالحه، فهذا يفقد الحركة أصالة التربية والبناء، ويقلص دورها إلى مجرد حزب سياسي كل همه المناورات والتكتيك السياسي، وهذا يفقدها الكثير من دورها الحضاري المرتقب.

هذا الدرس قدمته الحركة الإسلامية في مصر مشفوعًا بالتواضع الجم والانكسار

بين يدي الله والصدق مع النفس والوفاء مع المبادئ وغياب المصلحة الشخصية وحضور التضحية في سبيل الدعوة، وتأخر مفردات الطائفية والعائلة والقبيلة وتقدم مفردات الدعوة والمبادئ والإسلام، وهي كلها دروس تحتاج للتأمل والاستقراء . .فهل هناك من المعنيين من يفعل؟!

ü ü ü

المبحث الثامن

عندما ترى النملة ولا ترى الفيل!!

سبحان الله !! ما الذي يجعل فئة من الناس ترى النملة التي لا تكاد تبين، ولا ترى الفيل بكل ضخامته، غير الازدواجية التي تعيش في عقول الكثير منا دون أن نشعر بها، والعجيب أن معظم الناس يرفضون أن يتعامل معهم غيرهم بمبدأ الازدواجية إذا كان الضرر سيقع عليهم، ويرحبون بها إذا استفادوا منها، وربما تحدث البعض عن الظلم الذي يحيق بفئة من المجتمع أو ببعض أفراده نتيجة سياسة الازدواجية ه ذه، وعند أول فرصة تسمح لهم لتحقيق مصالحهم لا يترددون في استعمال أبشع أنواع الازدواجية مهما لحق من ظلم وضرر بالآخرين.

فتجد الصحافة تضج بالمقالات التي تندد ببعض النواب الذين يتوسطون لتجاوز القانون لخدمة بعض الناخبين، ثم متى أصبحت المصلحة شخصية لهؤلاء في تجاوز الآخرين هرولوا إلى نفس النواب ليخلصوا معاملتهم ويقضوا مصالحهم.

وتجد الدواوين تطفح بالحديث عن «الواسطة» التي تجعل صاحبها يتجاوز دوره ويقضي مصلحته بين طوابير المعاملات والمواطنين الذي يأمل في نظرة عطف من المسؤول حتى تنقضي حوائج تلك الطوابير، وعندما تأتي مصلحة أحد هؤلاء من الذين يسبون ويلعنون في الواسطة، لينهي معاملة خاصة له عن طريق الواسطة لا يعطي نفسه مجالاً لكي يراجع نفسه في مبدأ الواسطة الذي كان قبل قليل مبدأ مرفوضًا يسب ويلعن فيه!

حتى قوانين المرور نتأفف منها، وندعو لاحترامها والالتزام بقواعدها، ونقارن بين الوضع عندنا وبين الدول المتقدمة، فإذا ما«حاشتنا» تلك الرحمة، نكون أول من يرمي هيبة المرور وقوانينه خلف ظهورنا، فمن أجل أن «نركن» سيارتنا في مكان قريب من وجهتنا لا بأس من الوقوف في الممنوع،حتى لو أدى ذلك إلى تعطيل السير خلفنا، وإذا كان الالتفاف إلى جهة اليمين أو اليسار لا يسمح إلا بحارتين وقف الآخر بالحارة الثالثة، وإذا كانت الزحمة شديدة على إشارة المرور وتأكد من

عدم وجود كاميرا عند الإشارة، تجاوز الإشارة الحمراء مع ابتسامة لطيفة تدل على «فهلوة»!

وحتى في وظائفنا وأعمالنا التي من المفترض أن «نحلل معاشاتنا» فيها، نجد مُرَّ الشكوى من قلة إنتاجية المواطن في الوظيفة، وربما هناك من يشتكي من كثرة الأعباء والأعمال في الوظيفة التي أوقعه حظه الرديء فيها، فيحاول البحث عن وزارة أخرى أو وظيفة أخرى، ولو من خلال «الواسطة» لينتقل إلى وظيفة سهلة فيها أعداد كبيرة من الموظفين فيما يشبه البطالة المقنعة فينضم لهم ليصبح «ضيف شرف» على «الدوام» رافعًا شعار «حشر مع الناس عيد» فإذا لم يسعفه الحظ بمثل هذه الوظيفة، صادق مسؤوله بالعمل وقضى له بعض احتياجاته وربما أرفق معها بعض الهدايا و«الإكراميات»، حتى يستطيع أن يكسر عينه، ولا يعود بحاجة إلى أن «يكلف» في العمل وينضم إلى جُوقة الموظفين الذين حباهم الله بمسؤول طيب، ورفعوا الحكمة الكويتية: «لي حبتك عيني» شعارًا لهم.

وهكذا لو أردنا أن نضرب الأمثال والشواهد لاستطردنا كثيرًا، ولعل القارئ الكريم لديه من الشواهد ما يفوق ما طرحناه، وقد تغلغلت تلك الازدواجية حتى في حياتنا الاجتماعية.

فعندما نزوج بناتنا نظهر «العين الحمرا» للزوج، لأنه تزوج «بنت ناس» و «بنت أصل وفصل» وعليه أن يحترم نفسه ويحسن عشرتها ومعاملتها. بينما لو تزوج أحد أولادنا من بنات الآخرين، وزلت زلة بسيطة في حقه، قلنا له بكل بساطة: «طق عليها واحدة ثانية . . وأدبها»!!

فالازدواجية في حقيقتها إصدار حكمين أو قرارين مختلفين أو متناقضين في واقعة واحدة وفي ظروف متشابهة تبعًا لمصلحة مصدر الحكمين أو القرارين، مثل المفتي الذي لا يتقي الله، فإذا ما جاءه رجل فقير لا حول له ولا قوة، وسأله عن فتوى في موضوع معين، بحث عن أكثر المذاهب تشددًا في المذهب، ثم قصفه بالترهيب والويل والثبور، حتى لو كان السؤال الذي سأله لا ينحو هذا المنحى،

وعندما يسأله وجيه من الوجهاء أو صاحب سلطة أو قرار، يبحث له عن أكثر المذاهب تيسيرًا أو تساهلاً، بل يذهب أبعد من هذا ليأخذ بالآراء الشاذة في المذهب لكي ييسر على هذا الوجيه حياته وأموره و «يسلك نفسه» حتى لو ذهب محتوى سؤال ذلك الوجيه إلى غير هذه الإجابة، وعندما تسأل المفتي عن هذا التساهل بالفتوى، جاء لك بأدلة التيسير والتسامح والوسطية، ولا نعلم لماذا نسي هذه الوسطية وهو يفتي الرجل المسكين الفقير قبل قليل!!

*** لا ازدواجية في الإسلام:**

ولذا حذر النبي ﷺ من ازدواجية المواقف والفكر والممارسة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يبصر أحدكم القَذَاةَ في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه»[1]، والقذاة: ما يقع في العين (من وسخ) أو ما علا الشراب من شيء يسقط فيه[2].

وفي الحديث: « تجد من شر الناس يوم القيامة عند اللهذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[3]، قال القرطبي: إنما كان ذا الوجهين شر الناس؛ لأن حاله حال المنافق، إذ هو متملق بالباطل وبالكذب، مدخل للفساد بين الناس.

ولذلك كان ابن مسعود يقول: « من كان كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ بذلك نفسه»، وقال الحكماء: لأن يكون لي نصف لسان ونصف وجه على ما فيهما من قبح المنظر وسوء المخبر أحب إليَّ من أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين.

ولذلك كان عقاب هؤلاء وخصوصًا من هم في موقع القدوة شديدًا يوم القيامة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت: من هؤلاء: قال

---

(١)أخرجه ابن حبان (٥٧٦١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٩٩)، وابن المبارك في «الزهد» (٢١٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه. و صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٣١).

(٢)لسان العرب، باب القاف، مادة (قذى).

(٣)أخرجه البخاري (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢٦)، وأبو داود (٤٨٧٢)، وأحمد (٢/ ٢٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(جبريل): خطباء من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب: أفلا يعقلون»(١).

ولذلك عندما جاء رجل إلى أحد الصالحين وقال له: أريد أن أعظ. قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله تعالى، قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾(٣)، وقول العبد الصالح شعيب لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾(٤)، أأحكمت هذه الآيات؟ قال الرجل: لا، قال: فابدأ بنفسك إذًا.

فالعدل مع الناس مطلوب وهو الذي يقطع الطريق على ازدواجية المواقف وتقلبها مع تقلب المصالح، وعندما جاء رجل إلى النبي ﷺ بعرفة وسأله عن عمل يقربه إلى الجنة ويباعده عن النار، أوصاه الرسول ﷺ بوصايا منها: «وتأتي إلى الناس ما تحب أن يؤتوه إليك، وما كرهت لنفسك فدع الناس منه»(٥)، كما وصى رجلاً آخر فقال: «وأحب للناس ما تحب لنفسك»(٦) من الخير طبعًا، ومن حكمة النبي ﷺ في توجيه أمته إلى خطورة الازدواجية في حياتها، ما رواه أبو أمامة رضي الله عنه قال: أن فتى شابًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل عليه القوم فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال النبي ﷺ: «أدنه»، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال النبي ﷺ: «أتحبه لأمك»؟ قال الفتى: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا

(١)أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧٦) لأبي يعلى والبزار والطبراني في الأوسط وقال: «وأحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح».

(٢)البقرة: ٤٤.

(٣)الصف: ٢.

(٤)هود: ٨٨.

(٥)أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٤/ ٧٦، ٧٧)، والطبراني في الكبير (٦/ ٤٩) (٥٤٧٨) عن المغيرة بن سعد عن أبيه، أو عن عمه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٤٣): «رواه عبدالله من زياداته والطبراني في الكبير بأسانيد ورجال بعضها ثقات على ضعف في يحيى بن عيسى كثير».

(٦)أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧)، وصححه الألباني.

الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك»؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أتحبه لأختك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، فوضع الرسول ﷺ يده وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» فلم يعد بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[١].

فهنا تعمَّد النبي ﷺ أن يستطرد في الحديث ليبين له أن نساء المجتمع ما هن إلاَّ أم وابنة وعمة وأخت وخالة، وهذا يتطلب الصدق مع النفس والآخرين، لذلك أورد الإمام ابن قيم الجوزية منزلة الصدق في مدارج السالكين وقال عنها: (هي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يمر عليه من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الأديان، وسكان الجنان من أهل النيران»[٢].

وهكذا نرى أن الإسلام قد أغلق باب الازدواجية وأغلق جميع منافذها، ومن العيب أن ترى من ينسب نفسه للدعاة ثم يمارس الازدواجية في حياته، فهو يدعو إلى المثل العليا ومكارم الأخلاق ويحث الناس على الخير، وعلى الالتزام، ويثور على أي انتهاك لحقوق الله، أو لأي تعدٍّ على الأخلاق، أو أي تقصير في الطاعات والعبادات، ثم تجده بعد ذلك في حل من هذه المنظومة العقدية والتربوية والأخلاقية، وربما غفل مع الناس وتجاوز مع المتجاوزين، ولعل أفعال مثل هؤلاء تحسب عليهم وليس على الدعوة، كما يرجع الخطأ الذي ارتكبوه إلى أشخاصهم لا

---

(١)أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٦٢) (٧٦٧٩) عن أبي أُمامة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٩): «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح».

(٢)مدارج السالكين: لابن قيم الجوزية، «منزلة الشوق».

إلى المبادئ التي يدعون لها ثم لا يلتزمون تطبيقها، فلا يمكن أن نبرر أو نعلل لشاب ملتزم أن يغش في المدرسة أو الجامعة، ولا يمكن أن نبرر لموظف ملتزم أن يهمل في وظيفته ولا يقوم بأداء أمانتها، ولا يمكن أن نبرر لزوج ملتزم أن يهمل زوجته وأولاده، ولا يمكن أن نبرر لابن ملتزم أن يهمل والديه ولا يبرهما، بل ويعقهما.

أما على مستوى الجماعات والتيارات الإسلامية، فتظهر الازدواجية من خلال التعامل مع شيوخ الجماعة والشيوخ الآخرين المستقلين أو الذين ينتمون لجماعات وتيارات أخرى، فعندما يصدر بعض شيوخ الجماعة كتابًا أو مصنفًا وينزل إلى السوق، وبه بعض الآراء غير الموفقة، أو بعض الأخطاء أو الزلل أو الأحكام المخالفة للشريعة بغير قصد، نجده يقوم بتجميع الكتاب وسحبه من السوق بهدوء وسكينة، وكأن شيئًا لم يحدث، ولو ارتكب تلك الأخطاء شيخ أو رمز لا ينتمي لنفس تياره، لترك كل مهامه الدعوية وانشغل فقط في الرد على الكتاب، مع تجميع الأدلة التي تفضح هذا المؤلف «الضال المبتدع» ولما تأول للمؤلف خطأه غير المقصود، وبدأ في عقد سلسلة محاضرات «للتحذير من هذا الكتاب ومن المؤلف» بل ومن كل ما كتب، بل ومن الجماعة أو التيار الذي ينتمي له هذا المؤلف، ثم بعد ذلك يحدث تلاميذه على «التحذير من هذا المؤلِّف ومصنفاته».

وربما انتقل من مرحلة القول إلى العمل، فطبع الأشرطة ووزع المناشير، وألف الكتيبات فيمن تجرأ وتطاول وخالف رأيه أو اجتهد عن حسن نية ولم يصب الحق، أو تراجع عن رأيه، أو حتى فهم ما كتب على عكس ما يريد!!

فأمثال هؤلاء يرون أن من يوافقهم على آرائهم له اعتباره ومكانه ووزنه، أما الآخر فليس له حساب، فيتبعون مثالبه وعوراته، ويفرحون بأخطائه، وينشرونها بين الناس، ويذيعونها بين الخاصة والعامة، متناسين أدب النصيحة التي يطنطنون حولها إن وجه المخالف لهم بعض النقد المؤدب لما يكتبون ويجتهدون فيه حتى تصبح مؤلفات المخالفين لهم عند تلاميذهم أقرب ما تكون لكتب الشعوذة والهرطقة، ونعجب بعد ذلك من طالب علم يتخذ مواقفه وآراءه بالمراسلة عن

طريق شيخه ولا يملك ميزانًا يقيس به الأمور ويعتمد على تصنيف من سبقوه للناس والأفكار، مما يعكس عجزًا فاضحًا في البحث العلمي وتقليدًا أعمى إلى أبعد الحدود.

*** من ضحايا الازدواجية:**

ولقد عانت الكويت من هذا الموضوع وخصوصًا في العقد الماضي وحتى سقوط النظام البعثي في العراق، فعندما جوز علماء الكويت والسعودية الاستعانة بالقوات الأجنبية لطرد المحتل من الكويت، تباكت بعض القيادات الفلسطينية على التضامن العربي، ورأت خطورة في الاستعانة بقوات أجنبية لإخراج العراق من الكويت، وحاولت تلك القيادات برئاسة الراحل ياسر عرفات تعطيل أعمال مؤتمر القمة العربي الشهير الذي عقد في القاهرة حتى لا يخرج بقرار حاسم، يدين العدوان ويمهد الطريق لطرد الجيش العراقي من الكويت.

ماذا حدث بعد ذلك، القيادات الفلسطينية التي رفضت دخول القوات الأجنبية للمنطقة لإنقاذ شعب كامل من الاحتلال، هي نفسها التي أرسلت نداء استغاثة عاجل للقوات الأمريكية لتطلب من الطيران الأمريكي اختراق حدود ثلاث دول هي مصر والسودان وليبيا حتى يقوم الطيران الأمريكي بالبحث عن طائرة الرئيس الفلسطيني «ياسر عرفات» التي سقطت في المثلث الحدودي ما بين مصر والسودان وليبيا، وهكذا نجد أن القيادة الفلسطينية التي رفضت تواجد القوات الأجنبية لإنقاذ شعب كامل، تستنجد نفس القوات لإنقاذ رجل واحد حتى لو أدى ذلك إلى اختراق سيادة ثلاث دول عربية كبيرة ولسنا هنا في معرض تقييم صوابية القرار، ولكننا في معرض طرح تلك الازدواجية الفاضحة!!

وهذا الموقف تكرر مع الكويت المظلومة عندما دعاها الجميع إلى طي صفحة الماضي واتباع سياسة «عفا الله عما سلف» والتصالح مع صدام حسين، الذي لم يتراجع عن نظرية «أم المعارك» وكاد أن يكرر الغزو في منتصف التسعينات، وأصر على مقولة الفرع والأصل وفرضها على مناهج التعليم العراقية، ورفض لآخر لحظة

إطلاق سراح الأسرى والمعتقلين الذين قضوا نحبهم جميعًا في سجونه!!

هؤلاء الذين دعوا الكويت إلى المصالحة العمياء والعرجاء، كان من بينهم أناس في الجزائر سعوا لتأسيس جمعية أسموها «جمعية منع النسيان» وكان هدفها التذكير الدائم بالجرائم التي ارتكبتها الجماعات المسلحة في الجزائر ضد المدنيين من الشعب الجزائري ورغم أن بعض تلك الجماعات قد تم سلبها حقها الذي أعطتها إياه صناديق الانتخابات التي تم إلغاء نتائجها، ورغم أن بعضها الآخر كان مدسوسًا من المؤسسة العسكرية هناك، وتم فضح دورها من بعض الضباط الذين فروا إلى فرنسا، وكتبوا حقيقة ما حصل، ورغم أن تلك الجماعات المسلحة جزء من النسيج الاجتماعي، إلا أن ذلك كله لم يشفع لها، وتم تأسيس «جمعية منع النسيان» حتى ينسى الناس بشاعات تلك الجماعات المسلحة، ثم أتوا بعد ذلك للكويت المسكينة وطالبوها بالعفو والصفح والنسيان!!

ورغم كل ذلك لم تسلم الكويت من أولئك الذين لهم قدرة خارقة على رؤية النملة وعمى مؤكد على رؤية الفيل، فأطلقوا العنان لقنواتهم الفضائية للتهجم على الكويت باعتبارها قاعدة أمريكية في الخليج العربي والمنطقة بأسرها، كما تقوم دول أخرى بإجراء مناورات النجم الساطع والقمر الرائع، والكوكب الماتع، ثم تقوم صحافتهم بالحديث عن التواجد الأجنبي في الكويت.

أليست هذه كلها ازدواجية كريهة تمارسها بعض القنوات والأقلام بعد أن عجزت عن مواجهة واقعها القريب منها، وخافت من سطوة السلطة التي تبث على أرضها وتكتب في صحافتها!!

هذه الازدواجية لا يكاد ينجو منها حتى الأحزاب السياسية سواء في موقع السلطة أو في موقع المعارضة.

فتجد المعارضة السياسية تشكو «لطوب الأرض» إجرام النظام الحاكم، وانتهاكه المستمر لحقوق الإنسان، وقتل المعارضين، وسجن الأبرياء، وتقوم تلك المعارضة تأكيدًا لكلامها بنشر البيانات وإنشاء مواقع الإنترنت، وتوزيع أشرطة الفيديو

لحفلات الإعدام التي يقوم بها النظام، وللمقابر الجماعية بطول البلاد وعرضها، وتقوم تلك المعارضة بأنشطة مكوكية وجولات متوالية بين الدول العظمى ودول الجوار، من أجل تغيير النظام وإقامة البديل التعددي الديمقراطي، وإنقاذ الشعب من سطوة النظام الفاشي، وتعويضه عن سنين الحرمان والظلم والاضطهاد، ووعده بالعيش الكريم والحرية والكرامة وحفظ حقوق المواطن، حتى إذا أصبحت الظروف الدولية مناسبة وتم إسقاط النظام واستلمت تلك المعارضة السلطة، اكتشف الشعب أن الوجوه تغيرت، لكن السياسات بقيت كما هي؛ فلم يتوقف خطف الناس من منازلهم، واغتيالهم ورميهم في الأنهار والبحار ولم يتوقف سرداب وزارة الداخلية ووزارة الدفاع عن استقبال الأبرياء وتعذيبهم حتى الموت والتمثيل بجثثهم، ولم يتوقف قصف بعض المحافظات بالفوسفور الأبيض وغيره من الأسلحة الكيماوية، حتى يتم إحكام وضع اليد على السلطة، وليذهب كل المعارضين إلى المقابر الجماعية الجديدة!!

*** سيدة الازدواجية في العالم!!**

الازدواجية كممارسة ليست حكرًا على الشخصية العربية والإسلامية، بل هي ممارسة موجودة عند جميع الأمم والشعوب، خاصة عندما تضعف القيم المعلنة عن مواجهة المصالح والنفوذ التي تعمل كمنظومة متماسكة ومتشابكة بين مجموعة من التكتلات والأحزاب والشركات العابرة للقارات والقوى الدولية.

ومن الطبيعي أن نتعرض بالشرح والتحليل لازدواجية القوى الدولية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية حتى لا يتهمنا أحد ما بأننا مارسنا الازدواجية عندما تحدثنا عن الازدواجية العربية والإسلامية وهي ازدواجية بحجم النملة وتركنا الازدواجية الأمريكية، وهي ازدواجية بحجم الفيل من حيث وضوح ممارساتها ومقارنة بحجمها إلى حجم الازدواجية الشرقية نظرًا لفروق الإمكانات العلمية والمادية والحضارية بين الطرفين.

ومخطئ من يظن أن الازدواجية الأمريكية محصورة في التعامل الخارجي مع

الشعوب والدول الأخرى، بل إن الداخل الأمريكي يعاني من ازدواجية رهيبة ما بين القيم المعلنة والممارسات التي تحدث في الواقع، وهذه الازدواجية لا تأتي بالضرورة من تقييم ووجهة نظر شرقية، بل إن هناك من الأمة الأمريكية من تستفزه هذه الازدواجية الأمريكية ويسعى لتوعية الشعب الأمريكي من لعبة المصالح التي تطحن الجميع في سبيل تحقيقها.

❊ عالمان مختلفان:

الازدواجية بالطبع لا علاقة لها بالخصوصية الحضارية لكل أمة، فمهما اختلفت الرؤية الحضارية لشعوب الشرق عن الشعوب الغربية، فإن هذا الاختلاف لا علاقة له بتقييم مدى الازدواجية التي يمارسها الغرب في شؤون حياته وعلاقته بالأمم الأخرى، فالازدواجية تحدث بسبب خلل ما بين منظومة المبادئ التي يؤمن بها شعب أو دولة أو نظام، وما بين الممارسات المخالفة لتلك المنظومة، فلا علاقة لها بمدى الاختلاف الحضاري بين الطرفين، إلاَّ بمقدار ما يتضرر الطرف الأضعف من سياسة الازدواجية، وهو هنا بالتأكيد شعوب الشرق الإسلامي ودوله.

فعندما كان الاحتكاك الحضاري في بداياته، كان الإنسان الشرقي أكثر حساسية منه الآن تجاه الحضارة الغربية وممارساتها، بسبب حداثة المعرفة بتلك الحضارة وتناقضاتها الجوهرية مع الحضارة الإسلامية خاصة في منظومة السلوك والأخلاق، ولو اطلعنا مثلاً على ما كتبه «أسامة بن منقذ» في فترة الحروب الصليبية ونظرته للأخلاق الغربية المنحلة لتأكدت صدمة البدايات عند الشعوب المسلمة من هذه الأخلاق.

فقد كتب «أسامة بن منقذ» في كتابه «الاعتبار»: «ليس عندهم شيء من النخوة العربية والغيرة، يمشي الرجل مع امرأته ويلقاه آخر، فيأخذ المرأة ويتغزل بها ويتحدث إليها، والزوج واقف بعيدًا ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت كلامها مع المتحدث تركها ومضى!!»، هذه المفارقة التي يدهش منها أسامة بن منقذ ممكن أن نجدها اليوم وللأسف في بعض مجتمعاتنا العربية على أنها ممارسة طبيعية!!

وانظر إلى نفس الموقف المتكرر الذي كتبه السفير المغربي ابن عثمان المكناسي الذي زار الغرب وأسبانيا عام ١٧٧٩م وكتب يصف بعض ما رأى فقال: «اجتمعوا ذات ليلة نساءً ورجالاً ورقصت النساء كما هي عادتهن، وترى الرجل جالسًا مع امرأته، وابنته ترقص مع أجنبي ويناجي بعضهم بعضًا، ولا حياء لديهم مع ما هو معلوم بينهم وشائع من الفسوق والزنا ولا يبالون بشيء فقد جبلوا على عدم الغيرة!!».

هذه الشواهد التي سقناها بسرعة تدل على تناقض الرؤية الأخلاقية ما بين الحضارتين الشرقية والغربية، ولا تدل على ازدواجية الغرب من هذه الزاوية، فالرؤية المغايرة تختلف تمامًا عن الازدواجية التي تعيشها ذات الحضارة من داخلها، فالحديث اليوم عن ازدواجية الغرب ـ وبالطبع الولايات المتحدة الأمريكية في مقدمته ـ وهي غير معنية بالتناقض الحضاري مع الشرق، بل يجب إيضاح تلك الازدواجية من خلال تناقض الغرب مع قيم الذات والرؤى الذاتية لأسس الحضارة عندهم.

*** الازدواجية في الداخل الأمريكي:**

إننا نتحدث عن هذه الثنائية العجيبة في الحياة الأمريكية، فالحياة الأمريكية التي تقدس الحياة البشرية وتطلق الحرية الشخصية حتى ولو على حساب المجتمع، نجدها هي الرائدة في صناعة الأسلحة لتدمير وقتل أكبر كمية من البشر في الحروب العبثية، كما نجد التقدم العلمي الرهيب بجانب السعي الدائم إلى الهيمنة على العالم، ونجد الفنون والثقافة الإنسانية الرفيعة جنبًا إلى جنب مع الانحلال والسقوط الأخلاقي، فالحضارة الغربية تحمل عناصر البقاء والفناء جنبًا إلى جنب.

ولذا تجد تلك الازدواجية موجودة حتى في الحملات العسكرية التي يشنها الغرب على الشرق،فتجد أن نابليون قد جلب المطبعة وهي رمز الثقافة مع المدافع والقنابل وهي رمز الهمجية والدمار، مثلما تتحدث أمريكا اليوم عن نشر الديمقراطية في العالم، ثم نجد كيف تعاملت مع سجناء سجن أبو غريب في

العراق!!

أول التناقضات الداخلية ـ ولعل أهمها ـ هو افتراق الدستور الأمريكي عن الممارسات التي تمارسها الإدارة الأمريكية، فالمفترض أن أمريكا دولة علمانية، لكن الصبغة الدينية التي يدير بها الرئيس الأمريكي عمله ومن خلفه القساوسة الداعمون لخطواته تمثل ازدواجية واضحة ما بين علمانية الدولة ودينية الإدارة الأمريكية.

وقد كتب «إدفو ليامي» الصحفي البريطاني عن آثار هذا التوجه الديني لدى الرئيس الأمريكي في مقاله في مجلة «ذا أوبزورفر» البريطانية قال فيه: «إن تقوى الرئيس الدينية، أدت على الصعيد العالمي، إلى نتيجتين: الأولى؛ هي أنها حثت على تحالف مستهجن بين اليمين المسيحي والحركة الصهيونية، جاعلة بذلك إسرائيل آرييل شارون الحليف الأقرب والولايات المتحدة، أما النتيجة الثانية؛ فهي أنها تبرر السعي وراء موقع قوة لا منازع له، لقد وضع بوش في واجهة الساحة السياسية الأمريكية، أكثر المؤيدين حماسة لإسرائيل».

ويضيف الكاتب البريطاني «جون لوكاريه» في مقال بعنوان «اعترافات إرهابي» نُشِرَ في صحيفة «لوموند» الفرنسية (كانون الثاني ٢٠٠٣م) قائلاً: «ولعل الجانب المقزز من هذه الحرب السيريالية المعلنة هو هذا النفاق الديني الذي سيرسل الجنود الأمريكيين إلى القتال.

لقد صادر بوش «الإرادة الإلهية» (تعالى الله عما يقولون)، الله جعل من إسرائيل حجر الزاوية في سياسة أمريكا في الشرق الأوسط، وكل من يجرؤ على المساءلة، إنما هو: مُعادٍ للسامية، مُعادٍ لأمريكا، في صف العدو، وإرهابي!!».

*** مأزق الازدواجية الأمريكي:**

السياسة الأمريكية خاصة في منطقة الشرق الأوسط لا تعيش فقط حالات مريرة من الازدواجية، بل تتنفس تلك الازدواجية مع الهواء، فهو خبزها اليومي الذي تدير به تلك الإمبراطورية الكبيرة.

فهنـاك ازدواجيـة بـين مـصطلح «الـشرعية» ومـصطلح «المـصلحة الأمريكيـة» فالشرعية في رأي الإدارة الأمريكية تتواجد حيث تتواجد «المصلحة الأمريكيـة»، فكـل حـدث سياسي أو عـسكري أو ثقـافي يحقـق المصلحة الأمريكيـة، فـإن الإدارة الأمريكية وبما تملك من إمكانات عسكرية ولوجستية وإعلاميـة قـادرة عـلى إضـفاء الشرعية على هذا الحدث، مهما مثله من اختراق للشرعية الدولية، ومهما ناقض ذلك المعاهدات والمواثيق الدولية.

ونحن هنا لا ننجم بالغيب، أو نلوي عنق الحقائق، فهناك مقولة أمريكيـة قديمـة تقول: «إن أمريكا هي العالم، والعالم هو أمريكـا» وهـي مقولـة لهـا نـصيب كبـير مـن المصداقية، فقـد صرح مـثلاً «كـولن بـاول» وزيـر الخارجيـة الأمريكـي الأسـبق بعـد ضربة سبتمبر قائلاً: « نحـن الآن القـوة الأعظـم، نحـن الآن اللاعـب الرئيـسي عـلى المسرح الدولي، وكل ما يجب علينا أن نفكر به الآن هو مسؤوليتنا عـن العـالم بـأسره، ومصالحنا التي تشمل العـالم كلـه»، وهـو تـصريح مـشهور أكدتـه الإدارة الأمريكيـة عندما صرح الرئيس الأمريكي بوش بأنه سيشن حربًـا صـليبية، عـلى الـرغم مـن أن قوانينهم الوضعية تتحدث عن علمانية الدولة كما ذكرنا سابقًا.

وكم كان الملياردير الأمريكي «جورج سورس» ذكيًا عندما تحدث عن ازدواجية الإدارة الأمريكية قائلاً: «الرئيس بوش عندما يتحدث عن ضرورة بقاء الحرية، فإنه يقصد بـذلك ضرورة بقـاء الولايـات المتحـدة»، هـذه التـصريحات الملتقطـة مـن هنـا وهناك لا تعبر عن آراء شاذة، بـل هـي مـن صـميم الـسياسة الأمريكيـة وتمثـل تلـك التصريحات الروح الأمريكية.

وانظر مثلاً إلى خطاب «ألبرت بيفريبرج» ممثل ولاية «إنديانا» في مجلـس الـشيوخ الأمريكـي وهـو يقـول: «لقـد جعـل الله منـا أسـاتذة العـالم! كـي نـتمكن مـن إدارة الـشعوب البربريـة الهرمـة، وبـدون هـذه القـوة، سـتعم العـالم مـرة أخـرى البربريـة والظلم، وقد اختار الله الشعب الأمريكي دون سائر الأجناس كـشعب مختـار ليقـود

العالم أخيرًا إلى تجديد ذاته»[١]، وهذه العبارة الأخيرة ـ سبحان الله ـ ذكرتني بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾[٢].

ولا يجافي الحقيقة المؤرخ «ريتشارد إيميرمان» حينما قال: «القوة والأمن يستمدان بشكل أساسي من الحصول على المواد الأولية من العالم، وبالتدخل في أسواقه الداخلية، وبالأخص في دول العالم الثالث التي يجب أن تبقيها الولايات المتحدة تحت السيطرة الشديدة»[٣].

لا شك أن هذا التجبر والتكبر والتعالي لا يعجب الكثير من المفكرين الأمريكان وبعض الساسة الذين يدعون لإعادة التفكير بشكل جدي عما حدث لأمريكا، فهذا المفكر الأمريكي اليهودي «نعوم تشومسكي» يكتب ردًا على مثل هذه الغطرسة في كتابه «ماذا يريد العم سام»: «أعتقد من وجهة النظر القانونية أن هناك ما يكفي من الأدلة لاتهام كل الرؤساء الأمريكيين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بأنهم مجرمو حرب، أو على الأقل متورطون بدرجة خطيرة في جرائم حرب».

أما مرشح الرئاسة السابقة وعضو مجلس النواب السابق «ديفيد ديوك» فقد قال في مقال له بعنوان «لماذا هوجمت أمريكا»: «يجب علينا أن نتحلى بالشجاعة الكافية كي نضع في الاعتبار الأسباب الحقيقية وراء كره العالم لنا ـ إذا اكتملت كل الحقائق لدينا ـ بدلاً من العبارات الممجوجة والمستهلكة مثل: الهجوم على الحرية، عندئذ فقط نستطيع أن نقرر ما هي أفضل السبل لحماية شعبنا في المستقبل».

لكن مشكلة الولايات المتحدة الأمريكية أن هؤلاء لا يؤثرون ولا يقودون القرار، بل يقف خلف القرار تشكيلة من القساوسة الذين يكرهون الإسلام ويسبون نبيه، بالإضافة إلى مفكرين لا يملكون حيادية أمثال: صمويل هنتجنتون، وبرنارد لويس، وفريدمان وغيرهم!!

(١)مجلة واشنطن بوست، ٢٠ أبريل، ٢٠٠٣م.
(٢)إبراهيم: ٤٤.
(٣)أمريكا طليعة الانحطاط: روجيه جارودي، ص ٨٢.

وحتى لا نستطرد بعيدًا في الحديث سنعطي بعض الأمثلة الواضحة على ازدواجية السياسة الأمريكية في العالم:

١ـ ازدواجية الحرب والسلام:

فالولايات المتحدة من أكثر الدول التي يخطب رؤساؤها عن السلام العالمي وضرورة الحفاظ عليه، ونشر الحريات والديمقراطيات وتصنيف الدول إلى دول مسالمة وأخرى ضمن محور الشر والإرهاب، ورغم ذلك فإن الولايات المتحدة من أكثر الدول شنًا للحروب، ومشاركة فيها، وتملك ترسانة أسلحة مرعبة، ولا تتوانى عن القيام بالإبادات الجماعية من أجل حفظ مصالحها، ابتداءً من الإبادات الجماعية ضد الهنود الحمر، ومرورًا بإلقاء القنابل الذرية على مدن هيروشيما وناكازاكي، ومشاركة الولايات المتحدة بالحروب العالمية، ومن ثم التدخل في فيتنام وغيرها، وانتهاء بالتدخل في أفغانستان والعراق.

وحسب دراسة أجرتها وكالة ضبط الأسلحة وزرع السلاح في الولايات المتحدة، فقد بلغت المبيعات الإجمالية الأمريكية للأسلحة إلى الخارج في عام واحد قرابة ١٩.٥٠٠ مليار دولار، حيث يقول «جوشي موش»: «لقد أنفقنا في سبيل جنون البشر المسمى سباق التسلح مبلغًا خياليًا قدره ٢١٠ مليارات دولار، وهو يوازي عشرين مرة مبلغ المساعدات المقدمة للبلدان النامية، ويوازي الدخل الوطني لنصف البشرية الأكثر عوزًا وحاجة»[1].

وهذه الأرقام والوقائع لا تتناسب أبدًا مع تصريح الرئيس الأمريكي بوش الذي قال فيه:

«من أجل مستقبل الحضارة يجب ألا نسمح لأسوأ قادة العالم بتطوير ونشر أسلحة الدمار الشامل لابتزاز بلدان العالم» فماذا لو علمنا أن تكلفة يوم واحد من الحرب الحديثة وهو ١.٥ مليار دولار تعادل برنامج عالمي مدته خمس سنوات

(١)اقتصاد السلم والحرب: د. زيد الرماني، ط.١، ٢٠٠٣.

لتحصين الأطفال ضد ستة أمراض قاتلة والحيلولة دون وفاة مليون طفل سنويًا»[1]!!

ويتبع هذه الازدواجية ازدواجية نزع أسلحة الدمار الشامل من كل الدول واستثناء دولة إسرائيل من هذا الإجراء دون أن توجه لها الإدارة الأمريكية أي نوع من أنواع اللوم أو الإجراءات العقابية، ويكفي أمريكًا خزيًا أنها لم تكتشف إجرام صدام واستعماله الأسلحة الكيماوية ضد شعبه، إلا بعد أن صار عدوًا لها!!

٢ ـ ازدواجية التدخل الإنساني:

فقلب الإدارة الأمريكية الرقيق لم يتحمل ما يعانيه سكان «تيمور» النصرانية في إندونيسيا فسارعت إلى سلخ الإقليم من إندونيسيا، كما ساندت حركة الانفصال في الجنوب السوداني، بينما يعاني أهل كشمير الأسيرة لدى الهندوس، وأهل فلسطين الأسيرة لدى اليهود منذ نصف قرن وأكثر.

٣ ـ ازدواجية الحرية:

فحقوق الإنسان التي تحارب من أجلها الولايات المتحدة، تسقط في سبيلها دول وأنظمة وتحاصر وتضغط على أنظمة أخرى، لا نرى لها أثرًا في التعامل مع معتقلي «جوانتانامو» ولا مع ما فعلوه في معتقل «أبو غريب»، ويكفي هنا أن نذكر تصريح «محمد دهام المحمد» رئيس اتحاد الأسرى والسجناء في العراق عندما قال: «سجلت لدينا شهادة سيدة ساعدها شقيقها على الانتحار بعد أن اغتصبها جنود أمريكيون عدة مرات أمام زوجها في سجن أبو غريب» ويكفي أن الصور التي لم تنشر لما حدث في المعتقل أبشع بكثير من التي تم نشرها، وذلك حسب تصريحات بعض العسكريين الأمريكيين والمتسربة هنا وهناك.

وقد نشرت جريدة الوطن مقالاً عن إشكالية التعذيب في الدستور الأمريكي نقلاً من موقع «تقرير واشنطن» الإلكتروني وحيث بيّن فيه ازدواجية الصراع بين

---

(١) اقتصاد السلم والحرب: د. زيد الرماني، ط.١، ٢٠٠٣.

مبادئ أمريكا الديمقراطية وحجج البيت الأبيض الأمنية[1].

ويمكننا هنا على عجالة توضيح الازدواجية المخزية التي حدثت في عهد كلينتون؛ ففي الوقت الذي يستقبل فيه الرئيس الأمريكي رئيس المكتب السياسي للجيش الجمهوري الإيرلندي في البيت الأبيض كمناضل شجاع من أجل الحرية والاستقلال، يتم رمي موسى أبو مرزوق رئيس المكتب السياسي لحركة حماس في السجون الأمريكية لعدة سنوات كمجرم مدان، رغم أن لديه الإقامة الدائمة في أمريكا، ورغم أنه لم يأت ما يخالف القوانين الأمريكية أو حتى الدولية التي لا تجرم حق الشعوب في الدفاع عن أراضيها ومقدساتها!!

٤ ـ ازدواجية التعميم:

فالولايات المتحدة ترى أن من قام بالأفعال المخزية في سجن «أبو غريب» قلة شاذة لا تمثل الحضارة الأمريكية، بينما حملت المملكة العربية السعودية ـ قيادة وشعبًا ـ أفعال بعض الأفراد الذين شذوا عن الأمة وقاموا بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وشنت الولايات المتحدة حملة منظمة على الإسلام الوهابي وعلى السعودية.

٥ ـ ازدواجية التعدد:

ففي الوقت الذي تدعو فيه الولايات المتحدة العالم الإسلامي إلى الحوار مع الطرف الآخر، وقبول التعددية (والتعددية هنا الحداثة والعلمانية وحقوق المرأة والشواذ والحرية الجنسية).. فهي من جهة ثانية لا تقبل بالخصوصية الحضارية للمنطقة وما فتئت تضغط وتهاجم دول المنطقة من أجل تغيير المناهج التعليمية.

والولايات المتحدة التي لم تطرف لها عين وهي تقصف عرسًا أفغانيًا من الجو بالخطأ، ولم تتحرك من أجل آلاف الأبرياء الذين ماتوا تحت القصف العشوائي في العراق، ولم تتوان في استعمال الأسلحة الكيماوية في منطقة الفالوجة، ومستعدة

---

(١) جريدة الوطن (الكويت)، ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٥م، ص ٥٣.

لانتهاك كل ما هو قانوني وإنساني من أجل تحقيق مصالحها الذاتية، نجدها تنتفض وتترك كل أعمالها، وتتفرغ لإدانة دولة الإمارات لأنها ألقت القبض على اثني عشر من الأزواج مثلي الجنس كانوا يقيمون حفل زواج جماعي، فأمريكا حريصة كل الحرص على التعددية والحرية، ولا نعلم أين اختفت هذه التعددية وهي تضغط على حكومات العالم الإسلامي ووزارات التربية فيه، من أجل إغلاق دور تحفيظ القرآن الكريم، وتغيير المناهج التعليمية.

ولو أخذنا جولة لنتعرف على صورة العرب في المناهج الغربية لأصبنا بالصدمة.

ü ü ü

هموم شرقية.. وهموم غربية

بادرني محدثي قائلاً: أين المسلمون ودورهم في الشأن العالمي؟ وأين اهتماماتهم في دنيا الإنسان؟! لقد شاهدنا الفضائيات وهي تنقل أخبار المهرجانات الغنائية في عدد من البلدان حول العالم!

كما كنا نشاهد ما بين فترة وأخرى المظاهرات التي تقودها الشعوب الأوروبية ضد العولمة والشركات العابرة للقارات.

فقلت له: وستحدثني أيضًا عن حركة السلام الأخضر والاهتمام بالبيئة، ومحاربة التلوث، وعن وجود حركات شعبية ومجتمع مدني نشط في مختلف المجالات الاجتماعية والبيئية والثقافية والفكرية، وقد انتهت تلك الشعوب من مسألة حقوق الإنسان مبكرًا وتحولت للدفاع عن حقوق الحيوان في أدغال إفريقيا وثلوج ألاسكا. وأن اهتمامهم بالشأن العام قد غطى الكرة الأرضية بقاراتها الخمس، وستختم هذا العرض بالسؤال عن الدور المفقود للمسلمين، وتقول: أين هم المسلمون ودورهم المفترض أن يكون رياديا في مثل تلك المسائل، وضرورة مشاركتهم العالم في همومه المشتركة والتي لا ترتبط ولا تتأثر بالاختلافات الدينية والثقافية بين الشعوب؟

قال محدثي: هذا بالضبط ما أعنيه؟ بعبارة أخرى لماذا يغيب الحس الإنساني وهذه اللافتات التي تجتمع عليها شعوب الأرض عن عالمنا الإسلامي وشعوبه؟

قلت لمحدثي: هل تذكر القصة القديمة عندما ثارت الجماهير الإنجليزية مطالبة بالخبز فخرجت لهم الملكة وقالت: لماذا لا يأكلون البسكويت أو الكيك؟

قال: نعم، فلم تفهم الملكة مطالبة الشعب بالخبز أن حياته ضنك وأن الشعب لا يجد قوت يومه، وأن الرفاهية التي تعيش فيها الملكة حالت دون فهم ما يجري على الأرض؟

قلت: هذا هو حالنا نحن شعوب الشرق مع الشعوب الغربية، فهم يتحدثون عن البسكويت ونحن لا نجد الخبز.

قال: والمعنى؟

قلت: المسألة أولويات يا أخي العزيز، ولكل شعب أولوياته، ودعني أوضح لك المسألة بشكل كبير...

هل للغرب أراضٍ أو دول تحت الاحتلال؟

هل تعاني الشعوب الغربية من تسلط قوى كبرى على خيراتها وثرواتها وأراضيها؟

هل تعاني شعوب الغرب من التسلط والاستبداد والديكتاتورية والكبت والقهر والظلم؟

هل لدى الغرب نظام التأليه للحزب الواحد والرجل الواحد؟

هل لدى الغرب دول وحكومات تقود الشعوب بقوانين الطوارئ لعشرات السنين؟

هل لدى شعوب الأرض حريات منتهكة وحقوق مسلوبة وإدارات معطلة؟

هل لدى الغرب كتاب مقدس يتعرض للامتهان والتدنيس؟

هل لدى الغرب معتقلون أو لاجئون سياسيون في بقاع الأرض المختلفة؟

هل لدى الغرب براءات اختراع في وسائل التعذيب والقتل والإعدام؟

هل لدى الغرب شعوب بالملايين تعيش في اليوم على رواتب تقل عن الدولار؟

هل لدى الغرب حالات تقديس للرموز الحاكمة وحكومات أبدية ووجوه كتبت لنفسها الخلود على منصات وكراسي الحكم؟

هل لدى الغرب دبابات هربت من المعركة وقفزت على القصر الجمهوري وألغت الحياة المدنية وعسكرت المجتمع وحولته جميعًا إلى فيلم رعب؟

هل لدى الغرب طابور خامس كل همه التشكيك بهوية الغرب والعمل على هدمها وتفكيكها؟!

إذا كانت كل هذه الأمور الموجودة في الشرق قد تجاوزها الغرب منذ أمد بعيد

فكيف يجوز المقارنة بين اهتمامات الطرفين وأولويات الطرفين، وهموم الطرفين.

نعم، لدى الغرب مؤسسات عالمية لخدمة الإنسانية ميزانياتها بالمليارات، وتحركاتها كوكبية، ولهم جهود واضحة في مجالات الإغاثات العالمية والمساهمة في الكوارث وآخرها كانت مساهماتها في تسونامي، مع عدم إغفال البعد التنصيري الواضح في بعض هذه المؤسسات، الأمر الذي جعل الحكومة الإندونيسية تصدر قرارًا بعدم مغادرة أي طفل إندونيسي تحت سن معينة خارج إندونيسيا خوفًا من استعمال تلك المؤسسات لأعمال الإغاثة في تهريب الأطفال والعمل على تنصيرهم.

هذه المؤسسات العالمية تتحرك بثقل الدول الغربية التي تتواجد فيها، وتعتمد على ميزانيات خيالية، وتقدم لها الدعم والمساندة والتسهيلات، بينما نجد كيف حوربت اللجان الخيرية الإسلامية ذات الميزانيات المتواضعة وألصقت بها تشكيلة محترمة من التهم، بعضها مضحك وبعضها سفيه حتى أن بعضها يقوم على أخطاء في ترجمة اسم اللجنة إلى اللغة الغربية!!

ورغم فارق التعامل بين المؤسسات الإنسانية الغربية مما تلقاه من دعم ومساندة، والمؤسسات الخيرية الإسلامية التي تحارب من أطراف عدة ويتم التضييق عليها، فإن ثمار المؤسسات الإسلامية وبفضل الله تعالى وتوفيقه ثمار طيبة شهدت لها حتى تقارير الأمم المتحدة.

*** الوجه الآخر للغرب:**

وهذا الغرب الذي يراه البعض ماردًا جبارًا في الاهتمامات الكونية والإنسانية هو نفسه الغرب الذي قاد حربين عالميتين كادتا أن تقضيان على البشرية، وهذا الغرب الذي يقدم المساعدات للشعوب هو نفسه أول من ألقى قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما في شهر (أغسطس ٥٤٩١م) حتى أن مجلة «التايم» وفي صدر صفحتها الأولى نقلت كلمة الكابتن «روبرت لويس» بعد إلقاء القنبلة: «يا إل هي . . ما هذا الذي فعلناه» !!

ولا نريد الاستطراد أكثر في هدايا الغرب لشعوب العالم الثالث، وأحسب أن

الشعوب الأوروبية والأمريكية لاهية في الشأن الداخلي، لا تعلم حقيقة ما يفعل ساستهم من جرائم في حق الشعوب الأخرى، إلا ما تسمعه من بعض المفكرين الذين يدينون هذه الازدواجية التي يمارسها الساسة الغربيون ضد شعوب العالم الإسلامي.

وما ساهمت فيه وسائل الإعلام، وخاصة بعد إطلاق الأقمار الصناعية، فقد رأينا كيف نظمت الشعوب الأوروبية المظاهرات تلو المظاهرات ضد حرب أمريكا على العراق، وحتى من الشعوب الأمريكية خرجت المظاهرات ليس لأن صدام حسين بريء وعادل مع شعبه، ولكن لأن المصلحة الأمريكية والأمن الأمريكي - كما يرى البعض في أمريكا - لا تتطلب هذا التدخل الأمريكي، وبالتالي فلتحترق تلك الشعوب مع قياداتها الديكتاتورية، وقد رأينا الإحراجات التي تعرض لها رئيس الوزراء البريطاني «بلير»، كلما أكد تقرير جديد عن عدم وجود أسلحة دمار شامل!!

لقد تحولت بعض دول العالم الثالث بفضل الغرب وبركاته إلى مدافن نووية، الله وحده يعلم درجة الضرر الذي سببته لشعوب تلك الدول، مثلما تحولت دول أخرى إلى حقل تجارب لأسلحة الغرب الحديثة، وظهرت أمراض وأوبئة في بعض المناطق لم تكن معروفة من قبل، ولدينا نحن في منطقة كالخليج ارتفاع مريب في نسبة الإصابة بمرض السرطان الخبيث، ناهيك عن الإشارات الصادرة هنا وهناك عن وجود نسبة معينة مطلوب تدميرها من البنية التحتية في أية حرب، حتى يمكن إعطاء الشركات العملاقة عقودًا بمليارات الدولارات لإعادة إعمار وتأسيس البنية التحتية المتهالكة أساسًا.

إن هناك انفصامًا واضحًا ما بين الشعوب الغربية وبعض ساستها الذين امتهنوا الازدواجية، فتراهم يتكلمون بالقيم الديمقراطية ونشر الحريات واحترام الشعوب الغربية والظهور بصورة ملائكية أمام ناخبيهم، بينما يبخلون على أعدائهم بمحاكمة عادلة على جرائم قد تكون حقيقية يستحقون عليها العقوبة أو تكون وهمية مفبركة

ويكتفون برميهم في معتقلات غير معترف بها ولا ينطبق عليها أي قانون إنساني أو شيطاني مثل تجربة «جوانتانامو» المريرة.

إن الغرب يبحث عن الزلات للشرق بالميكروسكوب في قضايا حقوق الإنسان، وينسى جرائمه التي ترى بالعين المجردة، ولو كان الغرب صادقًا في دعوى الإنسانية، لحاسب إسرائيل على سجلها المخزي العفن في مجال حقوق الإنسان واحتلال الأراضي منذ أكثر من نصف قرن، كما حاسبها على مخزونها النووي الذي يهدد المنطقة واستقرار العالم أجمع.

إن رئيس وزراء فرنسا غَيَّر الحكومة الفرنسية بعد يوم واحد من رفض الشعب الفرنسي الموافقة على الدستور الأوربي، ولو مرت تلك الحادثة في إحدى دول العالم الثالث التي نعرفها لغيَّر الحاكم الشعب وأبقى الحكومة!!

إن الشعوب التي تقضي الصيف في الكاريبي والشتاء على جبال الألب، يحق لها أن تتظاهر من أجل قطة نسيها صاحبها معلقة على الشجرة أو من أجل كلب لا يجد بيتًا يأوي إليه، أو حيوانًا يتعرض للانقراض.

ولكن الشعوب العربية والإسلامية التي تعاملها بعض الحكومات بأقل مما تعامل به الحيوانات، لا تجد وقتًا للتظاهر من أجل القطط والكلاب وبقية الحيوانات؛ لأن هذه الحيوانات للأسف في بعض بلداننا تعيش أفضل من الإنسان، وربما لا نحصي عدد اللاجئين السياسيين الذين تمنوا أن يتحولوا إلى طيور مهاجرة يستطيعون أن يجتازوا حدود بلادهم المكبلة بالحديد والنار، ويدخلوا إلى أرضهم ووطنهم فلم يفلحوا، وبقيت أمنياتهم دواوين شعر وأنّات وروايات تحرق الصدور والقلوب.

إن مبدأ تبني هموم الناس مبدأ أصيل في الإسلام لا يمكن إنكاره، وقد جعل الله من أسباب دخول جهنم بعد الكفر بالله هو عدم الاهتمام بالمساكين والمحتاجين، قال سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [١].

فجعل عدم الحض على طعام المسكين بعد الكفر بالله من أسباب دخول النار والعياذ بالله.

وفي الحديث الذي حسنه الألباني: قال رسول الله ﷺ: «لأن أمشي مع أخ في حاجة، أحبّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد (يعني مسجد المدينة) شهرًا» [٢].

وقد رأينا نماذج من تبني هموم الناس منذ القرن الهجري الأول، وحتى يومنا هذا، فهذا أبو بكر الصديق عندما أمر الرسول ﷺ بالصدقة، تصدق بكل ماله، وعندما سأله الرسول ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، أجاب: «أبقيت لهم الله ورسوله» [٣]، وهذا الفاروق رضي الله عنه يقول: «لو مات جَديٌ بطفّ الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر».

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه لكثرة صدقته قال فيه النبي ﷺ: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» [٤].

وهذا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما امتلأ بيت المال بالصفراء والبيضاء، قام وفرقه على فقراء المسلمين وهو يقول: «يا صفراء! يا بيضاء! غرّي غيري».

وهذا الحسن بن علي رضي الله عنهما من فضائله أن قال فيه جده \: «ابني هذا

---

(١) الحاقة: ٣٠ ـ ٣٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥٣) (١٣٦٤٦)، والأوسط (٦٠٢٦)، والصغير (٨٦١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩١): «رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سكين بن سراج وهو ضعيف»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، والحاكم (٣/ ١٠٣) عن عبد الرحمن بن سَمُرَة. وقال الترمذي: «حسن غريب»، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

سيّد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين»[(١)]

ولو مضينا نتتبع اهتمام السلف والخلف بهموم الناس لما انتهينا من إيراد الشواهد والروايات بل تعدى هموم الناس لدى المسلمين إلى حالة متقدمة من الإيثار.

قال شيبة بن نعامة: «لما مات علي بن الحسين رضي الله عنهما وجدوه يعول مائة أهل بيت، قال الذهبي: قلت ولهذا كان يبخل، فإنه كان ينفق سرًا ويظن أهله أن كان يجمع الدراهم»!!

*** مبدأ التواصي والنصيحة:**

وهذا الاهتمام بالشأن العام لم يكن محصورًا في جيل من الأجيال أو قرن من القرون وإن كانت القرون الثلاثة الأولى قرون الخيرية، فقد امتد الاهتمام بالشأن العام إلى مختلف نواحي الحياة وشهد الوقف الخيري أنواعًا مختلفة تعكس تنوع الاهتمامات الاجتماعية والبيئية للمجتمع المسلم، والاهتمام بالشأن العام لا يرتبط باجتهاد شخصي أو مبادرة ذاتية، بل هي قيمة أساسية حث عليها الإسلام، قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [(٢)].

وكان الرسول ﷺ يحث أصحابه على الاهتمام بسد ثغرات المجتمع وحاجاته فيقول لهم: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكّوا العاني»[(٣)].

فمبدأ المسارعة إلى الخيرات والتواصي بالخير والنصيحة والاهتمام بالشأن العام مبدأ له أصوله الموجودة في نصوص الشريعة، وتطبيقاته موجودة عبر التاريخ الإسلامي، وما التراجع الذي شهده الاهتمام بالشأن العام إلا نتيجة منطقية لحالة التوجس التي تعيشها معظم الأنظمة السياسية لدى العالم الثالث من الفعاليات

(١)أخرجه البخاري (٣٦٢٩)، وأبو داود (٤٦٦٢)، والترمذي (٣٧٧٣)، والنسائي (٣/ ١٠٧)، وأحمد (٥/ ٣٧، ٣٨) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢)المؤمنون: ٦١.

(٣)أخرجه البخاري (٥٣٧٣)، وأبو داود (٣١٠٥)، وأحمد (٤/ ٤٠٦) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

والأنشطة المدنية في تلك الدول، ونظر تلك الأنظمة إلى تلك الاهتمامات بأنها سحب للبساط من النظام من خلال تكوين الشعبية الجماهيرية التي تكتسبها الفعاليات الاجتماعية النشطة بسبب اهتمامها بهموم الجمهور والناس، إنما للقيام فقط بما يكفل تلميع النظام وتحويل تلك المهمة الإنسانية إلى مجرد شعارات ومؤسسات مدنية خالية من المضمون.

ولهذا السبب تلقى الاهتمامات بالشأن العام وخدمة المجتمع عزوفًا لدى قطاع عريض من الجماهير في دول العالم الثلاث، لما تجلبه من متاعب وريبة وقلق لدى الأجهزة الأمنية، ويكفي أن تنظر إلى نتيجة المظاهرات في الدول الغربية التي يستمعون فيها إلى الموسيقى ويتبادلون النكات والابتسامات، وبين مظاهرات العالم الثالث التي تنتهي الجماهير فيها إما إلى المستشفيات للعلاج وإما إلى السجون والمعتقلات!!

وهذه علة العلل التي تحتاج إلى من يقف عندها ويتأمل فيها.

ü ü ü

تاريخ العدوان على القرآن

كالعادة حالات شاذة تلك التي دنست المصحف الشريف في معتقل المتعة والترفيه «جوانتانامو» الإنساني، مثلما كانت حالات شاذة تلك التي اعتدت على إنسانية المعتقلين في «أبو غريب»، وكذلك حالات شاذة التي دخلت مساجد الفلوجة وقتلت الجرحى والمصابين، وحالات شاذة تلك التي قصفت بالخطأ قافلة عرس أفغانية، وحالات شاذة تلك التي تدعم الإدارة الأمريكية بالمشورة والنظريات حتى أصبح الشذوذ هو سيد الموقف في أمريكا، وأصبح الشذوذ هو القاعدة، بينما القاعدة في جزء كبير منها حبيس «جوانتانامو» منذ أكثر من ثلاثة أعوام ودون اتهامات.

* **خطوط العداء الممتدة:**

من الكذب والمبالغة الادعاء بأن من يقوم بهذه الأفعال الكريهة يمثل الشعب الأمريكي بكامله، لكن هذا لا ينفي التوجه اليميني المتطرف لدى الإدارة الأمريكية الحالية، وهذا لا ينفي أن هناك شخصيات ورموزًا أمريكية هامة تغذي العداء الصريح ضد الإسلام، وهذا لا ينفي وجود تعليمات غير مكتوبة من قبل شخصيات رفيعة في القوات الأمريكية للتصرف مع المعتقلين في «أبو غريب» أو «جوانتانامو» بهذه الطريقة.

بل نكذب على أنفسنا إذا قلنا: إن العداء موجه للفكر الحركي الإسلامي وفي الركيزة منه الفكر الجهادي التكفيري، ولو كانت المسألة كذلك لاعتبرت (أحداث ١١ سبتمبر) حالة شاذة، ولم يتم تحميل المملكة العربية السعودية وزر هذه الفعلة الغبية، ولما تم اجتياح أفغانستان والعراق، وتهديد سوريا وإيران بسبب تنظيم يعيش في جبال أفغانستان.

خط العداء للإسلام موجود، وسواء وجد هذا الخط بسبب سوء الفهم للإسلام أو بسبب الحقد المعشعش في العقول أو القلوب، أو بسبب الاثنين معًا، ومن المكابرة أن يتم نفي هذه الحقيقة، بينما يعاني المسلمون منها في الولايات المتحدة

وأوروبا.

وإلا فما معنى أن يقوم واعظ مسيحي بوضع لافتة تحمل إساءة للقرآن الكريم أمام كنيسته في ولاية شمال كارولينا على أكثر الطرق ازدحامًا في الولاية، وهل فاض الحقد بهذا الواعظ بحيث لم يعد يتسع صدره لهذا الحقد مع القرآن فتحول إلى لافتة أمام كنيسة دانيال تاون المعدانية.

وماذا عن «الفرقان الحق» الكتاب الذي صدر الجزء الأول منه في مطلع عام ٢٠٠٤م ليكون بديلاً عن القرآن الكريم كما يزعمون حيث في النية إصدار الكتاب كاملاً خلال أربع سنوات في اثنى عشر جزءًا.

هذا المسخ المزيف صدر عن دارين للنشر في أمريكا هما: واين برسي، وأوميجا، ويباع في المكتبات الأمريكية كما يباع على الإنترنت في موقع أمازون، والكتاب مكون من ٦٦٣ صفحة ومكون من سبع وسبعين سورة ومن أسماء السور: الفاتحة، والمحبة، والمسيح، والثالوث، والصلب، والزنا، والماكرين، والرعاة، والإنجيل، والأساطير، والكافرين . . .

والكتاب ـ الذي يقال: إنَّ لجنة أمريكية إسرائيلية ألفته ـ مطبوع باللغتين العربية والإنجليزية، وقد ألقى «أنيس سورس» وهو قس فلسطيني وأحد أعضاء اللجنة الذين ساهموا في تأليف القرآن الأمريكي محاضرة حاقدة في جامعة «هيوستن» دعا فيها إلى إبادة المسلمين؛ لأن الإسلام دين إرهاب وسفك دماء، وأن القرآن هو المصدر الأول للإرهاب، وأنه يجب القضاء على هذا القرآن للقضاء على الإرهاب!

واقترح على الحكومة الأمريكية طرد أي مسلم من أمريكا، وتجميع كل المسلمين في منطقة الشرق الأوسط، ثم إبادتهم بالقنابل النووية، وطلب الدعاء إلى الله كل ليلة سبت لإزالة الإسلام والقرآن... وكانت محاضرته في الجامعة في غاية العنصرية والحقد والشتم، مما اضطر رئيس الجامعة إلى الاعتذار عنها في اليوم التالي!!

وتقوم المنظمات اليهودية الكثيرة في أمريكا بالترويج لما تُسميه «الفرقان الحق»،

ونشره وتوزيعه على مختلف المراكز هناك، وتوزيعه على مراكز منتقاة في العالم العربي والإسلامي، وإعطائه لشخصيات مختارة في هذا العالم، لكنهم لا يريدون نشره على مستوى واسع في العالم العربي والإسلامي في هذه المرحلة على الأقل!

وقد ذكر «وليد رباح» رئيس تحرير صوت العروبة، التي تصدر في أمريكا، حادثة جرت له، تتعلق بنشر كتاب «الفرقان الحق» حيث اتصل بقس أمريكي عَرَّف نفسه بأنه «القسيس الياهو» ـ والياهو: اسم يهودي وليس نصرانيًا ـ وسلمه نسخة من الفرقان الحق، وطلب منه نشر سوره على صفحات جريدته «صوت العروبة» مقابل مليونين من الدولارات، وهو مبلغ كبير قدمه رشوة له!!

فأعلن «وليد رباح» موافقته على النشر بشروط أن يوافق القسيس الياهو على الاشتراك في مناظرة حول القرآن و«الفرقان الحق» الذي يروجه، يكون هو الطرف الأول فيها، ويكون الطرف الثاني أي شيخ يختاره هو من المشايخ العاملين مع الجالية العربية والإسلامية في أمريكا!! فانسحب الياهو غاضبًا حسيرًا لأنه يعلم نتيجة المناظرة مسبقًا . . !!

***مناورة النضر بن الحارث:**

إذًا في ظل مثل هذه الأجواء لا يمكن النظر لمثل هذه الحوادث والخيوط ببراءة، فهي تشبه محاولات الجاهلي النضر بن الحارث عندما كان رسول الله ﷺ يجلس مجلسًا يشرح فيه محاسن الإسلام ويقرأ القرآن في مكة ، حيث كان النضر يجلس في نفس المجلس بعد انصراف الرسول ﷺ فيحدثهم بالقصص والأساطير التي تعلمها من أخبار ملوك فارس، حتى يصرف الناس عن القرآن خوفًا من أن يتأثروا بآياته ويعلنوا إسلامهم، هذا النضر بن الحارث قتله رسول الله ﷺ صبرًا يوم بدر، وعندما جاء المقداد للرسول ﷺ، وقال أسيري: قال له رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ـ عز وجل ـ ما يقول» فالنضر بن الحارث أول من استخدم مناورة إيجاد البديل لصرف الناس عن القرآن وتأثيره العجيب في القلوب.

يعلق سيد قطب ـ رحمه الله ـ على القصة فيقول: «إن محاولة النضر بن الحارث أن

يُلهي الناس عن هذا القرآن بشيء آخر يخدعهم به عنه، لم تكن هي المحاولة الأخيرة، ولن تكون.. لقد تكررت في صور شتى وسوف تتكرر.. لقد حاول أعداء هذا الدين دائمًا أن يصرفوا الناس نهائيًا عن هذا القرآن، فلما عجزوا حوّلوه إلى تراتيل يترنم بها القُراء ويطرب لها المستمعون، وحولوه إلى تمائم وتعاويذ يضعها الناس في جيوبهم وفي صدروهم وتحت وسائدهم... ويفهمون أنهم مسلمون، ويظنون أنهم أدوا حق هذا القرآن وحق هذا الدين!

لم يعد القرآن في حياة الناس هو مصدر التوجيه... لقد صاغ لهم أعداء هذا الدين أبدالاً منه يتلقون منها التوجيه في شؤون الحياة كلها... حتى إنهم ليتلقون منها تصوراتهم ومفاهيمهم، إلى جانب ما يتلقون من شرائعهم وقوانينهم، وقيمهم وموازينهم! ثم قالوا لهم: إن هذا الدين محترم، وإن هذا القرآن مصون، وهو يتلى عليكم صباحًا ومساءً وفي كل حين، ويترنم به المترنمون، ويرتله المرتلون؛ فماذا تريدون من القرآن بعد هذا الترنم وهذا الترتيل؟ فأما تصوراتكم ومفهوماتكم، وأما أنظمتكم وأوضاعكم، وأما شرائعكم وقوانينكم، وأما قيمكم وموازينكم، فإن هناك قرآنًا آخر هو المرجع فيها كلها، فإليه ترجعون!

إنها مناورة النضر بن الحارث، ولكن في صورة متطورة معقدة، تناسب تطور الزمان وتعقد الحياة، ولكنها هي هي في شكل من أشكالها الكثيرة، التي عرفها تاريخ الكيد لهذا الدين، على مدار القرون!

ولكن العجيب في شأن هذا القرآن، أنه ـ على طول الكيد وتعقده وتطوره وترقيه ـ ما يزال يغلب! إن لهذا الكتاب من الخصائص العجيبة، والسلطان القاهر على الفطرة، ما يغلب به كيد الجاهلية في الأرض كلها وكيد الشياطين من اليهود والصليبيين، وكيد الأجهزة العالمية التي يقيمها اليهود والصليبيون في كل أرض وفي كل حال!

إن هذا الكتاب لا يزال يلوي أعناق أعدائه في الأرض كلها ليجعلوه مادة إذاعية في جميع محطات العالم الإذاعية، بحيث يذيعه ـ على السواء ـ اليهود، ويذيعه

الصليبيون، ويذيعه عملاؤهم المتسترون تحت أسماء المسلمين!

وحقيقة إنهم يذيعونه بعد أن نجحوا في تحويله في نفوس الناس «المسلمين» إلى مجرد أنغام وتراتيل، أو مجرد تمائم وتعاويذ! وبعد أن أبعدوه حتى في خاطر الناس المسلمين من أن يكون مصدر التوجيه للحياة، وأقاموا مصادر غيره للتوجيه في جميع الشؤون . . ولكن هذا الكتاب لا يزال يعمل من وراء هذا الكيد، وسيظل يعمل، ولا تزال في أنحاء الأرض عصبة مسلمة تتجمع على جدية هذا الكتاب، وتتخذه وحده مصدر التوجيه، وهي ترتقب وعد الله لها بالنصر والتمكين، من وراء الكيد والسحق والقتل والتشريد . . وما كان مرة لا بد أن سيكون»[١].

لقد كان المسلمون دائمًا يُجِلُّونَ القرآن الكريم وقدسيته وعندما قام الحجاج ـ مثلاً ـ بضرب الدراهم ونقش عليها: «قل هو الله أحد» كره الناس ذلك لمكانة القرآن، وخوفًا من أن تمس الدراهم يد الحائض والجنب[٢]! ! بل إن فقهاء ملوك الدولة العثمانية تخوفوا أول الأمر من طباعة المصحف بدلاً من كتابته باليد خوفًا من أحبار الكفار وصونًا لقدسية المصحف. وتعكس المبالغة والتحوط اللذين أبداهما فقهاء تلك الفترة مكانة القرآن في قلوبهم.

ولذلك حرص أعداء الأمة دومًا على التعرض للمصحف الشريف بحرقه أو تمزيقه أو إهانته ـ عليهم من الله ما يستحقون. وانظروا ـ مثلاً ـ لما فعل نكفور ملك الروم عندما دخل طرسوس فكان أول ما فعله هو حرقه للمصاحف وتخريبه للمساجد[٣]، وهذا ما يفعله اليهود اليوم بمساجد ومصاحف فلسطين عندما حولوها إلى خمارات واسطبلات للخيول كما فعل الصليبيون من قبلهم، وكما فعلت القوات الأمريكية في بعض مساجد أهل السنة في العراق.

*** معركة المصحف مع أعدائه:**

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٠٥٤).

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

(٣) معجم البلدان (٤/ ٢٨).

إن معركة المصحف مع أعدائه قديمة منذ أول أيام الرسالة ومستمرة إلى يوم القيامة، فتارة يستخدمون أسلوب الخشونة في التعامل مع المصحف، فيحرقونه ويمزقونه، وتارة يستخدمون أسلوب النعومة والليونة، فيحاولون تحريفه أو تحريف معناه وتفاسيره، فتارة يقولون: إن القرآن يعتمد على التوراة والإنجيل في روايته، وتارة يحاولون البحث عن التناقض بين آياته أو سوره، وتارة يقولون: إنه بليغ ولكنه ليس بمعجز، وتارة يتعرضون للناسخ والمنسوخ، وتارة يتهمون القرآن بأنه أعاق المسلمين عن التفكير الحر، وتارة يقولون: إن منهج التشريع الإسلامي تنقصه الدقة والشمول، ولو تتبعنا ترهاتهم إلى نهايتها لما انتهينا إلا إلى حقيقة واحدة وهي حقدهم الشديد على القرآن ومحاولتهم الطعن فيه، والشيوعية في وقت عزها كان أكثر ما يضايقها وجود نسخة من المصحف في بيت مسلم روسي.

*** لسنا بأحسن حالاً:**

ومن الإنصاف ألا نختم قبل التعريج على ما فعله دعاة التجديد المنحرف، ومحاولة تقديم تفسير معوج لآيات القرآن الكريم ونصوصه، فهؤلاء أشد فتكًا وخطرًا على الإسلام والقرآن من الأعداء، وهؤلاء يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم ويقضي حاجات نفوسهم.

كما أن لدينا من الأنظمة القمعية ما يعتبر قدوة لكل أعداء القرآن، تلك الأنظمة التي تخلط متعمدة بين الإرهاب وأي نوع من أنواع الالتزام الديني، حتى غدا كل متمسك بدينه عند هؤلاء إرهابيًا بالضرورة، حتى صارت الصلاة شبهة، والعثور على آثار السجود في الجبين والركب والأقدام حجة على الانتماء لـ «الحركة الأصولية المتطرفة»، وأصبح وجود المصحف في المنزل مثار شبهة قد تؤدي إلى الاعتقال.

وفي هذا الصدد يذكر صحفي من هذه البلاد، بخجل مما حصل في بلاده، وكيف صار الناس يستبدلون المصاحف وكتب التراث، بقوارير الخمر (الويسكي والشامبانيا)، في رفوف منازلهم، لتأكيد براءتهم من الانتماء للحركة الأصولية، وصار ارتداء الحجاب جريمة يعاقب عليها القانون . . ولا حول ولا قوة إلا بالله

العظيم.

إن للقرآن أعلى حظوة لدى المسلمين، وهو عندهم ليس مجرد كتاب صلوات، أو أداة نبوية، أو غذاء للروح، أو تسابيح روحانية فحسب، بل إنه أيضًا القانون السياسي، وكنز العلوم، ومرآة الأجيال، إنه سلوى الحاضر وأمل المستقبل.
ولو اتسع المقام، لكنَّا أوردنا كيف كان السلف الصالح يجلّ القرآن ويحفظه ويتدارسه ولا يمل قراءته، ولا يتنازل عن ورده وكيف كان يعمل به، فيلتزم أوامره وينتهي عن نواهيه لا كما يفعل كثير من مسلمي اليوم الذين هاجوا وماجوا لما فعل الأوغاد في «جوانتانامو» بينما هم هجروا القرآن وهجروا العمل به.

ü ü ü

الفصل الثاني
في واقعنا الاجتماعي

المبحث الأول
قبل أن تنقرض الجدية من حياتنا

قضيتان نعاني منهما في المجتمع الكويتي:

* قضية الحسد الذي يتفق الجميع على أنه موجود لدينا بكميات في العالم كله.

* قضية كثرة الشكوى، وتضخيم المشاكل، والاكتفاء فقط بالبكاء على اللبن المسكوب، حتى إن جزءًا كبيرًا من مجالسنا يخصص لتغذية الإحباط في النفوس، مع إيجاد المبررات للنكوص وعدم الجدية وتحمل المسؤولية.

وأصبحت لدينا عادات سيئة مع كل مشروع أو فكرة بحيث إما أن نضخمها حتى نشعر بالعجز أمامها أو نهون من أمرها ونحتقرها حتى نشعر أنها لا تستحق عناء التنفيذ، وكل ذلك من أجل الهروب من تحمل التبعات والمسؤوليات، حتى أصبحنا نحتاج إلى حملات إعلامية لكي نحث شبابنا على العمل والإبداع وتحفيز الذاتية لديهم، فكم من أعمال وخطط بدأت ولم تكتمل بسبب الفتور والكسل، وكم من أناس رضوا بأن يعيشوا على هامش الحياة مع ما حباهم الله به من مواهب وإمكانات.

إن مثل هذه النماذج تمتلئ بها حياتنا ومن حولنا، فتراهم لشدة كسلهم وافتقادهم لقيمة الجدية في حياتهم، يستسهلون الأمور، كما يستسهلون إصدار الأحكام دون تثبيت؛ لأنهم فقدوا جدّية التحري والبحث عن الحقيقة، ولذلك فهم عادة ما يفجرون في الخصومة؛ لأنهم يفتقدون الصبر والطاقة على قراءة الآخر قراءة صحيحة، فهم يضجرون بسرعة ويتملكهم الكسل بشكل غريب فيؤثرون إصدار الأحكام على الآخرين بدلاً من تعب النفس في فهمهم المواقف المخالفة.

كما إنهم سريعو الاستجابة للإشاعات والأراجيف وبناء المواقف عليها، ويتأففون كذلك من الالتزام بالنظام إلا فيما وافق الهوى، وتجدهم يتهربون من مسؤولياتهم المباشرة أو يقصرون فيها سواء في الوظيفة أو مع الأسرة، فتنحصر

الوظيفة لديهم في «ختم الكرت» والإفطار الصباحي، ومسؤولية البيت في توفير المصروف الشهري، وحرص على تحقيق المكاسب بأقل الجهود حتى لو تم ذلك عن طريق تجاوز من يستحق تلك المكاسب من خلال سبله إياها وتجييرها لصالح النفس مثل الترقية في الوظيفة، أو تجاوز الدور في انتظار السكن الحكومي، وغيرها.

*** مظاهر عدم الجدية:**

ومن مظاهر عدم الجدية في حياتنا هذا الكسل المستحكم في كثير من الناس، بحيث رضوا بالدون من كل شيء، وتركوا السعي إلى المعالي والفضائل، حتى تحول الكسل مع مرور الأيام إلى عجز تام، وفي الحديث الذي رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل»[١].

أصحاب هذه الطبيعة التي تتحكم في كثير من الناس وتمنعهم من الجدية يحتاجون إلى وقفة صادقة مع النفس يراجعون كشف خسائرهم بسبب الإهمال والكسل وترك الجدية في الأمور كلها، بينما الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه يحيى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾[٢]، قال القرطبي في تفسيره: «بقوة: أي بجد واجتهاد، وروى معمر أن الصبيان قالوا ليحيى: «اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خُلقتُ»[٣].

إذن فأخذ الأمور بجد وعزم من خصائص النخبة والرواحل، والثروة الحقيقية التي تملكها الدولة أو الأمة ليست في الأموال أو الأجهزة والآلات، وإنما هي في الإنسان الجاد القادر على أخذ الأمور بقوة وجد وحرص مستشعرًا المسؤولية التي يجب الوفاء بها.

ومن مظاهر الجدية أن يجد الإنسان راحته في العمل والبذل والعطاء، وتحقيق

---

(١)أخرجه البخاري (٢٨٩٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢)مريم: ١٢.

(٣)تفسير القرطبي (١١، ١٢/ ٦٢).

الأحلام والطموح، والانشغال بالأهداف الكبرى والسعي لتحقيقها.

ومن مظاهر الجدية التفكير الدائم في مشاريع الخير التي تنفع الناس والمجتمع.

ومن مظاهر الجدية العمل في كل الظروف والأحوال والبيئات ومواجهة العقبات والعوائق، والعمل على إزالتها وتذليلها.

ومن مظاهر الجدية النشاط الدائم والعطاء المتصل، والحركة الديناميكية الفاعلة مع الأشخاص والظروف، وعدم الانعزال عن الناس والاستسلام لدواعي الكسل والخمول والاكتفاء بالحد الأدنى من الأهداف والغايات، مع تحفيز دائم للعمل الجاد عماده إدراك حقيقة قصر العمر وكثرة الواجبات، وعظيم الأجر والثواب والنظر في أحوال البطالين والكسالى وما آل إليه أهل الخمول والعجز.

إن ديننا الحنيف دين الجد والعزم والحرص على الإنجاز، وما أعجب حديث النبي ﷺ الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: «إن قدمت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة، فليغرسها»[1].

فمن أراد أن يسود فعليه اجتياز السدود، وما أجمل قول الشاعر:

بالجد يبلغ ذو الآمال ما طلبا ... وبالوفاق ينال المرء ما رغبا

ما السر أن أسلافًا لنا سلفوا ... سادوا البرية فيما أورث العجبا

يأتي إليهم خراج الأرض قاطبة ... بذلك خاطب هارون الهدى السحبا

هل كان ذاك بغير الجد حالفه ... حسن الوفاق وإلا فاذكروا سببا

وهو قريب من قول الإمام الشافعي:

إن الذي رزق اليسار فلم يصب ... حمدا ولا أجرا لغير موفق

فالجد يدني كل أمر شاسع ... والجد يفتح كل باب منغلق

*** من واقع التجربة:**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٨٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٦٣): «رواه البزار ورجاله أثبات ثقات».

أقول هذا الكلام عن أهمية الجدية في حياتنا وأنا أقدم لكم اليوم نموذجًا واقعيًا من حياتنا حول قيمة الجدية في حياتنا والثمار التي نجنيها إذا ما أخذنا أمور حياتنا بجد وعزم واجتهاد. .

أحد الإخوة رزقه الله بولد يعاني من مرض «الداون» وهو مرض شديد الخصوصية يحتاج إلى رعاية من نوع خاص ومتاعبه شديدة، وأمام هذه الحقيقة كان لابد من أن يأخذ قراره للتعامل مع هذه الحال الخاصة بانتهاج أحد طريقين:

الطريق الأول: السهل البسيط، وهو ما يفعله الأغلبية الذين يواجهون نفس المشكلة، وهو عزل الولد في البيت مع إحضار مربية خصوصية له لترعاه وتقوم بحاجاته، ومحاولة إبعاده عن عيون الناس خوفًا من الشماتة، أو المعايرة وبعدًا عن أي احتكاك قد تكون نتيجته الإحراج والضيق.

والطريق الثاني: هو الطريق الصعب، الذي يحتاج إلى تفرغ ومتابعة شخصية وجهود مضنية للتعامل مع هذه الحالة، وقد قرر هذا الأخ أن يسلك الطريق الثاني مستعينًا بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ورافضًا منهج النعامة في دس الرؤوس في الرمال، منطلقًا في مواجهة هذه الحالة الخصوصية من ثلاثة أسس اعتبرها البيئة الفكرية التي تعينه على مواجهة تلك المشكلة:

الأساس الأول: أن أولادنا خلق من مخلوقات الله، جعلها الله لدينا أمانة، ونحن محاسبون عليها يوم القيامة، وأن من تمام المسؤولية القيام بواجب هذه الأمانة بناء على المعطيات والظروف التي يسوقها الله ـ سبحانه وتعالى.

الأساس الثاني: أن نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ عديدة لا تحصى ولا تعد، ولا يعرف الإنسان أي نعمة يسوقها الله إليه لتكون سببًا في دخوله الجنة، وقد ساق الله إليه هذه الحالة ليجعلها من أسباب كسب الأجر والثواب والاحتساب عند الله ـ سبحانه وتعالى.

الأساس الثالث: التعامل مع ما قسم الله للإنسان بلا حرج ولا خوف، مع قبول

تام بما قضى وقدر الله، فلا يستحي الإنسان أو يخجل من فقر ولا نسب ولا مرض، فليس الفقر بعيب ما دام مقترنًا بالشرف والكفاح، وليس النسب بعيب ما دام مقترنًا بالتقوى وكرم النفس، وليس المرض بعيب ما دام سببًا للتقرب إلى الله طلبًا للشفاء ومعرفة بالنعم التي أنعمها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الأصحاء ووجوب شكرها.

من هذه الأسس الثلاثة بدأ هذا الأب يضع الأسس لحياة ولده المصاب بمرض «الداون»، فلم يعزله، ولم يسجنه بين جدران المنزل، بل تواصل معه بشكل طبيعي وجعله يعيش حياته وسط الناس بمعطيات المرض وطبيعتها، وكان ذلك قبل خمسة عشر عامًا، حيث لم يكن يسمع بهذا المرض ربما إلا المتخصصون من أهل العلم.

وكان لا يشعر بأدنى حرج في اصطحاب ابنه في كل مكان، سواء في المنتجعات حيث يغص المكان بالناس، أو إلى المسجد للصلاة حيث يراه جميع الناس من كبار وصغار، أو إلى أي مكان آخر، حيث جعل هنا الأب رسالته في الحياة هي توفير البيئة الطبيعية لولده، فمارس معه الأبوة بحنان وعطف ولم يحرمه من حقه بالاستمتاع بالحياة، ورآه يكبر أمامه، فيزوده بما يستطيع ويستوعب الولد من خبرات الحياة.

وبدأ الوالد يفكر كيف يصقل مواهب ولده، فأدخله في دورات عديدة، وتعب على تربيته ومتابعة حالته، والتضحية في سبيل راحته، وترك في سبيل هذا الهدف كل القضايا الهامشية الأخرى.

فهل ضيّع الله جهد الجادين وحرمه من ثمرة هذا الكفاح الصمت وهذه التضحية التي عز مثلها في هذه الأيام.. أبدًا والله!!

فقد حصد ولده ميداليات الذهب للأولمبياد الخاص لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الذي نظم في لبنان عام ٢٠٠٢م، ثم توج ذلك بنيله إعجاب وتشجيع الجمهور في أيرلندا عام ٢٠٠٣م حيث نظمت منافسات الأولمبياد الخاص، وتمكن من تحقيق الميدالية البرونزية العالمية في مسابقات السباحة، وبهذه الإنجازات

أثبت هذا الابن أنه ليس عيبًا ولا عارًا أن يولد الإنسان وهو مصاب مرض الدوان، فهناك ٢٠٠٠ من أبنائنا مصابون بمثل هذا المرض، وآلاف آخرين مصابون بإعاقة ذهنية مثل التوحد وغيره.

فليس من المفترض أن نحكم عليهم بالموت وهم أحياء، فنعزلهم عن المجتمع والحياة الطبيعية، فهناك من أمثالهم حوالي ١٧٠ مليونًا على مستوى العالم مختلفين في الديانات والأجناس والبلدان، ويعاملون بشكل راقٍ في الدول المتقدمة، وتجهز لهم الإمكانات لتنمية مواهبهم واستغلال طاقاتهم.

ونحن نضم صوتنا إلى صوت النواب الذين طالبوا بإنشاء مُجمع لرعاية هذه الفئة والتي لا ينبغي أن نتضامن مع الظروف ضدها، وتتعرض قضيتهم للإهمال ومطالبهم البسيطة بتوفير نادي رياضي للنسيان.

لقد نشرت الصحف المحلية الأسبوع الماضي أن فائض المال للدولة قد تجاوز المليارى دينار، وهذا فضل من الله ونعمة عظيمة ينبغي شكر الخالق عليها، ومن شكر الخالق الاهتمام بالفئات الضعيفة في المجتمع ومن ضمنهم ذوي الاحتياجات الخاصة الذين لا يطالبون بشيء مستحيل، وخصوصًا أن الحكومة الحالية تعتبر أغنى حكومة مرت بتاريخ الكويت بعد أن قفزت أسعار النفط قفزاتها الأخيرة.

إن الحكومة مطالبة برعاية هؤلاء المواطنين بالذات، بدلاً من أن تضيع الأموال هباءً منثورًا بسبب الفساد المالي، فويل لمن هم في مواقع المسؤولية والأمانة أيًا كانت مناصبهم ثم لا يتقون الله في أموال الدولة، ويتجرؤون على استحلالها بأخذ الرشاوى بطرق ملتوية فيها رائحة اللعبة الذكية وليس فيها رائحة الضمير النظيف، بحيث يخرج الواحد منهم عن طريق العمولات والسمسرة بعشرين مليونًا أو ثلاثًا وعشرين مليونًا ويعتقد أنه رابح بمثل هذه الصفقة، بينما تحرم تلك الفئات الضعيفة من مبنى رياضي يكلف أقل من ذلك المبلغ بكثير.

فهل يعتقد بعد ذلك المرتشي أو هذا الخائن للأمانة أنه سيوفق في أولاده وذريته؟ لا أظن ذلك وستريه الأيام ثمرة أكل الحرام!!

*** الجدية عملة نادرة:**

بعد أن استعرضنا نموذجًا مشرفًا من الإصرار والجدية والاهتمام في حياتنا نعود إلى أصل الموضوع حيث شدني فيديو لنشاط إسلامي كان ولدي الصغير مشاركًا فيه قبل ثلاثين عامًا، وهو نشاط نظمته جمعية الإصلاح الاجتماعي، وكان النشاط يجمع بين المسرحية الهادفة والفعاليات الاجتماعية المفيدة، لأطفال في سن الخامسة والسادسة من عمرهم يستعرضون فيه حياة أعلام المسلمين كالخوارزمي وابن قتيبة بلغة عربية راقية، وذلك بإشراف شباب نشط وفعال في ذلك الوقت.

وقد رأيت وأنا أستعرض الشريط وأستعيد الذكريات حالة الجدية التي كان الشباب يعيشها في تلك الفترة، بعيدًا عن الترفيه الذي يعيشه شبابنا اليوم، وقد تابعت الشريط فوجدت فيه مسلسلاً تلفزيونيًا اسمه: «تحت ظلال السيوف» يستعرض فيه حياة ضرار الأيوبي، وكان في المسلسل عبارات عربية بلغة سليمة واعتزاز عربي قومي ليس بهدف عنصري، بل بهدف الاعتزاز بهذا الدين.

وقلت في نفسي: إن أمثال هذه المسلسلات كانت تعرض في السابق على الرغم من قلة المحطات التلفزيونية التي كانت تبث، واليوم على الرغم من عشرات المحطات التلفزيونية والتي أصبحت معظمها كغثاء السيل، أتحدى أي فضائية أن تبث هذا المسلسل دون أن تتهم بالإرهاب والتحريض على العنف.

لقد أعادني شريط الفيديو إلى مشاهد ومواقف وذكريات تؤكد أن قيمة الجدية في حياتنا سابقًا هي أفضل منها اليوم.

فلا عادت هناك جدية، في أصالة التفكير، وتقديم الإبهار الفكري.

ولا عادت هناك جدية، في أصالة التنفيذ، والإبداع في إتقان العمل.

وبسبب هذه الجدية المفتقدة أصبح من السهولة أن تنتقد أي عمل ينفذ، سواء في المعمار أو الهندسة أو الطب أو الوعظ أو الإدارة وغيره من المجالات؛ لأن الجدية اختفت من حياتنا وتتعرض للتآكل، وهكذا يمكن أن تجد قرارات إدارية رديئة

وسيئة ومتخلفة؛ لأن من أصدرها لم يمارس عمله بجدية ويتمعن في الدائرة الإدارية التي يشرف عليها قبل أن يعمم القرار، ووجدنا أخطاء طبية فظيعة بعضها يفضي إلى الموت بسبب افتقادنا لقيمة الجدية، وأخذ الأمور بلا مبالاة وسطحية.

ووجدنا مبانٍ وعمارات بها من الأخطاء والعيوب التي يدركها الجاهل قبل العالم، والتي تخفيها الواسطات المتفشية في البلدية هنا، وهناك، حتى خطب الجمعة لم تعد بذلك التأثير على المصلين؛ لأن بعض الخطباء للأسف افتقدوا الجدية في تحضير خطبة الجمعة واحترام جمهور المصلين الذي يتكبدون حر الصيف وبرد الشتاء ليأتي في منتصف يوم الجمعة للخطبة.

بل حتى التيارات السياسية لم تعد بتلك النظرات الاستراتيجية وتلك الهيبة في التنظير والتأطير لبرامجها، وخدمة المجتمع، وتحولت مناشطها إلى أعمال روتينية لتسويد صفحات التقرير الأدبي والسياسي، وتفرغت للمشاحنات السياسية الضحلة والإثارة التي ليس من ورائها طائل أو فائدة للمجتمع.

إن الجميع مطالب بإعادة قيمة الجدية في حياتنا من خلال مجاهدة النفس على عدم استسهال الأمور والرضى بالسطحية والتفاهة، مع مواجهة النفس وقراءة سير السلف الصالح ومدى جديتهم في حياتهم وأمورهم، ومصاحبة أصحاب الهمم العالية النفوس التواقة للعطاء والبذل والابتعاد ما أمكن عن توافه الأمور وما من شأنه الهبوط بالعزائم وتضييع الأعمار والأوقات فيما لا يفيد.

ولا أعتقد أننا لا نملك قيمة الجدية، بل فقط غافلون عنها بسبب حياة الترف والدعة، وإلا فإن أجدادنا وآباءنا قد واجهوا صعوبة الحياة في الماضي بجديتهم وتحملهم للمسؤولية، وليس عنا ببعيد الجهود التي بذلها الجيل السابق في بناء الكويت الحديثة.

وأقرب من ذلك ظهور المعدن الأصيل للمواطن أثناء الغزو الغاشم، فقد قدم الشعب الكويتي أروع الأمثلة في تحمل المسؤولية التاريخية والوطنية، وتعامل بجدية مفرطة ومسؤولية غالية مع ظروف الغزو، فالمواطن لدينا يملك الإمكانات وقادر

على ممارسة الجدية بأعلى مستوياتها، وما يريده فقط أن ينتبه إلى ثمار الجدية الطيبة.
فعندما يمر العمر ويقف عند المحطة الأخيرة سيدرك المسوفون أي جريمة ارتكبوها في حق أنفسهم، ولكن ساعتها للأسف . . لا ينفع الندم!!

ü ü ü

عطاء بلا انقطاع

الحديث عن انقراض الجدية، يدفعنا إلى الحديث عن الوجه الآخر والمكمل للجدية وهو الاستمرار بالعطاء، والبذل دون أن ينخفض الخط البياني للعمل الدعوي مع استمرارية دائمة للروح الوثابة المتحفزة للعطاء، وعدم الانقطاع والذبول عن مواصلة العمل لدين الله بلا ملل أو توقف، ما دام هناك قلب ينبض ونفس يتحرك..

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أقسم أن الإنسان لفي خسر،واستثنى أصحاب الصفات الأربعة من هذه الخسارة؛ وهم المؤمنون الصالحون الذين يعملون الصالحات، ويتواصون بالحق، ويتواصون بالصبر، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[1]. فهم الذين يعصرون زمان حياتهم وينتفعون بما فيه من ساعات وأيام، وشهور وأعوام، وهم أهل الإيمان الصحيح المتبوع بالعمل الصالح، ثم الدعوة إلى الحق والتواصي به،ثم الصبر على ما يأتيهم من الأذى بسبب دعوتهم إلى الحق، فهذه الآية تلخص مهمة الإنسان المسلم في الحياة، وغير ذلك ففصول وتفاصيل لا ترقى إلى المهمة الأساسية للمسلم في الحياة.

وهذه الصفات للذين يريدون إلاَّ تصيبهم حالة الخُسر التي تصيب الإنسان لا تتم إلا بالصفة الرابعة، وهي التواصي بالصبر والثبات على الحق؛ لأن طريق الحق شاق،والالتزام به مكلف، وهو يحتاج إلى جدية وثبات؛ لأن ثمن الالتزام غالٍ وباهظ، سواء ثمن استمرار السير بنفس الروح الجادة الوثابة، أو ثمن مجاهدة النفس للثبات على هذا الطريق والارتقاء بالنفس إلى مقام الهمة العالية،وتحمل الأذى الذي تلقى به الخصوم نتيجة الثبات على المبدأ والدعوة إليه.

هذا الثبات المطلوب والاستمرارية في العطاء لا تغيره الظروف ولا الزمان ولا

---

(١) العصر:١-٣.

المكان، فالمؤمن هو المؤمن والداعية هو الداعية في المنشط كما في المكره، وفي الرخاء كما في الشدائد وفي أول العمر كما في آخر العمر، وبين قومه كما في غربته لا يلهيه زمان ولا مكان عن أداء رسالته والاستمرار عليها، ولا يلهيه تقلب الزمان عن مواصلة السير نحو غايته مصداقًا لقول الشاعر:

إذا كان يؤذيك حرّ المصيف ويبس الخريف وبرد الشتاء

ويلهيك حسن زمان الربيع فأخذك للعلم قل لي: متى؟!

وقد حذر رسول الله ﷺ من الهبّات الفورية التي يعقبها انقطاع وتكاسل وفتور، فقال ﷺ في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها وأخرجه الإمام البخاري: «سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[١].

فالرسول ﷺ يوجهنا إلى أن رحمة الله وقبوله للعمل هي السبب في دخولنا الجنة، فالكم القليل الثابت والمستمر خير من الكم الكثير المتقطع، ويؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ الذي يثني فيه على استمرار واتصال العمل، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل»[٢]. فالشاهد في الحديث هو الدعوة إلى دوام العمل واستمراره وعدم انقطاعه، والصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما هو نفسه الذي قال: «لأصومّن النهار ولأقومن الليل ما عشت، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال له: «أنت الذي قلت ذلك؟»، قال: نعم يا رسول الله، قال: «إنك لا تطيق ذلك» ثم أمره أن يصوم يومًا ويفطر يومين، فقال: أطيق أكثر من ذلك، فقال: «صم يومًا وأفطر يومًا» ، قال: أطيق أكثر من ذلك، فقال النبي ﷺ: «لا أكثر من ذلك» هذا صيام داود، وعندما كبر عبد الله بالسن وصار يشق عليه أن يصوم يومًا ويفطر يومًا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩)، والنسائي (٣/ ٢٥٣)، وابن ماجه (١٣٣١) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

قال: «ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ»[(١)].

فالاستمرار بالعمل والثبات عليه هي الحالة المثلى المطلوبة، وكم من أعمال أنجزت، وكم من جهود كتب الله لها النصر بسبب الجدية والصبر والاستمرار والثبات عليها، والتاريخ يحدثنا عن قيمة الثبات والاستمرار في العمل حتى يؤتي ثماره.

ومن ذلك: القصة العجيبة لفتح صقلية التي كانت تمثل وجعًا لولاة شمال أفريقيا حيث استشرى عدوان الروم على سفن المسلمين من هناك وجاءت اللحظة المناسبة (سنة ٢١٢هـ) عندما قاد القاضي: «أسد بن الفرات» الجيش المسلم حتى وصل إلى الجزيرة ولقي مقاومة عنيفة هناك بسبب التحصينات والإمدادات التي تصل للجزيرة، وكان ميزان المعارك متكافئًا بين الطرفين، حتى وصلت الإمدادات للروم، فانقلبت الريح لصالحهم واضطر المسلمون إلى إخلاء عدة حصون والانسحاب إلى الشاطئ فلاحقتهم الروم وسحقت كتائبهم المتراجعة في مواقع طاحنة حتى انتشر المرض وبدأت المجاعة تهددهم حتى أكل الجنود الجلود.

وختمت هذه الحالة المأساوية بوفاة أسد بن الفرات وتأخر المدد في الوصول إليهم، وأضحت الحملة على شفا الفناء والهلاك بعد سنتين من القتال المرير، وهنا تأتي أهمية الثبات والاستمرار عندما ثبت المسلمون على أطراف الشاطئ ووصلهم المدد والأساطيل الإسلامية، ولأن الجزيرة كانت شديدة الوعورة استمر فيها الجهاد أكثر من نصف قرن حتى تم استكمال فتحها بكاملها فهل هناك جدية وإصرار واستمرار وثبات بعد هذه القصة، وقد زهت صقلية بروائع الحضارة الإسلامية لمدة مائتي سنة قبل أن يستردها الروم سنة (٤٦٤هـ).

ولو أردنا أن نستطرد في إيراد مثل تلك الشواهد التاريخية لأطلنا كثيرًا، ولكننا نقصرها في هذا الصدد على شخصين من كبار الرجال في التاريخ وشخصيتين من

---

(١)أخرجه البخاري (١٩٧٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

النساء في وقتنا المعاصر لنعلم أن الجدية طبيعية لا ترتبط بزمن أو جنس بل هي شأن الجادين والجادات.

*** حتى الرمق الأخير:**

لما مرض أبو يوسف الإمام الفقيه صاحب أبي حنيفة جاءه أحد تلاميذه يزوره، فوجده مغمى عليه، فلما أفاق قال له: ما تقول في مسألة، فقال له الزائر: وأنت في هذه الحالة؟ فأجابه: لا بأس بذلك، ندرس، لعله ينجو به ناج! فما انتهى الزائر من الزيارة وقام من عند الإمام ووصل إلى باب الدار، حتى سمع الصراخ عليه، فإذا هو قد مات ـ رحمه الله تعالى،ضاربًا المثل في قضية الاستمرار في عصر العمر والحرص عليه في طاعة الله تعالى.

ومثل ذلك الإمام الطبري الذي مكث أربعين سنة، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة وبحسبة بسيطة نجد أن الإمام قد كتب ما يزيد عن النصف مليون ورقة في علوم الشريعة والتاريخ والفقه وغيرها!! فهذه هي الاستمرارية التي تؤكد جدية صاحبها، ومن أراد أن يستزيد فليرجع إلى (سير أعلام النبلاء) أو (صفوة الصفوة) أو كتاب الشيخ أبي غدّة: (قيمة الزمن عند العلماء).

مثل هذه النماذج، ليس بالضرورة أن تكون الهدف لكل من يريد أن يحافظ على العطاء طوال حياته ولا ينقطع عن عمل الخير، فقد وهب الله لكل إنسان طاقاته ومواهبه وقدراته الشخصية التي تجعل منه بصمة خاصة.

ولذلك يجب أن ينتبه الإنسان إلى قدراته وينميها ثم يعرف أين يمكن أن يعطي ويقدم، فيقدم ولا يحجم، ولا يحمل نفسه ما لا يستطيع السير به مسافة طويلة، وليحذر معوقات الطريق وأسباب ودواعي التساقط والتكاسل والفتور، كالهوى واحتقار الذنوب والاستهانة بتراكم الأوزار والتعلق بفضول المباحات، والإحباط ونفوش الباطل، والتوسع في المباحات وترك الواجبات، والفتور في العبادات واستثقال الطاعات، والانشغال بالدنيا والانغماس في الشهوات، فهي كلها من مسببات انقطاع الأعمال والدوام والاستمرارية في فعل الخيرات.

* **وللنساء نصيب:**

وإذا كانت نماذج الثبات والاستمرار على العطاء قد مثلناه في الزمن الماضي بشخصيتي الإمام أبي يوسف الفقيه والإمام الطبري، فإن لدينا نماذج نسائية مشرقة في الوقت المعاصر لا تقلّ بذلاً وعطاءً عن الرجال.

النموذج الأول: من مصر العزيزة: وهي الحاجة «زينب الغزالي» ـ رحمة الله عليها ـ التي كانت كتلة من الحماسة والحركة منذ بداية عقدها الثاني، وما وصلت سن الثامنة عشرة من عمرها حتى أسست جمعية السيدات المسلمات في (عام ١٩٣٧)، وكانت تعقد ١١٩ اجتماعًا في العام الواحد!! كما أصدرت مجلة، وزارت الكثير من الدول العربية والإسلامية لنشر الدعوة الإسلامية وإلقاء المحاضرات الدينية، وأمضت من عمرها مكافحة ومجاهدة في سبيل فكرتها ودعوتها أكثر من ٥٣ عامًا تعرضت خلالها للاعتقال سنة ١٩٦٥ بعد أن رفضت مقابلة جمال عبد الناصر بسبب اغتياله لعبد القادر عودة، مما عرضها للتعذيب الشديد في السجن، والذي أرخته في كتابها الشهير «أيام من حياتي» وبقيت الحاجة زينب الغزالي وفية للدعوة بعد أن خرجت من المعتقل في بداية السبعينيات، فاستمرت تدعو إلى الله بلا كلل ولا ملل ولا تأفف ولا اعتراض وكان كل همها ألا ينقطع الخير الذي بدأت به مسيرتها، حتى انتقلت إلى رحمة الله تعالى بعد مسيرة دعوية حافلة يحسدها عليها الرجال والنساء.

أما النموذج الثاني: فهو من بلدنا الحبيب الكويت، حيث تعمل تلك المرأة الفاضلة في مجال الدعوة وخدمة المجتمع والعمل الإسلامي والخيري والتربوي والثقافي النسائي مدة تزيد عن الربع قرن، كانت فيه مثالاً للعطاء الصامت، ورمزًا للبذل المتفاني والتضحية اللامحدودة، وذوبانًا وعشقًا في العمل الدعوي، كما هي رمز لإهدار حقوق الذات بالنظر إلى صالح المجموع، وهي من عائلة كريمة أباً عن جد وعمها من مؤسسي الإصلاح الاجتماعي، وبقية إخوانها وأعمامها من أهل الخير والفضل وتشهد لهم الكويت بالعطاء المشهود.

إنها «أم سالم الراشد» رئيسة اللجنة النسائية بجمعية الإصلاح الاجتماعي، تلك اللجنة التي حملت عبء العمل النسائي وساهمت مساهمة فعالة مع اللجان النسائية المشابهة في الجمعيات الإسلامية الكويتية في صياغة جيل نسائي يحفظ هوية الكويت وأجيال الكويت من الذوبان في طوفان التأثيرات السلبية الوافدة.

إن الكويت يمكنها أن تفخر بأمثال الأخت «سعاد الجار الله» التي تركت مجالس اللغو والنميمة وضياع الوقت في الأسواق، وتفرغت لمهمة دعوية أسمى وأعلى، فصارت مثلاً بعد كل هذا العطاء للمرأة المسلمة عندما تصر على العطاء وتستمر فيه طوال كل هذه السنين من الخدمة العامة في سبيل العطاء المجتمعي، ساعدها في ذلك زوج كريم متفهم هو الأخ أبو سالم الراشد الذي لا يقل عطاؤه عن عطائها ولا بذله عن بذلها ولا قدراته عن قدراته، فكان قدر من أقدار الله أن يلتقي الطرفان على هواية جمع الحسنات والدعوة إلى الله فكانوا مثالاً للأسرة التي عاهدت ووفت ولا نزكي على الله أحدًا.

إن أمثال هذه النماذج في القديم والحديث، ومن الرجال والنساء كثيرة وموجودة في مجتمعاتنا لكنهم يبخلون بأوقاتهم أن تضيع على تلميع ذواتهم وأنفسهم في وسائل الإعلام، فهم يعملون بصمت ويتعاملون مع الله، حتى أصبحت نفوسهم الكبيرة تأبى التوقف والنزول من قطار الدعوة وخدمة الآخرين فهو قدرهم الذي رضيت به نفوسهم واطمأنت له قلوبهم.

*** الناس على دين ملوكهم:**

ولدينا في الكويت نحن قدوة في سمو أمير البلاد على قضية الاستمرارية والإصرار على إنجاز الأعمال وتحقيق الآمال، ولا نجد دليلاً ساطعًا على ما نقول أوضح من إصرار القيادة السياسية ممثلة بسمو الأمير وسمو ولي العهد على تحرير الكويت من الغزو الغاشم على الرغم من فارق القوة بين الجيشين، والبلدين.

ولكنها كانت حرب إرادات وإصرار قبل أن تكون حرب جيوش فقد انتصرت الإرادة السياسية الكويتية بفضل من الله - سبحانه وتعالى، ثم بقوة الحق الكويتي

الذي وقف خلفه رجال بقامة سمو الأمير وتحركاته الحكيمة والموزونة والتي أكدت طبيعة كويت الخير والعطاء حيث وقف سمو الأمير في عز الأزمة وذروتها في الأمم المتحدة وأسقط الديون عن الدول الأكثر فقرًا.

فكان تأكيدًا لأصالة تلك الدولة ورجالها الكرام الذين لا يبخلون بالعطاء في وقت العسر كما في وقت اليسر، وما قبل النفط وما بعد النفط، ولأن الناس على دين ملوكهم فقد أصبحت أيادي الشعب الكويتي البيضاء مفتوحة للخير لا تعلم شمالها ما تنفق يمينها، وانتشرت أعمال الخير التي تقيمها في قارات الدنيا الخمس، حتى أصبح اسم الكويت في ذهن كثير من الشعوب الإسلامية مرادفًا لفعل الخير والعطاء.

إن الاستمرار على العهد وعدم الضيق بطول الطريق ومعوقاته، هي التي تليق بالكبار الذين يعيشون من أجل الأفكار الكبيرة، وإن شبابنا اليوم بحاجة شديدة وماسة إلى تلك القيم، حتى لا يستسهلوا الطريق وتقصر هممهم عن نيل المعالي، فمن كان عالي الهمة . . لا يرضى بها دون الجنة!!

ü ü ü

المبحث الثاني
بين بقايا الجاهلية والفوائد الدعوية

أجد نفسي مدفوعًا لأبدأ بدفع شبهة مسبقة ربما تفهم على غير ما أردت من العنوان، فلست داعية لعصبية أو عنصرية أو عرقية، وكل همي اليوم فك التشابك بين النعرات العنصرية والتفاخر الكاذب بالأحساب والأنساب وتقديمها على الدين والتقوى، وبين أهمية معرفة علم الأنساب وما ينبني عليها من فوائد إنسانية وأحكام شرعية، دافعنا في ذلك مقولة علامة الجزيرة الشيخ «حمد الجاسر» التي نبه فيها إلى: «اتجاه الإنسان للاستفادة مما أثمرته المدنية الحديثة من مخترعات وآلات، وهو اتجاه قد يُعتبر من ضرورات هذا العنصر ـ نأى به عن التحلي بكثير من المثل العليا التي تحكم صلاته بينه وبين أخيه الإنسان على أساس التآلف والمحبة، وإحكام روابط الإخاء، وأواصر القربى، ومن ثم نشأ جهله ـ بعد تجاهله ـ بتلك الأواصر، فاتسعت شقة التباعد بينه وبين ذويه الأقربين، بعد أن غمره طغيان إحساسه بالاستغناء عنهم».

وعلى الرغم من أن هناك رأيًا منسوبًا لابن خلدون يقول فيه أن علم الأنساب: «علمٌ معرفته لا تنفع،والجهل به لا يضر» فإن لابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» رأي مخالف حيث يقول: «قد جعل تعارف الناس بأنسابهم غرضًا لله ـ تعالى ـ في خلقه إيانا شعوبًا وقبائل، فوجب بذلك أن علم النسب علم جليل رفيع، إذ به يكون التعارف».

ولذا لا يوجد تناقض بين الاهتمام بعلم الأنساب وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]. إذا كانت النية تطويع ذلك العمل لخدمة الأهداف الإنسانية والشرعية والتي سنأتي عليها لاحقًا؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال في مفتتح الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) الحجرات: ١٣.

﴿أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [(١)].

وقد قيل في سبب نزول الآية ـ كما في تفسير القرطبي ـ أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، حيث قال للرجل الذي لم يتفسح له في المجالس: ابن فلانة!! فقال النبي ﷺ: «من الذاكر فلانة؟»، فقال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «انظر في وجوه القوم»، فنظر فقال: «ما رأيت؟»، قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر، فقال: «فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى»[(٢)].

ومن خطبة النبي ﷺ في مكة قوله ﷺ: «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيّن على الله، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب»[(٣)].

ومن هذه الآية تأتي أبيات الشعر المشهورة والمنسوبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

نفس كنفس وأرواح مشاكلة ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء

فإن يكن لهم من أصلهم حسبٌ ... يفاخرون به فالطين والماء

والنبي ﷺ قدوتنا في ذلك، ففي مرض موته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يعتمد على رحمه في الذهاب إلى المسجد حيث كان يتهادى بين العباس والفضل رضي الله عنهما، وعندما ائتم بأبي بكر آخر مرة صلى بها، كان يقف أيضًا في الصلاة بين الفضل والعباس، في إشارة لطيفة أن الإنسان في لحظات الضعف والوهن يلجأ إلى أرحامه وأقاربه وعصبته فيعرف فضلهم ويقوم بوصلهم، ولا يكون ذلك على حساب أخوة الدين ورابطة العقيدة، فلا يستلزم ذلك تناقضًا بأي شكل من الأشكال وحب الرسول ﷺ لأصحابه وخصوصًا صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ثابت

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٧٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الترمذي: غريب، وصححه الألباني.

بالأدلة الصحيحة.

ففي حديث البخاري أن النبي ﷺ صعد جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان – رضي الله عنهم – فرجف بهم الجبل فضرب برجله، وقال: «اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان»(١)، وعندما حدث في يوم من الأيام شيء بين أبي بكر وعمر تمعّر وجه رسول الله ﷺ وقال انتصارًا لأبي بكر رضي الله عنه: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟! قالها مرتين فما أوذي أبو بكر بعدها»(٢)، كما قال في عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك»(٣).

هذا التناغم بين رعاية صلة الرحم، وحفظ حقوق الأخوة الإيمانية كانت قضية محسومة وواضحة في حياة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكما أمر قبل وفاته بإكرام الأنصار وأبناء الأنصار، وذهب إلى مقبرة البقيع ودعا واستغفر للمسلمين، نجده ينفرد بابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنه، ويسر لها بسره الذي لم يعرفه أحد إلا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «اجتمع نساء النبي ﷺ فلم يغادر منهن امرأة فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال: «مرحبًا بابنتي» فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم إنه أسرَّ إليها حديثًا فبكت فاطمة ثم إنه سارّها فضحكت أيضًا، فقلت لها: ما يبكيك، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ فقلت:ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصك رسول الله بحديثه دوننا ثم تبكين، وسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله

(١)أخرجه البخاري (٣٦٧٥)، وأبو داود (٤٦٥١)، والترمذي (٣٦٩٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢)أخرجه البخاري (٣٦٦١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣)أخرجه البخاري (٣٢٩١)، ومسلم (٢٣٩٦)، وأحمد (١/ ١٧١) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

ﷺ، حتى إذا قبض سألتها، فقالت:إنه كان يحدثني «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة، وأنه عارضه به في العام مرتين ولا أراني إلا قد حضر أجلي،وإنك أول أهلي لحوقًا بي ونعم السلف أنا لك» فبكيت لذلك، ثم إنه سارني فقال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة»، فضحكت لذلك»[١].

فلا معنى أن ينكر الإنسان أصله أو نسبه أو يجهله أو يهمله بدعوى أن ذلك من كمال الإيمان، فهذا من الفهم المغلوط، ففي صحيح البخاري من حديث سعد أن النبي ﷺ قال: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام»[٢].

ومن أجل هذا الترهيب حصلت العناية بعلم النسب، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجبير بن مطعم من أعلم الناس بالنسب، وقد أمر النبي ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلم من نسب قريش ما يحتاج إليه، وكان سعيد بن المسيب والزهري والشافعي من أعلم الناس بالأنساب، وذلك لأهمية هذا العمل وفوائده الكبيرة وعلاقته بالعديد من الأحكام الشرعية، كالمواريث وولاية النكاح والكفاءة الزوجية والاستحقاق في الأوقاف، والوصايا وتحمل الديات من العاقلة وغير ذلك من الأحكام.

فالإسلام لا يعرف الطبقية ولا العنصرية ولا العصبية المقيتة، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى، ولكن ذلك لا يعارض التفاوت في الأعراق والأصول، فهذه سنة الله في خلقه، ومن ذلك ما هو معروف من أن قريشًا أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، ولكن عند الله يبقى بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي أفضل من أبي لهب عم النبي ﷺ، فالفضل للتقوى والعلم بدين الله.

وعندما خطب أسد بن الفرات قاضي القيروان ذات يوم في أكبر جمع التف حوله

---

(١)أخرجه البخاري (٦٢٨٦)، ومسلم (٢٤٥٠)، وابن ماجه (١٦٢١) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢)أخرجه البخاري (٤٣٢٦)، ومسلم (٦٣)، وأبو داود (٥١١٣)، وابن ماجه (٢٦١٠) عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة رضي الله عنهما.

من عامة الناس، قال لهم: «يا معشر المسلمين، ما ولي لي أب ولا جدّ ولاية قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام (أي بالعلم) فاجهدوا أنفسكم وابعثوا أبدانكم في طلب العلم».

وكان خالد بن الوليد يدرك قيمة نسب الإيمان والأخوة في الله، فكان كلما أوى إلى فراشه ذكر شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار ويقول: «هم أصلي وفصلي، وإليهم يحنّ قلبي».

*** فوائد علم الأنساب:**

فوائد علم الأنساب كثيرة جليلة، قد تغيب عن فكر من ينظر إلى هذا العلم بريبة باعتباره مدخلاً للتفاخر بغير التقوى،ومن هذه الفوائد التي تحث عليها الشريعة:

١ ـ معرفة نسب أفضل خلق الله كلهم وسيد ولد آدم ولا فخر سيدنا محمد ﷺ، فمعرفة هذا النسب يمكننا من معرفة البيت الهاشمي وبطونه وفخوذه وفصائله حيث السؤدد والشرف وعلو المقام.

٢ ـ التعارف بين الناس، حيث يتعارف الناس وينتسبون إلى أهلهم وفصلهم فتكون الأمور واضحة في العلاقات بين الناس، ويتم التعاون بينهم في قضاياهم الإنسانية والاجتماعية.

٣ ـ أهمية معرفة علم الأنساب في تطبيق الأحكام الشرعية، فبدون معرفة الأنساب لا يمكن الحكم في قضايا المواريث والأوقاف والولاية في النكاح ومعرفة عاقلة المسلم وغيرها من الأمور، وبالتالي فإن معرفة الأنساب تصبح من القضايا المهمة في إقامة الشريعة في تلك النواحي، فهي تصبح قريبة من علوم الآلة التي تساعد على فهم نصوص الشريعة وكيفية تطبيقها.

٤ ـ معرفة معادن الرجال وما عليه أصولهم من الاستعداد لمتطلبات الحياة من الشهامة والنخوة، وهذا يساعد في اختيار الرجال ومعرفة أنواع المهمات والأعمال التي توكل إليهم، مع ملاحظة أن أصالة النسب وحدها لا تكفي في القيم الاعتبارية

والاجتماعية ما لم يضف إلى ذلك خدمة يقدمها للمجتمع تتناسب مع أصالة نسبه. وهذه الفائدة ذات قيمة عظمى في العمل الدعوي وتجنيد الرجال في ميدان الدعوة، من خلال معرفة الاستعدادات الفطرية التي يتمتع بها الداعية، والتي في جزء منها معرفة البيئة الحاضنة التي صنعت أفكاره وقيمه وتربيته، وهي بلا شك تعود إلى العائلة والقبيلة في جزء كبير منها.

وأذكر أن أحد الشباب الطيبين تحدث عن فضل الدعوة إليه، وقال: إن للدعوة فضل عليه أكثر من فضل القبيلة التي ينتمي إليها ويعتز بانتمائه إليها، وهذه لحظة وفاء نادرة وصراحة عز مثلها هذه الأيام، فهو لا يجد تناقضًا فينسب الفضل إلى أهله،فقد كان يوجه الكلام لي ولابنه الصغير، فيقول له: هؤلاء لهم فضل علينا، فهم الذين علمونا الصلاة في المساجد ونصرة الدين، وهي قيم فاضلة لا شك أن قبيلته الكريمة من أول المؤمنين بها والمدافعين عنها، فاجتمع لديه النسب الأصيل والقيم الأصيلة، فتكاملت شخصيته بلا تناقض أو تنازع.

وعندما أطلق تصريحا كهذا استرجعت طبائع القبائل، فوجدت أنه من قبيلة العجمان الكريمة، واسترجعت بالتبعية تاريخ الجزيرة فوجدت أن أصل قبيلة العجمان من اليمن، حيث الحدود الجنوبية للمملكة العربية السعودية، فتذكرت مباشرة حديث النبي ﷺ: «الإيمان يمان»[1].

وهكذا يستطيع الداعية أن يقيس على هذه الأمور، ولكل قاعدة شواذ، فإذا ما كانت هناك قبيلة تتصف ببعض الخبث واللؤم، عليك أن تتوقع ذلك من بعض أبنائها عندما ينزع له عرق بتلك الصفة، مثلما تتوقع الكرم المفرط من أشخاص ينتمون إلى أحساب وأنساب مشهورة بشدة الكرم والجود.

وهذا وجه آخر لفوائد علم الأنساب، وهذا سبب آخر يخرج هذا العلم من تهمة العنصرية والتعصب، وأذكر أنني أعرف شخصا عرف في نفسه حدة الفكر والعقل

---

(١)أخرجه البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والملاحقة والمتابعة للأمور حتى إننا نسمع نصائح محبيه من حوله بأن يرحم نفسه؛ لأن هذه الأمور بالفعل تتعبه بين الحين والآخر، ويدرك في قرارة نفسه أن جسمه المسكين النحيل لن يتحمل عَقلَه الْـمُتعِبِ الذي لا يكف عن التفكير ومتابعة القضايا، وبالتمعن والنظر في شجرة العائلة، أدركت أن هذه القضية جاءت من عرق نزع من جهة والدته حيث إن والدته من فخد المسيليم من الحراقيص من بني قحطان من منطقة الأشيقر، وعندما سألت عن طبيعة هذه المنطقة في المملكة العربية السعودية عرفت أن أهلها مشهورون بحدة الفكر وقوة الذكاء.

فقضية النسب مهمة للداعية وهو يقوم بتقييم الأشخاص والمواقف والأعمال، وقد أجاد رسولنا ﷺ التعامل مع هذه القضية بأستاذية عالية، وانظروا ماذا فعل عليه السلام مع عبد الله بن أُبَيٍّ زعيم المنافقين، فقد هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة وكاد تاج الملك أن يوضع على رأس عبد الله بن أُبي، فلما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة تغيرت الأمور، وسارت عكس ما اشتهى زعيم المنافقين، لذلك كان موقفه شديدًا من الإسلام، ولكنه رأى أن معظم القوم قد تحولوا إلى الدين الجديد، فلم يرد أن يفقد ما تبقى له من مكانة وجاه، فتحول إلى الإسلام مكرهًا وهو يخفي النفاق والكفر، فكان رسول الله ﷺ يراعي هذه القضية ويصبر كثيرًا على أذاه، لمعرفته عليه السلام بخلفية الموضوع وطبيعة مكانة الرجل قبل وصوله إلى المدينة، وحتى لا يقال: «إنَّ محمدًا يقتل أصحابه».

هذه القضية تكررت في موقف آخر، وهذه المرة عند فتح مكة ومع أبي سفيان، فقد علم رسول الله ﷺ لخبرته العميقة في الرجال أن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فأطلق عبارته الشهيرة: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»[1]. فهذا من حنكة الرسول ﷺ وكسبه للرجال ومعرفته بمكانتهم وخباياهم، وإلا فمن دخل داره فهو آمن، لكن تخصيص دار أبي

(١)أخرجه مسلم (١٧٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سفيان إعلاء لشأن الرجل دون أن يعطيه ذلك ميزة عن الآخر فدار أبي سفيان آمنة كغيرها من الدور التي أغلق أهلها بابها عليهم.

تبقى قضية أساسية أخيرة في أهمية علم الأنساب، وهي أهمية معرفة الإنسان لنسبه حتى يستطيع القيام بصلة رحمه، وخصوصًا مع المدنية الحديثة التي جعلت الأجيال الناشئة تجهل الكثير من صلات القرابة التي تجمعها، وخاصة إن صاحب ذلك مشاكل عائلية باعدت بين الأقارب، وجعلت العلاقات العائلية مقطوعة أو باردة، وهنا يأتي دور الآباء والأجداد في تبصير الأبناء الأحفاد في القرابات وحقوقها.

*** صِلْ من قَطَعَك:**

الرحم كما هو معروف اسم شامل لكل الأقارب من غير تفريق بين المحارم وغيرهم، وصلة الرحم نوعان: رحم الدين، وهي رحم عامة تشمل جميع المسلمين، ورحم القرابة القريبة والبعيدة من جهة الأبوين، وقد اتفق أهل العلم على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [(١)].

ومن فضل وثواب صلة الرحم أن واصلها موصول بالله ـ عز وجل، فيبسط له في رزقه ويبارك له في عمره، وتمتلئ داره بالأحباب من القرابات والأهل، أما قاطع الرحم فيكفيه قول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[(٢)].

وتكون صلة الرحم إما بالفعل كالإحسان لهم، أو بالترك مثل كف الأذى عنهم، ويشمل ذلك التناصح والتشاور والعدل وأداء الحقوق والشفاعة الحسنة وتحمل الأذى وزيارتهم وعيادة مريضهم والإنفاق على المعسرين منهم ومشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم، مع التفريق في المعاملة بين أهل الاستقامة والتقوى والدين منهم عن أهل البدع والفسق والفجور.

وصلة الرحم تكون على درجات، فأعلاها: أن تصل من يسيء إليك من

---

(١) النساء: ١.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦)، وأبو داود (١٦٩٦)، والترمذي (١٩٠٩)، وأحمد (٤/ ٨٠) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

أرحامك، ومثال ذلك: ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع مسطح ابن خالته الذي كان ينفق عليه، بعد أن سعى في إشاعة الفاحشة على الصديقة بنت الصديق، أمَّا الثاني: فهو الواصل، وهو الذي يصل مَنْ قطعه، والثالث: هو المكافئ الذي يصل من وصله ويقطع من قطعه، والرابع: المقاطع وهو الذي يقطع من وصله وهذا مسيء، والأخير: وهو المسيء إلى أرحامه ـ عسى الله أن يهديه السبيل ويتجاوز عنه ـ فينتهي عن أذية أهله وأرحامه.

ومن هنا جاء حديث النبي ﷺ في معرفة الأنساب حيث قال ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر»[1].

وصلة الرحم لا ينبغي أن تكون بابًا للمخالفات الشرعية كمصافحة المرأة ودخول الرجال على النساء واختلاط الرجال بالنساء، وشهود حفلات الزواج المختلطة، وغيرها من التكلف الذي نهينا عنه شرعًا.

كما لا يجب أن تكون صلة الرحم على حساب العقيدة والولاء لله، فقد رأينا كيف تخلى نوح عن قومه، وإبراهيم كذلك، وكيف تبرأت آسيا زوجة فرعون من زوجها الكافر، وكيف وقف ابن عبد الله بن سلول في مدخل المدينة والسيف في يده وهو يقول لأبيه: «والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ﷺ»[2]. بل إن مصعب ابن عمير قتل أخاه عبيد الله يوم بدر، وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل خاله العاص ابن هشام.

فالعقيدة والولاء لها أعز من مجاملة أهل الكفر والباطل وتركهم يحاربون الله ورسوله، وفي التعامل مع الأقارب الكفار مسائل تحتاج إلى شيء من التفصيل لا يتسع لها المقام ولسنا بحاجة إليها، هنا في بلاد الإسلام والأسرة الواحدة والدعوة

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٩)، وأحمد (٢/ ٣٧٤)، والحاكم (٤/ ١٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: «غريب»، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٣) عن عكرمة مرسلاً.

إلى الخير.

المبحث الثالث
فتنة المجاهرة بالمعاصي

لا أعتقد أن هناك من يختلف على حقيقة التسارع الذي يشهده العالم في مجال التكنولوجيا وخاصة ثورة الاتصالات، وأن هذه الثورة أضافت المزيد من القلق في حياة البشرية، وأعتقد أنه من المناسب التوقف قليلاً لنتأمل في جانب من إسقاطات تلك الثورة المعلوماتية ولو بشيء من الإجمال على حياتنا الاجتماعية، ومدى تأثيراتها السلبية حتى ندرك مواقع الخلل كخطوة أولى من مراحل إيجاد البدائل والحلول.

والعاقل هو الذي يتأمل في المتغيرات التي تصيب المجتمعات البشرية وأثر تلك المتغيرات في تهديد كيان النسيج الاجتماعي، ليس بهدف الدعوة لإلغاء تلك المتغيرات التي أصبحت من ضرورات العصر، وقد تأكدت فوائدها وأهميتها إن تم ترشيدها للاستخدام بشكل إيجابي، ولكن بهدف وضع جهاز إنذار مبكر للتنبيه على الثغرات التي كونتها تلك المتغيرات في حياتنا الاجتماعية بهدف المضي قدمًا في التحديث والتطوير دون الاضطرار إلى السكوت عن الآثار السلبية لتلك المتغيرات بحيث تصبح مجتمعاتنا المحافظة عرضة لهذا القصف السلبي من القيم والممارسات.

ولعل جزءًا كبيرًا من المشاكل التي يعرضها علي بعض أولياء الأمور تحدد طبيعة تلك المشاكل والقاسم المشترك الذي يجمع بينها، ولأن الشباب هم عادة أكثر الناس تأثرًا بالمتغيرات وتقبلاً لها، وعملاً بها دون إدراك آثارها السلبية بشكل ناضج، يدفعهم ذلك حب التجديد والتجريب، وإثبات الذات فعادة ما يكونون هم الأكثر تعرضًا لمثل تلك المشاكل.

ولعل ما لفت انتباهي في العديد من تلك المشاكل هي تلك الجرأة على المحرمات وهي قضية لا ترتبط بشباب يمر بطفرة المراهقة، بل أحيانًا بكبار في فترة المراهقة المتأخرة، بحيث يصبح الإقدام على تلك المعاصي ممارسة يومية عادية تمر دون تأنيب من ضمير أو شعور بوازع ديني يمنع مثل تلك الممارسات.

*** لسنا مجتمعًا ملائكيًا:**

إن الحديث عن مجتمع بلا ذنوب أو معاصٍ حديث خرافة غير واقعي، وإلا لتحولنا إلى مجتمع ملائكي يسقط عنه التكليف؛ لأن الإنسان خطّاء ومن طبعه الخطأ، ومثلما يحاول أن يصل إلى الحالة الأخلاقية المثالية فإنه لا بد أن يرتكب بعض الأخطاء هنا أو هناك.

وليس بالضرورة أن تكون هذه الأخطاء عن نية مسبقة، بل هي اجتهادات جانبها الصواب وقد توقع ظلمًا على آخرين، مثلما قد يزل لسان الإنسان بكلمة غيبة أو نميمة، أو تشط العين إلى ما حرم الله أو تشطح الأذن لسماع ما حرم الله، وفي الحديث الشريف: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»[1].

فالخطأ متوقع من الإنسان، لكن هذا الخطأ يقع في لحظة ضعف أو من غير قصد، ويبادر بعده ابن آدم على التوبة حتى يغفر الله له،ويتجاوز عن زلـله.

أما أن يبادر ابن آدم إلى المعاصي والذنوب ويبذل الجهد والوقت للحصول عليها، ثم يرفض ستر الله له فيفاخر بها ويسعى لنشرها، ويدعو لها، فهذه قفزة في الانحراف ووبال على المجتمع، فالمجاهرة بالمعاصي عادة ما تكون البوابة لدمار وانهيار المجتمعات البشرية، فتنة المجاهرة بالمعاصي، فتنة عظيمة يستهين بها أصحابها: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ١٥﴾[2].

*** السقوط الغربي في الرذائل:**

لقد حملت الحضارات القديمة البائدة بذور فنائها عندما تجاوزت المحرمات البشرية وأغرقت نفسها باللذات الشهوانية والممارسات البهيمية، وكانت المرأة تبذل كالمتاع على مذبح شهوات النخبة في الليالي الحمراء حيث تدور في تصورهم كل أنواع الرذائل والانحطاط الأخلاقي.

---

(١)أخرجه مسلم (٢٧٤٩)، والترمذي (٢٥٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢)النور: ١٥.

وعندما جاءت الكنيسة استمر صراعها مع الوثنية فترة طويلة، وكانت الكنيسة تنظر للمرأة في العصور الوسطى نظرة شك وريبة باعتبارها مصدرًا للغواية والانحراف الأخلاقي، وقد جاء التعبير عن ذلك في كتاب (العادات الجنسية) حيث يذكر الكاتب ما نصه: «وهكذا كانت الحملة المسعورة تمضي بحماس شديد يستهدف النساء في الدرجة الأولى، وكأن الكنيسة قد وجدت أنه من الأنسب أن تطور هجومها عليهن النابع من كراهيتها لهن، من التنفير وإشاعة الشعور بالبغض نحوهن في قلوب الرجال إلى استئصالهن بتهمة ممارسة السحر»[1].

فقد شهدت العصور الوسطى هذا التشدد تجاه المرأة بسبب الانحلال الموجود الذي قاد لانهيار الحضارات البائدة، وهذه الممارسات التي وصلت في كثير من الأحيان ضد التعسف تجاه المرأة جعلت ردود الفعل قوية وفي الاتجاه المعاكس في الحضارة الغربية المعاصرة، حيث أعطيت الحرية المطلقة للمرأة لتفعل بنفسها وجسدها ما تشاء، بحيث سقطت مفاهيم الحياء والعفة وخرجت العلاقات الجنسية من التقييم الأخلاقي لتدخل في خانة التفاعل الكيميائي المادي والحرية الشخصية المفرطة، وبالطبع فإن سيادة مثل هذه القيم قد جرت المجتمعات إلى ما هو أبعد من ذلك كزنا المحارم، والشذوذ، ومختلف أنواع الانحرافات الجنسية والأخلاقية.

وقد قنن فرويد بنظرياته هذه الفوضى الجنسية حيث: «إن التحليل النفسي الذي ابتدعه فرويد مع ظهور الحركة الصهيونية منذ سبعين سنة لم يكن علمًا مجردًا كما يزعم، ولكنه وثيق الصلة في جوانبه المرضية والحضارية معًا بالفكر اليهودي الذي ظهر في التراث منذ عهد التوراة وما بعدها.

وإنه من أجل ذلك سخرت الصهيونية اليهودية حربها الإعلانية والدعائية لنشر مفاهيمه، والدعوة إليه من أوسع نطاق، حتى أصبحت الفرويدية من أقوى

---

(١)العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية: د. أحمد المجذوب، ص ١٥٩.

العوامل أثرًا في التوجيه الفكري والخلقي لعالم الغرب، وقد كان فرويد يهوديًا حقًا عضوًا عاملاً في بعض المنظمات وصديقًا لهرتزل»[1].

مثل هذه النظرية البائسة قادت الغرب نحو ما أسموه «التحرر الجنسي»، وقاد الشباب تلك الثورة المنحطة، فأصبح من الطبيعي أن نجد نوادي خاصة للمجاهرة بالمعاصي، وشواطئ للعراة، ومسابقات لطلبة الجامعة حول فنون الإغراء، والجرأة على التعري في الحرم الجامعي، والممارسات الجنسية الجماعية التي يتم فيها تبادل الزوجات، وغيرها من الموبقات التي لا نود الإطالة فيها.

يقول الجنرال الأمريكي المتقاعد «هاميلتون هوز» في كتابه الهام «السقوط التراجيدي... أمريكا عام ٢٠٠٢» تحت عنوان التحول الأخلاقي: «إن القليل منا يدرك أن بعض الظواهر الاجتماعية التي نعيشها في وقتنا الحاضر قد تؤثر بشكل مباشر على مستقبلنا.

ومن الظواهر التي لم تكن مألوفة في مجتمعنا، ثم تحولت إلى سلوك طبيعي بدعوى « الحرية الشخصية»: ظاهرة الإقبال على اقتناء أو مشاهدة الصور والمجلات الخليعة بين كل طبقات المجتمع الأمريكي وفئاته، وعلى وجه الخصوص بين موظفي الكونغرس وموظفي المحكمة العليا، على الرغم من الأمراض الجنسية التي قد تسببها تلك الصور الداعرة...

أنا لا أعتقد أن الخطر الأكبر الذي يهدد مستقبلنا يتمثل في القنابل النووية أو الصواريخ الموجهة آليا، ولا أعتقد أن نهاية حضارتنا ستكون بهذه الطريقة، إن الحضارة الأمريكية ستزول وتنهار عندما نصبح عديمي الاهتمام، وغير مبالين بما يجري في مجتمعنا، وعندما تحدث العزيمة على إبقاء الشرف والأخلاق في قلوب المواطنين».

ويذكر الدكتور (محمد بن سعود البشر) عن مجاهرة الشواذ بفسقهم وفجورهم

---

(١)أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الإباحية: مصطفى غزال، ص ٣٠، ٣١.

وانحرافهم: «أن أي نشاط سياسي معلن ومنظم لحركات الشاذين في الولايات المتحدة كان بعد تولي بيل كلنتون الرئاسة، وهو الترتيب والإعداد لتظاهرة سياسية على مستوى الولايات المتحدة، وقد تمثلت إرهاصات التحرك السياسي لهذه الفئة في مظاهرة اشترك فيها أكثر من مليون أمريكي أمام البيت الأبيض في السادس والعشرين من شهر إبريل ١٩٩٣م»(١).

إذن فنحن أمام طبيعة غربية تجاهر بالمعاصي وتسوقها وتعتبرها جزءًا طبيعيًا من النسيج الاجتماعي، وهي في طريقها لتقنين الشذوذ والسماح بزواج الشاذين والشاذات سواء في أوربا أو أمريكا، ونقرأ ما بين يوم وآخر عبر الصحافة عن موافقة إحدى الولايات أو الدول الغربية على تقديم راتب تقاعدي لمهنة البغاء أو الموافقة على إتمام مراسم الزواج بين الشواذ!!

*** إلا المجاهرين بالمعاصي:**

إذن نحن أمام ظاهرة اجتماعية وأخلاقية خطيرة، وقع الغرب في حبائلها وساعدت الطفرة التكنولوجية على مشاهدة بداياتها في عالمنا الإسلامي، وهي بكل الأحوال ليس قدرًا نهائيًا لا يمكننا إلا التسليم له، بل هي جهود بشرية هدامة يجب أن تقابلها جهود بشرية بمسؤولية أخلاقية عالية، ومعادلات تجارية تستغل تلك التكنولوجيا في تحقيق ربح سريع وعاجل قبل أن تتغير معطيات التكنولوجيا بسرعة، وهي كذلك، في مقابل معادلات أخلاقية تريد الحفاظ على قواعد المجتمع من إصابات العولمة بوجهها السلبي.

وإذا كنا نذكر فإن من القرارات التي لفتت النظر في أول أعمال الحكم الفيتنامي الجنوبي قرارًا بإلغاء البغاء، والرقص وكل الأعمال المنافية للأخلاق، وقد اتخذ هذا القرار أهمية قصوى في ترتيب الاهتمامات حيث كان البلاغ رقم(١) ، والدوافع الأساسية كانت واضحة في هذا القرار، فبيوت البغاء والدعارة وصالات الرقص

---

(١)دراسة البيت الأبيض «تسييس الشذوذ في وضح النهار»: د. محمد بن سعود البشر.

إنما هي أثر من آثار الوجود الأمريكي هناك أيام الاحتلال.

فيجب أن تكون هناك جهود تنصب في منع هذا السبيل من الفساد المستورد، الذي إن كان يناسب طبيعة تلك الشعوب ونسيجها الاجتماعي وحرياتها الشخصية، فهو بالتأكيد لا يناسب شعوبنا العربية المسلمة الموحدة الطاهرة المحافظة، ومن الصعب جدًا أن نتأقلم مع المجاهرين بالمعاصي والداعين إليها أو نسكت عليهم، فهذه حضارة غير حضارتنا وقيم غير قيمنا.

ويكفي فقط لنعلم مقدار الخلاف بين الحضارتين والرؤيتين أن أمريكا تنفق ١٠ مليار دولار سنويًا على المجلات والعروض الإباحية وهو ـ وهذا الشيء المضحك المبكي ـ نفس المبلغ المنفق على المساعدات الخارجية»[(١)] ، ولا بد قبل الاسترسال بالحديث عن آفة المجاهرة بالمعصية في حقيقته أن نتطرق إلى خطورة هذه المسألة قيميًا وأخلاقيًا، فالمجاهر بالمعصية هو الشخص الذي يرتكب الإثم فيستره الله ـ عز وجل ـ ولكنه يخبر به بعد ذلك وقد يدعو وينشره، مستهينًا بستر الله له.

وقد تكون المجاهرة بإظهار المعصية أو الحديث بها، وفي الحديث الرادع لتلك الفئة قول النبي ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[(٢)].

وللشيخ ابن عثيمين ـ يرحمه الله ـ رأي شديد في هذه المسألة، حيث يقول: «هناك قسم ثالث فاسق مارد ماجن، يتحدث بالزنى افتخارًا والعياذ بالله، يقول: إنه مسافر إلى البلد الفلاني، وإلى البلد الفلاني، وفجر وفعل وزنى بعدة نساء، وما أشبه ذلك، يفتخر بذلك... هذا يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، لأن الذي يفتخر بالزنى مقتضى حاله أنه استحل الزنى والعياذ بالله، ومن استحل الزنى فهو كافر»[(٣)].

---

(١) ٥٠ حقيقة ينبغي أن تغير العالم: جيسيكا ويليامز، ص ٢٧٨. ترجمة: الدار العربية للعلوم.
(٢)رواه البخاري (٥٧٢١)، ومسلم (٢٩٩٠).
(٣)شرح رياض الصالحين (١/ ١١٦).

فهؤلاء لا يكتفون فقط بارتكاب المعاصي بل يتجرؤون على معصية من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلنون بهذه المعاصي ويتفاخرون بها أمام الناس، ويدعون لها وينشرونها، وكأنهم استحلوها فلم تعد لديهم محرمة.

قال ابن القيم: «المستخفي بما يرتكبه أقل إثمًا من المجاهر المستعلن، والكاتم له أقل إثمًا من المخبر المحدث للناس به، فهذا بعيد عن عافية الله تعالى وعفوه»[(١)].

وقد ابتلينا هذه الأيام بموضة «البلوتوث» حيث تحول الجهاز النقال بسبب هذه الموضة إلى جهاز فضائح ذهبت ضحيته في كثير من الأحيان النساء الغافلات بسبب تصويرهن وهن في غفلة من هذا السافل الذي وجه كاميرا الهاتف لهن، وتطور الموضوع حتى تحول الجهاز إلى مخزن لتخزين الصور والأفلام الساقطة للساقطين والساقطات ولمن تريد أن تروج لنفسها ويرتفع سعر جسدها في سوق المتعة، حتى أصبح من المجاهرة بالمعاصي أن يلتقي الشباب أو الأقارب منهم وكل همهم أن يتبادلوا ما عندهم من جديد الصور الساقطة والفاضحة، بل وبعضهم لا يتورع عن القيام بمثل هذه المخازي حتى وهم في مجالس العزاء ـ والعياذ بالله.

إن في تناقل مثل هذه اللقطات الفاضحة إشاعة للفاحشة، وهي ينطبق عليها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[(٢)].

قال الإمام ابن القيم: «هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها؟!»[(٣)].

وقال الشيخ السعدي في الآية: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجرأته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستملاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٤٧).
(٢) النور: ١٩.
(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٤٨٤).

من ذلك من إظهاره ونقله»[(١)].

وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف»، قالت، قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا ظهر الخبث»[(٢)].

قال ابن بطال: «في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله وبصالحي المؤمنين وفيه ضرب من العناد لهم»[(٣)].

*** عاقبة المجاهرين بالمعاصي:**

فالمجاهر بالمعصية ماجن أثيم يغضب الله ـ عز وجل ـ وهو يحرم نفسه من عفو الله ـ تعالى، كما إنه محتقر من الناس ومهجور بسبب معاصيه، وهو كذلك يحل عرضه للناس بسبب حديثهم عنه وعن جرائمه، كما إن الجهر بالمعصية يجرئ الناس عليها ويدعوهم لها فيحمل أوزارهم، هذا إلى جانب إدمان الذنوب وموت القلب، والتعود على المعصية وعدم استنكار القلب لها.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه، فذاك الرين الذي ذكر الله ـ عز وجل ـ في القرآن: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[(٤)]»[(٥)].

فليحذر هؤلاء الذي يبثون لقطات البلوتوث الفاسقة أن يكون القصاص من أعراضهم، وليفكر ألف مرة قبل أن يلتقط جهازه ليبث هذه الصور إلى جهاز غيره، ويعتبر من ظهرت في الصورة أنها واحدة من قريباته أو يتذكر المعاصي التي

---

(١)تفسير السعدي، ص ٥٦٤.

(٢)أخرجه ابن ماجه (٥٥٩)، وفي الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات».

(٣)الفتح (١/ ٢٥٠).

(٤)المطففين: ١٤.

(٥)أخرجه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسَّنه الألباني.

سيحملها على ظهره بسبب هذا العمل الشائن، قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[(١)].

وفي الحديث الشريف: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[(٢)].

وقد قال الإمام ابن القيم في أضرار المعاصي: «ومنها أن ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه، وهو عند أرباب الورق غاية التفكه وتمام اللذة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يعلم أنه علمها، فيقول: يا فلان! عملت كذا وكذا، وهذا الضرب من الناس لا يعافون، وتسد عليهم طرق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب».

وليعلم من يتناقل تلك الصورة أنهم يخرجون من ستر الله، ويُحرمون المعافاة في الدنيا والآخرة مما ينذر بسوء الخاتمة وشؤم العاقبة، فلينتبهوا ويرتعدوا قبل أن يكون القصاص من أعراضهم، ويلاقوا سوء أعمالهم في الدنيا قبل الآخرة والعياذ بالله.

فما زال باب التوبة مفتوحًا، فالبدار البدار للتوبة والإنابة والاستغفار، وإن من التوبة:

* أن يقلع عن هذه العادة المرذولة.
* أن ينتهي عن استقبال أو بث مثل هذه الصورة والمقاطع الساقطة.
* أن يدعو الله ليل نهار بالمغفرة.
* أن يندم على ما فات، ويجدد النية بعدم العودة.
* أن يجتهد في نصيحة الآخرين بالابتعاد عن تلك الممارسات.
* أن يسعى في نشر الكلمة الطيبة والصورة الهادفة والنصيحة المخلصة.

---

(١) العنكبوت: ١٣.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٤)، وابن ماجه (٢٠٦)، وأحمد (٢/ ٣٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

* كما يجب على الآباء والأمهات أن يتعاهدوا أبناءهم وبناتهم بالنصيحة والتوجيه، حتى يكون الواحد منهم رقيبًا على نفسه مراقبًا لله - تعالى - في السر والعلانية.

ü ü ü

المبحث الرابع

الإسلاميون و«الثقافة البصرية» .. وئام أو خصام؟

يقف الإسلاميون اليوم على مفترق طرق بالنسبة لموقفهم من «الثقافة البصرية» التي أصبحت ذات تأثير طاغ على المجتمعات الإسلامية، ولم يعد من الممكن تجاهل تلك الثقافة المكتسحة للعقول والقيم والاكتفاء بالثقافة السمعية والشفاهية في خدمة الدعوة.

لقد كان الموقف الفقهي من «ثقافة الصورة» دائمًا يقوم على التوجس والتشكيك لأسباب منطقية وحجج قوية تدعم اتجاه «التحريم» و«التجريم» وإلقاء ظلال الشك والشبهات حول «الثقافة البصرية» وتوابعها.

والقرآن الكريم يعتبر البصر نعمة عظيمة ويربطها بالمسؤولية الأخلاقية مباشرة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[١]، وقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أكثر من آية كريمة المؤمنين بغض البصر، قال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[٢].

قال الإمام القرطبي: «البصر هو الباب الأكبر إلى القلب وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه،وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله»[٣].

وغض البصر أن يغمض المسلم بصره عما حرّم عليه، ولا ينظر إلا لما أبيح له النظر إليه ويدخل فيه أيضًا إغماض الأبصار عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره سريعًا.

ولذلك جاءت معاني البصر عميقة في القرآن، فقد يأتي البصر بمعنى القلب، قال

---

(١)الإسراء: ٣٦.

(٢)النور: ٣٠.

(٣)تفسير القرطبي (٢/ ١٤٨).

تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾[(١)]، وقد يأتي البصر بمعنى العين، قال تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[(٢)]، وقد يأتي البصر بمعنى الحجة، قال سبحانه: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾[(٣)]، وقد يأتي البصر بمعنى الاعتبار، قال سبحانه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[(٤)]، والعين كذلك قد تأتي في القرآن الكريم بمعنى القلب باعتبارها وسيلة التوصيل الفعالة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾[(٥)].

وجاء في الأحاديث النبوية الشريفة ما يثبت خطورة العين في شدة تأثيرها على القلب وهواه، ففي الحديث: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[(٦)]، وأيضًا نصيحة النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإنه لك الأولى وليست لك الآخرة»[(٧)].

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «حفظ البصر أشد من حفظ اللسان»، وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: «إذا مرت بك امرأة فغمض عينيك حتى تجاوزك»، وخرج سفيان الثوري في يوم عيد مع أصحاب له فقال: «إن أول ما نبدأ به يومنا غض أبصارنا».

وكان بعض السلف يقول: «من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته»، فكان السلف يرى من ثمرات غض البصر أن ينال صاحبه حلاوة الإيمان ونور القلب

---

(١)الأعراف: ١٩٨.

(٢)ق: ٢٢.

(٣)طه: ١٢٥.

(٤)الذاريات: ٢١.

(٥)الكهف: ١٠١.

(٦)أخرجه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٧)أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧) عن بريدة رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب». وحسّنه الألباني.

والفراسة، وطاعة الله وزيادة الورع؛ والحياء وراحة النفس والبدن.

ولذا اشتهر قول الشاعر العربي:

وأغض الطرف ما بدت لي جارتي   حتى يواري جارتي مأواها

فمع وجود كل هذه الشواهد والأدلة الشرعية تصبح العين محل مراقبة ومحاسبة عما ترى وتشاهد، فتصبح وسيلة نقل للقلب لكنها محاطة بأسوار من التشكك والمراجعة لكل ملتزم يخشى على قلبه من الذنوب والشبهات.

لقد كانت الدعوة إلى الله تتم عبر وسائل شفاهية متمثلة بالخطابة والموعظة والخاطرة وأشرطة الكاسيت أو بالكتابة عبر النشرات والمؤلفات وتصنيف الكتب، وهي مرحلة لا زالت مستمرة حتى اليوم، ويشهد الكتاب الإسلامي عادة في معارض الكتب العربية إقبالاً كبيرًا من زوار المعارض، نراها متمثلة في بعض الطبعات غير الشرعية التي تسعى لها بعض دور النشر لتعويض خسائرها من الكتب الأخرى، أو إعادة طبع كتب التراث الإسلامية الشهيرة والبحث في المخطوطات عن كتب أخرى ومحاولة تحقيقها ونشرها للعامة.

هذه المرحلة لا شك أنها موجودة ومستمرة، لكن سوق الكتاب بشكل عام تراجع بشكل ملحوظ أمام الثقافة السطحية التي تنشرها وسائل الإعلام البصرية، وهو تراجع «للثقافة الكتابية» أمام «الثقافة البصرية».

يقول الدكتور عبد الله الغذامي: «مرت الصيغ التعبيرية في الثقافة البشرية بأربع صيغ جذرية تمثل أربع مراحل مختلفة في التصور البشري، وهي: مرحلة الشفاهية ثم مرحلة التدوين وتتلوها مرحلة الكتابة وأخيرًا مرحلة ثقافة الصورة»[1].

«وسيكون من أهم التغييرات دخول فئات بشرية عريضة إلى عالم الاستقبال الثقافي، وهي تلك الفئات التي كانت مهمشة في السابق، إما لسبب ثقافي يعود إلى عدم قدرتها على القراءة بسبب الأمية، أو بسبب اقتصادي لعدم القدرة على شراء

---

(١) الثقافة التلفزيونية ـ سقوط النخبة وبروز الشعبي: الدكتور عبد الله الغذامي، ص ٨.

الكتب والجرائد، وهذا كان يحصر دوائر الثقافة حين سيطرة الكتابة حيث انحصرت المعرفة في فئات محددة وتغيب كثيرون ممن صاروا على الهامش، وقد أفضى هذا إلى ظهور النخب الثقافية وعلى ضفافها هوامش عريضة من الأميين الذين لا يعون ما يجري في عالم الثقافة الذي احتكرته الأنماط الكتابية»[١].

*** مخاوف تجاه الثقافة البصرية:**

الإسلاميون لديهم مخاوف مشروعة ومبررة تجاه «الثقافة البصرية» والتي كانت في جزء كبير من ممارساتها تفتقد للقيم الإيجابية وتنحو نحو السقوط الأخلاقي بضغط من معطيات الواقع وبدايات التجربة، والاستحقاقات التجارية.

وعندما ظهر أحد العلماء بعد تردد على قناة: «اقرأ» أبدى ملاحظة عجيبة بعد الفاصل مباشرة عندما قال: إنه لا يعلم إذا كانت الفواصل التي في البرنامج تحوي على موسيقى أو لا وهو بريء منها ولم يأمر بها!! تلك الملاحظة تعطي انطباعًا إلى أي درجة بلغ التشكيك أحيانًا في أدوات ووسائل الثقافة البصرية وحالة الارتياب التي يبديها الإسلاميون كتيارات وأفراد تجاه تلك الوسائل.

والحق يقال: إن لدى التيار الإسلامي حجج وشواهد وأدلة تجعل مبرراتهم صعبة الرفض تجاه تشككهم وتوجسهم في التعامل مع وسائل الإعلام، وكان من الطبيعي أن تجد في المكتبة الإسلامية مصنفات في: «فقه الردع» وخاصة للثقافة البصرية سواء كانت تلفازًا أو فيديو أو قنوات فضائية وحتى الإنترنت.

وربما لو تجولت في بعض المكتبات لوجدت كتبًا معقولة في التنبيه على أضرار التلفاز الاجتماعية والصحية والثقافية وهو اتجاه يشترك فيه التربويون وعلماء الاجتماع، كما تجد مؤلفات أخرى صارخة في «ثقافة الرفض» مثل: «الإجهاز على التلفاز» و«التقتيل أو التنكيل لمن أباح التمثيل» وغيرها من المؤلفات التي اتخذت موقفًا مبدئيًا صداميًا تجاه تلك الوسائل.

---

(١) الثقافة التلفزيونية ـ سقوط النخبة وبروز الشعبي، ص ٨.

ولو سألنا التيار الإسلامي عن مبررات هذا التخوف والتوجس من وسائل الإعلام لأفاض وذكر الأسباب التالية:

١ - يتخذ بعض العلماء مواقف حادة من وسائل الإعلام المرئية وخاصة المسرح لارتباط نشأته بالطقوس الوثنية وتعدد الآلهة، مما اعتبروه طقوسًا دينيةً بالأساس لديانات وثنية وشركية وهو ما يتصادم مع عقيدة التوحيد، وحتى لو تجاوزوا عن هذه القضية، فإن الممارسات التي ارتبطت بالفن والحركة الفنية عمومًا وفضائح الوسط الفني حتى أصبحت المادة المفضلة للصحف والمجلات وخاصة الصفراء قد جعلت العلماء يتوصلون إلى صحة التشكيك في تلك الوسائل من خلال ممارسات أهل الفن التي لا تنسجم مع طبيعة المجتمعات العربية المحافظة وهويتها الدينية الواضحة.

٢ - ارتبطت وسائل الإعلام في ذهن المواطن العربي عمومًا بفكرة سيطرة المال اليهودي عليها، وبالتالي تجيير تلك الوسائل لخدمة الدعاية الصهيونية، وإظهار الكيان اليهودي كواحة ديمقراطية وتشويه صورة العرب، ومحاولة تدمير المجتمعات نفسيًا وفكريًا وإفساد الناس وضرب أخلاقهم، وتقديم إسرائيل كناتج للفكر والمهارة النابعة عن الحضارة الغربية مع التذكير المتواصل بفضائح النازية، وتصوير الكيان الصهيوني بأنه مهدد من جيرانه العرب الذين ينطلقون من أحقاد دينية وعنصرية، ولذلك ارتبط بالعقل الباطن منظومة وسائل الإعلام العالمية لدى الشعوب العربية بالمال اليهودي والفساد الأخلاقي، وهذا تصور له جانب كبير من الصحة.

٣ - استخدام وسائل الإعلام في تعزيز الوضع الراهن، والتأكيد على طبيعة «الإلهاء» للمواطن العربي والمشاهد المسلم عن قضايا مصيرية أكثر أهمية وحيوية، فيصبح الإلهاء وتعزيز الوضع الراهن هو الهدف الأكثر حيوية لتلك الوسائل بحيث لا تعود للقيم أي اهتمام مقابل تحقيق هذا الهدف، وهناك «أسطورة مركزية واحدة تسود في عالم الخيال المصنوع، هي الفكرة القائلة بأن الترفيه والتسلية مستقلان عن

القيمة، ولا ينطويان على وجهة نظر»[١].

هذا الاتجاه نحو الترفيه جعل دليل التلفزيون يوزع ملايين النسخ في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يوزع أسبوعيًا أكثر من ٩ ملايين نسخة[٢]، وهكذا تصبح وسائل الإعلام المرئية والبصرية بالذات مخدرات ثقافية للعقول والأفهام، بهدف خدمة فكرة «الإلهاء» عن القضايا المصيرية.

وإن كانت فكرة الإلهاء مقبولة في الدول المتقدمة، حيث تتيح الإنتاجية المتزايدة لعقود العمل المزيد من وقت الفراغ، فإن ذلك لا ينطبق على الواقع العربي عن واقعها المرير والمخزي، وسياسة الإلهاء سياسة معروفة، تلجأ لها الأنظمة الاستبدادية لإلهاء الشعوب عن قضاياها عن طريق إفقار الناس ثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

«والمثال الواقعي الأكثر شهرة لنموذج الإلهاء الإعلامي المعولم، والذي عاشه العالم كله هو قضية «مونيكا ليونسكي»، فهي الملهاة الإعلامية الكبيرة في التاريخ الحديث، فالإعلام لا يشتت الجمهور ويلهيه عن القضايا الأكثر أهمية فقط، لكنه يحدث خلطًا في انتباه الناس، ففي حكاية «مونيكا» فاضت جميع أجهزة الإعلام بأخبارها لدرجة أن الإنترنت امتلأت عن آخرها مواقع عن الجنس مع مونيكا.. وانتشرت الألعاب حول هذا الموضوع في برامج الكمبيوتر، وكان كل انتباه الإعلام منصبًا على سؤال الجنس، ونسي العالم القضية الأساسية، وهي إعاقة العدالة وحلف اليمين الكاذبة والتحريض، وبذلك يكون الجمهور قد ألهي وشتت عن القضايا المهمة الرئيسية.. وبعد اعتذار كلينتون وطلب الرحمة علنًا في التلفزيون، أمر كلينتون بقذف مصنع في الخرطوم للصناعات الصيدلية في ضواحي المدينة وعملت إدارة كلينتون على تضليل الرأي العام العالمي بحكايات أن المصنع ينتج غاز أعصاب (VX)... وكانت هذه الادعاءات هي ما اعتمد عليه الإعلام الأمريكي في

---

(١) سلسلة عالم المعرفة: «المتلاعبون بالعقول»، ص ١٠٣.
(٢) ALMANAC ٢٠٠٤.

تبرير الضربة لإلهاء الناس عن الموقف المحرج لكلينتون في قضية ليونسكي»[1].

ولدينا في الوطن العربي وعند حدوث أي اضطرابات سياسية أو فتنة يسعى النظام لفرض حظر التجوال، ثم يأمر وزارة الإعلام بعرض إحدى مسرحيات الممثل عادل إمام الضاحكة، وإذ يتذكر أهل الكويت أول يوم في الغزو، فقد قام النظام العراقي في الليلة الأولى بعرض مسرحية كويتية كوميدية ليضمن بقاء الشعب الكويتي هادئًا بعيدًا عن أعمال المقاومة.

إذن، وسائل الإعلام المرئية بالذات تتبنى قضية الإلهاء وتعمل لها، وانظر كيف تُجَن الفضائيات العربية في شهر رمضان المبارك وتنتج أعدادًا من المسلسلات الدرامية تكفي لسنتين بث يتم ضغطها في الشهر الفضيل، بحيث تضيع أهداف الشهر الفضيل وينحصر فقط في عيون المشاهدين وشاشات الفضائيات!! ويبدأ السباق المحموم بين الفضائيات لاقتناص أكبر عدد من المشاهدين من أجل جذب الإعلانات التجارية، حتى أصبح شعار تلك الفضائيات: «جاء رمضان.. لأشتتن شمله بالمسلسلات»...

٤ ـ استخدام وسائل الإعلام المرئية أكثر من غيرها من وسائل الإعلام الأخرى في تشويه الشخصية العربية والإسلامية وتشويه التيار الإسلامي، وإذا كان التيار الإسلامي ـ مثلاً ـ قادرًا على رد تشويه الكلمة المكتوبة بالكلمة المكتوبة وبالخاطرة الشفاهية وبخطبة جمعة، وعلى الندوة المنحازة بشريط كاسيت فإن أدواته فقيرة في وسائل الإعلام المرئية بالذات التي اتخذتها بعض الأنظمة وسيلة فعالة لتشويه التيار الإسلامي.

وإذا كانت ـ مثلاً ـ السينما العربية قد قدمت في السابق عالم الدين بصورة تقليدية جامدة وأحيانًا مضحكة وحصرته في الغالب في دور المأذون الذي يتكلم اللغة العربية المقعرة وسط عالم الحيوية السريعة، فإنها تحولت إلى مواجهة التيار الإسلامي

---

(١) مجلة سطور: العدد (٤٤)، مقال: «لا وقت للغضب»، ص ٢٥.

الحركي، وخاصة في منتصف الثمانينات عندما قدمت برنامج «ندوة للرأي» ثم سلسلة مسلسلات وأفلام تتحدث عن دولة المال والنفوذ والبنوك للتيار الإسلامي.

والحقيقة أن نقد التيارات المتطرفة والممارسات الشاذة والعنيفة أمر لا يرفضه العاقل إن تم التعامل معها بشيء من الجدية والمنطقية، على ألا يتم استغلال مثل ذلك النقد لتصويب الواقع الاجتماعي للناس على أنه إسلام مثالي خالي من العيوب والزلل.

وأن يتم حصر النماذج الإسلامية فقط في النماذج المتطرفة، أو أن تصور وسائل الإعلام الشخصية الملتزمة على أنها نتيجة لضغوط الحياة وإسقاطاتها النفسية، أو أن يتم حصر الدين ومفاهيمه فقط في المسلسلات التاريخية التي يتكلم أصحابها اللغة العربية ببرود، وكأنهم يؤدون أدوارهم وهم تحت تأثير مخدر من نوع قوي، فهذا كله مرفوض وتشويه للحقائق والوقائع.

وانظروا مثلاً كيف تم استغلال الفيلم الشهير «صلاح الدين» ليظهر بصورة الشخصية العلمانية عندما قال عبارة: «الدين لله والوطن للجميع» وذلك تماشيًا مع حقبة الناصرية القومية، وانظروا كذلك إلى فيلم الرسالة، حيث يلاحظ المدقق في السيناريو كيف خلت المرحلة المدنية من مؤامرات يهود المدينة تجاه دولة الإسلام وذلك حتى لا يتعرض الفيلم للمصادرة والعوائق ولا يخرج إلى النور.

ويكفي أن نعلم أن مسلسلاً مثل «ليالي الحلمية» الشهير قد أسقط مع كل الأحداث التي مرت فيه وجود مركز الإخوان المسلمين في الحلمية مع كل تأثيره في تلك الفترة من تاريخ الشعب المصري!!

إذن، التشويه موجود وفي جزء كبير منه متعمد للتيار الإسلامي حتى المعتدل منه، ولو كان هناك حرص على إنصاف التيار الإسلامي، لوجدنا نماذج للطبيب الملتزم والمهندس الملتزم والطيار الملتزم والعالم الملتزم وأستاذ الجامعة الملتزم وكلها نماذج حقيقية موجودة في مجتمعاتنا وتمارس دورًا إيجابيًا في الحياة العامة، ولو كان

هناك اهتمام بإبراز الشخصية المسلمة لما حصرناها بالتاريخ القديم ولأخرجنا إلى العالم الرموز الإسلامية في العصر الحديث بشكل درامي متقن وهم شخصيات نظيفة تستحق أن تعرض على المجتمع الإسلامي ليشاهد نموذج المسلم الملتزم الحقيقي الذي لا يعاني من عقد الحياة وقادر على التوافق معها.

والتشويه لم يقتصر فقط على الشخصية الملتزمة، بل طال الشخصية العربية العادية، ولم تعد الدراما الموجودة تمثل واقعية الحياة التي يعيشها المواطن العربي البسيط، وأصبحت المسلسلات الدرامية تركز فقط على طبقة النخبة ومشاكلها التافهة في الحياة، وجاءت فترة انحصر فيها الإنتاج السينمائي في قضايا المخدرات والرقص والبلطجة، وجاءت فترة شهدت فيها السينما العربية انحلالاً غير مسبوق، وجاءت فترة ثالثة تم تسطيح كل المواضيع، وعرف الجمهور فكرة «الضحك للضحك» و «والهبل للهبل» وغيرها من القضايا التافهة في الفترة التي تمر فيها الأمة بمراحل خطيرة وفاصلة في حياتها.

وهناك أيضا التشويه العالمي للشخصية العربية والمسلمة، وقد استغل الصهاينة موقف الحضارة الغربية من العرب الذي تراكم عبر العصور، وجهل الرأي العام الغربي بتاريخ المنطقة العربية، والتعاطف غير المحدود لأغلب الساسة الغربيين مع الحركة الصهيونية، وسيطرة اليهود على وسائل الإعلام، في تشويه الصورة العربية والإسلامية حتى أصبح العربي همجيًا وخسيسًا وتافهًا وجبانًا وجاهلاً وبدائيًا وداعرًا، وقذرًا ووحشيًا وجنسيًا وتاجر رقيق وإرهابيًا وأكثر من ذلك.

ففي فيلم «بروتوكول» الذي أُنتج في (عام ٤٨٩١م) يظهر العربي فاسدًا أخلاقيًا بصورة الإنسان الذي لا يبالي بعمل أي شيء في سبيل الحصول على فتاة شقراء.

وفي فيلم «جوهرة النيل» الذي أُنتج في (عام ١٩٨٥م) هناك محاولة لترسيخ فكرة وقوف العرب ضد بعضهم البعض ويظهرهم كشعب بدائي يؤمن بالخرافات، كما يصورهم باللصوص المارقين.

وكلنا يذكر فيلم «الدفاع الأفضل» الذي كان نبوءة عن غزو العراق للكويت،

حيث يقوم ضابط بالجيش الأمريكي بتدريب الجنود الكويتيين الذين يبدو عليهم الجبن والغباء كما يصورهم الفيلم الذي أُنتج (عام ١٩٨٤م) والذي أسندت أدوار الجنود فيه إلى ممثلين إسرائيليين.

وفي فيلم «صحاري» (١٩٨٤م) الذي أُنتج وصور في الكيان الصهيوني نرى العرب في صورة قبائل همجية من البدو الرحل يلاحقون إحدى الجميلات في سبيل شهوتهم حيث يقتلون بعضهم البعض للحصول على تلك الشقراء.

ولن نطيل في هذا الموضوع الذي له شواهد لا تعد ولا تحصى، ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب «الخديعة الكبرى: مخططات خبثاء صهيون وخديعة العالم بالأساطير السياسية» لمؤلفه أحمد تهامي سلطان.

هذا الذي ذكرناه من شواهد وأدلة لسنا متخصصين بها ولا متابعين لها، وكل هذه الحوادث والأدلة جمعناها من قصاصات الصحف والمجلات، فكيف لو تحدث متخصص في هذا المجال وأطنب في ذكر الشواهد التي يبنى عليها التيار الإسلامي شكوكه تجاه الثقافة العصرية.

٥ ـ الموقف السلبي من الأديان:

وهنا لا بد من التفريق بين موقف الإسلام وموقف المسيحية من الرسومات والصور، حيث تخلو المساجد من الصور وكل أنواع الزخرفة التي تلهي المصلي عن صلاته، وبين المسيحية التي لا تجد حرجًا في ظهور المسيح مرسومًا ومرئيًا، وبالمنظور المسيحي فإن السينما في بعض أفلامها خدمت المسيحية من خلال إنتاجات مختلفة، وأفلام مثل «بن هور» و«الوصايا العشر» ساهمت في خدمة الدين، وكلنا يذكر فيلم «آلام المسيح» الذي حقق أرباحًا خيالية ودخلت الكنائس في معركة دعمه من خلال شراء التذاكر لروادها وحثهم على حضور الفيلم، كما كان موقف البابا السابق إيجابيًا من الفيلم.

*** القصص في القرآن:**

في الإسلام الموضوع مختلف، فالقصص التي ترد في التوراة تسرد بتفصيل شديد حياة الأنبياء ومولدهم ووفاتهم وتفاصيل حياتهم، أما في القرآن فالقصص غير مقصودة لذاتها، والقرآن لم ينزل ليكون كتاب قصص، بل ترد القصة في القرآن تأكيدًا لنبوة النبي ﷺ في إيراد خبر الأقوام الغابرين، ولأخذ العبرة والعظة ومعرفة السنن الإل هية في المجتمعات البشرية وسنن قيامها وانهيارها.

وإذا استثنينا قصة نبي الله يوسف عليه السلام التي تعبر تعبيرًا دقيقًا على البناء القصصي الراقي في القرآن الكريم، فإنه لا توجد في القرآن قصة نبي كاملة في سورة واحدة، وحتى قصة يوسف تعتبر موسوعة ضخمة في العبر والأحكام والفوائد والمواعظ، يدركها كل من يطلع على تفسير السورة بشيء من التفصيل.

وإذا تجاوزنا موضوع ظهور الشخصيات وتجسيدها على الشاشة المرئية، فإن الصورة الذهنية للالتزام الديني بقيت في أذهان أصحاب الصنعة السينمائية جامدة وتقليدية وفي كثير من الأحيان رجعية ومتخلفة، ولذلك فإن السينما في كثير من أطروحاتها الفنية اعتبرت الدين من عوائق الإبداع والفن، وكانت في كثير من الأحيان تحاول تقديم الدهشة للمشاهد من خلال هتك ستار المحرمات الدينية أو الأخلاقية.

كما أن الفيلم الديني إن صح التعبير كان يعاني من جمود تلك النظرة، فقد سقطت بعض الأفلام في أيديولوجية الدول المنتجة له مثل فيلم «القادسية» الذي قدم في عهد صدام حسين، أو فيلم الناصر صلاح الدين الذي قُدِّم في العهد الناصري، وقد شوهت تلك الأيدلوجيات صور الشخصيات التي قدمت في تلك الأفلام وبقيت تلك الأفلام أسيرة لقصص الحب التي لا بد منها مهما كان موضوع الفيلم.

٦ ـ ضغوط اللعبة التجارية:

فالإعلام المرئي بالذات مكلف ماديًا بشكل ملحوظ ويحتاج إلى معادلة تجارية متوازنة لكي يغطي تكاليف الإنتاج من جهة، ويحقق الأرباح للمنتج من جهة

أخرى، سواء عبر شاشات العرض السينمائية، أو عبر التسويق للمحطات الفضائية، وبناء على هذه المعادلة وجدنا أن اللعبة التجارية تفرض نفسها على منتج الفيلم وطاقم العمل في حشر بعض اللقطات البذيئة والسافلة من أجل التسويق التجاري البحت.

يروي يوسف جوهر وهو أديب وكاتب سيناريو مصري تجربته مع أحد المنتجين فيقول: «جلسنا أمام تاجر البهار الذي سأل بكل ثقة: «هو القصة دي فيها كام مشقفة» فرد المخرج لفوره: «خمسة . . وملحقاتهم» وكان عليَّ أن أفهم لغة هذا القاموس الغريب الذي يجب التعامل معه، وسرعان ما عرفت أن تاجر البهار الذي يستعد لإنتاج فيلم، يسأل عن عدد الأغنيات والرقصات في الفيلم المزمع إنتاجه»[(١)].

وإذا تركنا هذا الفكر التجاري الذي يقف خلف العديد من التجارب السينمائية الساقطة، فإن تحديًا خطيرًا الآن يقف أمام التربويين وأهل الاجتماع متمثلاً في سبل الفضائيات الغنائية والتي تمثل حلقة وصل قذرة بين الأغاني التقليدية وبين اللقطات الإباحية الصريحة.

وإذا ما تجاوزنا نشأة الفيديو كليب وطبيعة ارتباطه بالحياة القلقة التي يعيشها الفرد في الغرب وانعكاس تلك الحياة على اللقطات السريعة المهتزة القلقة أيضًا، فإن للمعادلة التجارية دورها في تكاثر تلك القنوات بشكل غير طبيعي، بحيث تقترب من الثلاثين قناة حسب ما تقول المصادر الفنية.

ويقول العالمون ببواطن الأمور أن أرباح تلك المحطات تأتي من مصدرين: من الاتصالات والرسائل التي تبث في الأشرطة أسفل الشاشة، ومن الأموال والإتاوات التي يدفعها المطربون المغمورون لتلك المحطات لبث أغانيهم أكثر من مرة في اليوم الواحد.

---

(١)مقال: قانون تاجر البهار والسينما المصرية ـ مجلة العربي، العدد (٤٣٩).

ناهيك عن السوق المخفي لتجارة الرقيق الأبيض والذي تمارسه بعض الجهات المشبوهة مع فتيات «الفيديو كليب»بحيث تحولت فيه بعض تلك الفتيات إلى سلع خاضعة للعرض والطلب بناء على مواصفات معينة يعرفها أهل هذا الاختصاص الوضيع.

ولو شئنا أن نسهب في هذا الموضوع لأدركنا كيف تتحكم المعادلة التجارية بهذه الصناعة، ولكننا نتركها؛ لأن القارئ يفطن لها؛ ولأن الخوض في الحديث فيها كمن يرفع فتحة «بلاعة» أعزكم الله!!

٧ ـ الآثار السلبية على الأجيال والناشئة:

لقد شاع مصل الغزو الثقافي وتأكد وانتشر على ألسنة الدعاة والخطباء بعد ثورة البث المباشر عبر الأقمار الصناعية لكي تشكل غزوًا جديدًا لن تفلح الرقابة والمنع في مواجهته، وخصوصًا أنَّ بعض الدراسات أظهرت أن الطالب عندما يتخرج من المرحلة الثانوية يكون قد أمضى أمام جهاز التلفاز قرابة ١٥ألف ساعة بينما لا يكون أمضى في قاعات الدراسة أكثر من ١٠٨٠٠ ساعة على أقصى تقدير، ومعدل حضور بعض الطلاب في الجامعة ٦٠٠ ساعة سنويًا، بينما متوسط جلوسهم عند التلفاز ألف ساعة سنويًا.

ولا يمكن إنكار تأثير تلك الوسائل الجذابة وخاصة على النشء، فقد ذكر تقرير اليونسكو أن: «إدخال وسائل إعلام جديدة وخاصة التلفزيون في المجتمعات التقليدية، أدى إلى زعزعة عادات ترجع إلى مئات السنين وممارسات حضارية كرسها الزمن»[1].

ومن الآثار الخطيرة للثقافة المرئية التشكيك بعقيدة المسلمين والهوية العربية، وإضعاف عقيدة الولاء والبراء وتقليد الغرب خاصة لدى فئة المراهقين والنشء بلا معرفة بأبعاد ومخاطر هذا التقليد الأعمى.

---

(١)تقرير اليونسكو: «أصوات متعددة»، ص ٢٣٨.

كما أن وسائل الثقافة «البصرية» تساهم في إضعاف مستوى التحصيل العلمي لدى الناشئة والانصراف عن الجدية في طلب العلم، وشيوع الخمول والكسل وعدم الجدية بالإضافة إلى عادة السهر المرذولة، وإضعاف مستوى التلاميذ في اللغة العربية بسبب سيطرة العامية في أكثر من فضائية.

«ومن الآثار الخطيرة التي يدركها الجميع الحض على العنف والجريمة، وشيوع الرذيلة ومخاطبة الغرائز، وتأخر الزواج وتفشي الطلاق، وافتتان المرأة بالأزياء، وعمليات التجميل التي تلعب بخلق الله وفطرته التي فطر الناس عليها، هذا غير الأضرار الصحية الناتجة عن إدمان المشاهدة مثل: السمنة للأطفال، والترهل الفكري والإشعاعات التي تؤذي العين»[1].

٨ ـ صناعة القدوات الكاذبة:

ولعل أخطر ما تقدمه الثقافة المرئية هي القدوات المنحرفة والبيئة الاجتماعية والنفسية التي يعيشها أولئك القدوات بحيث يصبح هؤلاء كتابًا مفتوحًا أمام المشاهدين تتابعهم الوسائل المرئية وتكمل الصورة حولهم الوسائل المقروءة، فنعرف ما يلبس هؤلاء وما يأكلون وأين يقضون إجازاتهم في الصيف، وما هي ذكرياتهم مع رمضان، بحيث يصبح هؤلاء هم الصورة التي تملأ الشاشات ولا تدع مجالاً لغيرها.

هذه القدوات التي قدمت لنا على أنها رموز المجتمع وشخصياته العامة، لم تعد مجرد اجتهادات تصل بصاحبها إلى وجودهم تحت الأضواء في كل حال من أحوال حياتهم، بل تحولت إلى صناعة لها أدواتها ووسائلها، فلم تعد صناعة النجوم تعتمد على موهبة النجم تمثيلاً أو غناءً فهذه مرحلة انتهت مع صيحة الفضائيات، وأصبحت الماكينة الإعلامية التي تصاحب النجم والإمكانات المادية التي تقف خلفه، وكمية العلاقات التي يتمتع بها متطلبات فاصلة في وصول هذه الشخصيات

---

(١)من أراد التوسع، فليراجع: كتاب «البث المباشر ـ حقائق وأرقام»، ط.١، ١٤١٢هـ.

إلى الأضواء.

«هنا نحن أمام «نجومية» ولسنا أمام «نجوم» والنجومية قد صارت نمطًا ثقافيًا تصنعه وتنتجه الصورة متجاوزة دور الفرد الرمز ودور الفرد النجم، وقد حل مكان ذلك مفهوم للنجومية له شروطه وخصائصه ويقوم بها أفراد يمثلون الدور بدوران سريع ومباشر»[١].

«جاء الفيديو كليب ليقلب معادلات الذوق والجمال وليؤسس لمدرسة جديدة في الفن، وتتحول معه صيغ الإرسال والاستقبال، وتتعاضد معه مبتكرات الموضة والتجميل لتحقق منظومة التأثير الحديث ولتخلق له صيغته الخاصة، حتى زال معه شرط (الصوت) في الغناء وحل محله شكل الوجه والجسم محل أي شرط آخر، وسعت كثيرات من الفنانات إلى صياغة أنفسهن حسب شروط اللعبة الجديدة، وأجرت عمليات جراحية طبية لتعديل أشكال الوجه والجسد لخلق شكل نموذجي يتطلب سوق الفن . . وبعض المذيعات أصبحن زبائن مستديمات في عيادات التجميل من أجل صناعة الشكل المطلوب والمحافظة عليه»[٢].

وهكذا وبسبب هذا التدافع الجسدي المادي انتشرت عادة اللعب بفطرة الله وخلق الله بين نساء المسلمين خصوصًا ممن بهرتهن الصورة، وسيطرت عليهن فكرة الجمال الجسدي بعد أن ذبل الجمال الروحي بسبب هذه الضربات القاتلة التي توجهها وسائل الإعلام المرئية للروح.

إن ما نشاهده في أحيان كثيرة على ملابس أولادنا وبناتنا وأسلوب ترتيب شعورهم ومأكلهم إنما يعكس طبيعة التفكير الذي يستقر في وجدانهم، ونوعية المراجع التي تكون عقلياتهم، بحيث لم يعد في الساحة مكان لشخصية فكرية أو دينية أو فلسفية أو ثقافية لكي تسلط عليها الأضواء وتأخذ نصيبها من التكريم، بل

---

(١)الثقافة التلفزيونية ـ سقوط النخبة وبروز الشعبي: الدكتور عبد الله الغذامي، والفصل الثامن، ص٢٠٨.

(٢)الثقافة التلفزيونية ـ سقوط النخبة وبروز الشعبي، ص ١٢٨.

تم احتكار هذا المكان للشخصيات السطحية التي ترضى بأن تستسلم لصانع النجوم ولديها خامة بقابلية عالية للتصنيع، ولم يعد من الضروري أن يمتلك النجم مهارات شخصية لافتة بل عليه فقط أن يكون ذا فائدة ومردود مادي في موقعه حتى يحافظ على تلك النجومية المصطنعة[1].

*** الموقف من الثقافة البصرية:**

أمام كل تلك الأسباب وتلك المخاوف انقسم تيار الصحوة الإسلامي في موقفه من التعامل مع وسائل الإعلام بشكل عام، والوسائل المرئية بشكل خاص، وإن كانوا قد اتفقوا على خطورتها وأضرارها، وقد انقسم تيار الصحوة إلى اتخاذ ثلاث مواقف واضحة.

الموقف الأول: هو الموقف التاريخي الرافض لمثل تلك الوسائل، بناءً على قاعدة «درء المفاسد أولى من جلب المصالح» وبناءً أيضًا على قاعدة أن التصوير حرام فإن هذه الوسائل تدخل في نطاق الحكم، وأصحاب هذا الرأي لا يقبلون باعتبار الصورة في التلفزيون من قبيل «ارتكاب أخف الضررين»، حيث يرون أن للشارع تبارك وتعالى حكمة عظيمة في تحريم التصوير ظهرت جلية فيما نتج من فساد وانحلال في العالم من آثار التلفزيون حيث ملأ البيوت بالمنكر»[2].

وبناء على هذا الموقف تم طباعة ونشر العديد من النشرات والكتيبات حول حكم الأطباق و«الدشوش» الفضائية مع التحذير منها ومن مخاطرها، وكانت موضوعًا أثيرًا في العديد من خطب الجمعة والدروس والندوات، وأصبح التعامل مع هذا الموضوع قريب من التعامل مع موضوع الربا، وكادت تحل اللعنة على تاجر الأطباق ومشتريها وبائعها وناقلها ومثبتها على السطوح ومبرمجها في البيوت.

وتم الحديث في أول الأمر على وسائل منع البث المباشر، فتم طرح التشويش سواء على القمر نفسه أو على منطقة الاستقبال،ووجد أن هذا الأسلوب لا يجدي

(١)لمزيد من التوسع: يُراجع مجلة «سطور»، عدد (٤٦): تصنيع النجوم.
(٢)الإعلام في ضوء الإسلام، ص ٢٠٨.

نفعًا بالإضافة إلى تكلفته العالية، كما تم طرح منع الأجهزة من السوق وهو أيضًا حل غير عملي نظرًا لتوفر البدائل من الصنع المحلي وبسهولة.

نحن هنا لسنا في موقف التقييم الفقهي لأصحاب الرأي الأول، لكنّا نلمح بوضوح ثغرة بقائهم في المربع الأول، وهو تجيير الجهود لتحريم تلك الوسائل دون طرح البديل المقابل، ولا نقصد بالبديل المقابل إقامة المحاضرات والندوات والرحلات الخلوية للشباب، بل البديل المقابل باستخدام نفس الوسائل، فليس من العدل أن يتم تحريم وسائل ممكن أن تخدم تبليغ رسالة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة لتغطية عجز التيار الإسلامي عن اقتحام تلك الوسائل التي بقيت لفترات طويلة محل شبهة وريبة.

لذلك هذا التحريم على الرغم من مبدئية موقفه إلا أنه يبقى قاصرا على إدراك التفاعلات والتغيرات التي تحدث في العالم ومدى استجابة الجمهور العريض لها، وأسلوب المنع والتحريم من أجل تغطية العجز في هذا المجال سوف يكون فقط حلاً مؤقتًا.

«إننا اليوم بعد أكثر من عشرين سنة على انطلاق ثورة الاتصالات، نستطيع أن نقول: إن كل السدود التي حاولت حكومات العالم الثالث وأكثرية حكومات الدول العربية أن تتخطى بها صدمة ثورة الاتصالات كانت فاشلة، الذين منعوا الصحون اللاقطة «الدش» اضطروا إلى الرضوخ لانتشارها، والذين شوشوا على الإنترنت اكتشفوا أن هناك وسائل للالتفاف على التشويش والذين حاولوا عدم مد شبكات التليفون المحمول اضطروا لاحقًا إلى مدها؛ لأن بلدًا ليس فيه اليوم تليفون محمول لا يقصده أحد، لقد أصبح هذا العالم المتشابك واقعًا كونيًا[1]».

لقد سبق أن تم التحفظ على الهاتف المنزلي، ثم على الإذاعات ثم على التلفاز ثم على السينما، ثم على الفيديو ثم على الفضائيات والإنترنت، ولكن التحفظ دون

---

(١) صدمة الإنترنت: د. أحمد الصالح، (كتاب الهلال)، ص ٧.

إيجاد البديل قلل كثيرًا من فاعليته في مواجهة سلبيات تلك الوسائل.

الموقف الثاني: والذي يشترك مع الموقف الأول في خطورة الآثار السلبية لتلك الوسائل الإعلامية، لكن مع التحرك للاستفادة من تلك الوسائل، من خلال تقديم البرامج الإسلامية في الفضائيات المختلفة، مع التحذير بشكل مستمر من سلبياتها.

وينطلق هذا الموقف من أن الإسلام لا يمنع قبول الوسيلة الجديدة ولكن ينظر إلى محتواها الذي تذيعه أو تعرضه فخيره حلال وشره حرام، وهناك دراسة وافية أصدرتها مجلة البيان التي تصدر عن المنتدى الإسلامي (العدة ١٨٣، ١٨٤) تحت عنوان: «المشاركة في وسائل الإعلام بين المصالح والمفاسد» للشيخ محمد عبد الله الدويش تعرَّض فيه لحكم مشاركة العلماء والمشايخ في وسائل الإعلام والمرئية منها بالذات، مما يعني أن هناك جدلاً داخل التيار الإسلامي على اتخاذ مواقف أكثر مرونة لصالح الاستفادة من الفرص التي توفرها الوسائل المرئية لنشر الدعوة الإسلامية وتوعية الناس بأمور دينهم.

الموقف الثالث: وهو الموقف الأكثر فاعلية وإقدامًا، بحيث تحولت هموم هذا التيار من مساوئ الفضائيات إلى بدائل حقيقية، فعرفنا أخيرًا الفضائيات الإسلامية اقرأ وقناة المجد والفجر وغيرها من القنوات الإسلامية التي تبث، والتي في طريقها قريبًا إلى البث، وهو شيء طيب يصب لصالح المجتمع المسلم، ويوفر بديلاً طيبًا تصرف فيه الجهود، بدلاً من بعثرة الجهود على اللبن المسكوب في الفضائيات الرديئة.

هذا الموقف ينطلق من مبدأ أن الإعلامي المسلم مطالب بأن يخاطب الناس بالوسيلة المثلى استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾[1].

ولسان هذا الزمان لا شك هو وسائل الإعلام المرئية بالدرجة الأولى، ولكن

---

(١)إبراهيم: ٤.

أمام التيار الذي يبحث عن البديل الحلال تحديات كثيرة ومتنوعة.

*** تحديات أمام الفن الإسلامي:**

عند دخول التيار الإسلامي إلى صناعة الإعلام المرئي لتحقيق بناء إيجابي للثقافة البصرية سيواجه بتحديات كبيرة وفاصلة لن تعالج باستخدام لغة بيانية بلاغية وأحلام في الهواء، وطموح كبير لا يسانده شيء في الواقع الحقيقي، بل يجب أن يصاحب ذلك التخطيط المتقن لأهل الفن والصناعة حتى يؤتي المشروع ثماره، وهناك تحديات تفرض نفسها بشكل واضح لخوض هذه التجربة ولعل من أبرزها:

١ ـ التحدي النفسي:

فيجب إزالة ومحو الإرث النفسي المتراكم والمتمثل في الموقف السلبي المتشكك تجاه الثقافة البصرية، والتعامل مع الوسائل المرئية على أنها فرص وليست مخاطر، مع معرفة أبعاد هذه الصناعة التي سبق فيها الآخرون بشكل مذهل، كما يجب علينا معرفة الأرقام الفلكية التي تدير مثل تلك المشاريع، والتواضع في التعامل مع المشروع على أنه أحد الوسائل لخدمة الفكر الإسلامي، وليس المشروع الوحيد المعول عليه تغيير الدنيا والمجتمع الإسلامي نحو الخير والفضيلة بين ليلة وضحاها.

٢ ـ تكتيك الصورة الذهنية:

فتأثير وسائل الإعلام وخاصة المرئية فيها يعمل بشكل سريع، كما يعمل بشكل بطيء في العقل الباطن لتكوين صورة ذهنية تجاه الأمور والأشياء، وهذه الحقيقة تجعلنا أولاً ندرك طبيعة التأثر الإعلامي ونظرياته، والعمل من خلالها بأسلوب علمي مخطط وليس بأسلوب ارتجالي حماسي، وهذا لا شك سيحتاج إلى تدعيم ثقافة القراءة البصرية لدى العاملين في المهنة، فمثلما هناك جمال في الثقافة المكتوبة من بلاغة وتشبيه وكتابة وغيرها من فنون اللغة، فالثقافة البصرية هي الأخرى لها بلاغتها ووسائلها التعبيرية وجمالياتها التي يجب إدراكها من خلال الحس الفني

والذائقة التي تستطيع أن تقدم اللقطة الجميلة والتعبير الممتع.

٣ ـ الفقه الميسر:

ولا نقصد هنا اتباع الرخص والآراء الشاذة، ولكن من الأهمية بمكان التفريق بين خطبة الجمعة والمحاضرة الدينية من جهة التي عمادها الكلمة وبين الثقافة البصرية التي عمادها اللقطة والصورة، فالقناة الفضائية ليست منبر مسجد وإن كانا يشتركان في الغاية، والموعظة المباشرة التي يلقيها الخطيب في خطبة الجمعة قد لا تناسب طبيعة الثقافة البصرية التي تبحث عن قوالب فنية لتقديم الفكرة الإسلامية.

٤ ـ اللعبة التجارية:

فالقدرة على جذب المشاهدين وتحقيق المعادلة التجارية دون الاضطرار إلى الإسفاف تمثل تحديًا للفضائيات الإسلامية، وكون هذه الفضائيات دعوية وذات رسالة نبيلة، لا يلغي الاهتمام بتحقيق المعادلة التجارية ما أمكن من أجل استمرار تلك الفضائيات في البث والعطاء.

٥ ـ المنهج الإسلامي:

فالحفاظ على المنهج الإسلامي بدون شذوذ عنه، مع تقديم فنون إسلامية راقية أمر في غاية الأهمية حتى لا تبدأ هذه الفضائيات بمناهج صافية، وتنتهي بعد سنوات إلى نوع من الخلط والضياع بين الغاية السامية والوسائل التي لم تستطع مقاومة معطيات الواقع لمجرد الاستمرار والصمود في ساحة المنافسة.

هذه بعض التحديات ذكرناها باختصار شديد، كما أنَّنَا لم نتطرق إلى الثقافة البصرية الخاصة بشبكة الإنترنت، ولعلنا نتطرق إليها في القريب إن مد الله في العمر.

ü ü ü

الإعلام من صناعة العقول إلى صناعة القبول

لعل بعضنا يذكر فكرة الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان في الثمانينات ومشروعه «حرب النجوم» والذي تذكر بعض المصادر الصحفية أنه تبناه متأثرًا بخلفيته الهوليودية باعتباره ممثلاً سابقًا، وكان مشروع حرب النجوم في وقتها مثار انتقاد شديد من مختلف المتخصصين والعلماء والسياسيين، باعتباره خياليًا من جهة، ومكلفًا جدًا من جهة ثانية.

وعلى الرغم من كل السخرية التي نالها هذا المشروع، كان يرى ريجان فيه وسيلة لاتقاء أي هجوم سوفيتي مبكر على الولايات المتحدة، بالإضافة إلى نفس ديني مسيحي بضرورة انتصار الغرب المؤمن على الروس الملحدين وهزيمة إمبراطورية الشر كما كان يراها، فالذي يمتلك الأجواء في السماء هو الذي يحقق الانتصار، وقد رأينا ذلك في أمثلة كثيرة بعضها في الحروب العربية مع إسرائيل، وكيف كانت النكسة بسبب فقدان الفضاء الجوي العربي في أول ساعات المعركة بعد قصف الطائرات العربية الباسلة وهي جاثمة على أرضية المطارات، كما رأينا هذا التفوق العسكري الواضح بشكل لا يقبل اللبس في حرب الولايات المتحدة في أفغانستان، حيث يفتقد نظام طالبان إلى هذه التقنية، وحرب الولايات المتحدة مع العراق المحاصر أكثر من عشر سنوات، والذي كان سلاحه الجوي إما قابعًا في المطارات يعاني من نقصان قطع الغيار أو في ضيافة الدول المجاورة، حيث تحولت تلك الحروب إلى إلكترونية تعرضت فيها القوات العسكرية الأفغانية والعراقية إلى ما يشبه الأهداف المكشوفة السهلة، وساهمت في حسم المعركة في وقت قياسي أصاب العالم بالذهول.

نذكر في هذه المقدمة بحرب النجوم والصراع على الفضاء لكي نلفت الانتباه إلى حرب نجوم جديدة تدور في سماء العالم، ولكن أسلحتها ليست الطائرات المقاتلة وأجهزة الرصد الإلكتروني وغيرها من المعدات العسكرية، بل أسلحتها الأقمار الصناعية، ومحطات البث الفضائي، والقنوات الفضائية وشبكات الإنترنت

ووسائل الإعلام ومهمتها الكبرى في تغيير الهويات وتبديل القناعات وزراعة الأقطار الجديدة المناسبة لعصر العولمة والتفوق الأمريكي.

وما دفعنا للكتابة في هذا الموضوع ثلاثة أحداث ساخنة فرضت نفسها على المنطقة أولها: بداية بث قناة الحرة الأمريكية باللغة العربية لشعوب المنطقة العربية، وثانيها: فضائح ما يسمى بكوبونات صدام النفطية، وثالثها: الزوبعة الإعلامية والمعارك المتجددة على بعض البرامج الساقطة التي تبثها بعض الفضائيات العربية من أجل تحقيق أهداف خبيثة، مدعومة بمعادلات تجارية تعتمد على جلب الإثارة والسقوط الأخلاقي.

* **ليس بالإنكار وحده:**

مشكورة تلك الجهود التي استنكرت بعض البرامج السفيهة وذات المحتوى التافه والتي تعرضها بعض الفضائيات العربية للأسف، مثل البيان الذي صدر عن بعض الأفاضل من دكاترة كلية الشريعة بجامعة الكويت والفتوى التي أطلقها الشيخ الدكتور عجيل النشمي جزاه الله خيرًا، وهو واجب مطلوب من العلماء، بحيث لا يخدع الناس بأمثال تلك البرامج التي تسوق الاختلاط والميوعة في أوساط شبابنا وفتياتنا؛ وخصوصًا أن الفضائيات أصبحت الوسيلة المفضلة للتسلية لدى الجموع من الشعوب العربية وخاصة فئة المراهقة من الجنسين، وهي من فئة شديدة التأثر بالرسالة الإعلامية، وهي كقطعة الأسفنج الناشفة التي تتشرب بمعدلات عالية كل ما يعرض عليها، دون أن تمتلك بالضرورة أدوات النقد والقبول والرفض، وتمييز الغث من السمين في كل ما يعرض.

فنقول: نعم تلك الجهود لا شك أنها مشكورة لكنها للأسف ليست هي الجهود الوحيدة المطلوبة، وليست كذلك هي التي ينبغي توجيه كل الاهتمام والجهود لها؛ لأننا إن اكتفينا برفع سلاح الإنكار وإصدار فتاوى التحريم، فستتكرر هذه المشكلة في كل فكر جديد يصلنا عبر مختلف أدوات التوجيه المختلفة، وبالتالي تتشتت جهود المخلصين والمصلحين في ملاحقة تلك المنكرات والانشغال بها عن النظر إلى أصل

الموضوع؛ لأن فرعيات الموضوع وآثاره ستستهلك الجهد الأكبر من الدعاة والعلماء وساعتها سيجدون أن المبادئ والقيم الأخلاقية والسلوك القويم ستضيع وسط دوامات الإغراق في التفاصيل والتجزيء، وستتحول إلى موجات من الإنكار تتجدد بشكل دوري مع كل مشروع علماني يستهدف الهوية الإسلامية، وساعتها سيكون برنامج الحركة الإسلامية منحصرًا في دفع الشبهات ومنكرات المخطط بعد أن كان العكس هو الذي يحدث، حيث كان برنامج التيار العلماني الذي افتقد إلى الجماهيرية منحصرًا فقط في نقد برنامج التيار الإسلامي.

ونحن هنا لا نقلل من أهمية توعية الناس بالمنكرات التي تحاول أن تصد طريقهم في الوصول إلى الله، بل إن مقارعة هذا الباطل بالحكمة والكلمة والنصيحة والموعظة الحسنة من أهم خصائص هذا الدين، ولكن يجب إلاَّ ينشغل المصلحون بهذا الموضوع عن موضوع تربية الأمة على القيم والمبادئ الأخلاقية الرفيعة، والحفاظ على الهوية الحضارية الإسلامية ومكونات المجتمع المسلم المحافظ، فكلما كان جدار القيم سميكًا وعاليًا لدى الفرد المسلم كلما ضعف لصوص الأخلاق عن التسلل إلى عقل وقلب المجتمع المسلم، وبيع سلعهم المنحلة الساقطة، وكلما رفعت الفضائيات المشبوهة صوتها وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [1] رد عليها ضمير المجتمع المسلم وقال لها: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [2]!

*** الفتاة هي الضحية:**

إن خطورة البث الفضائي المنحل لا تكمن في الآثار المباشرة من تقليد ومحاكاة وتأثر شخصي وعقلي بما هو معروض، بل تمتد تلك الآثار إلى ما هو أبعد من ذلك من خراب بيوت وحالات طلاق وعنوسة وانحرافات أخلاقية للشباب والفتيات، فالشاب الذي يرى تلك الفتاة المصنوعة بمصانع عمليات التجميل والتي تظهر له بأبهى حلة وبأكبر كمية من المكياج وأقل كمية من الملابس، وهي تقف أمامه على

---

(١) يوسف: ٢٣.

(٢) يوسف: ٢٣.

شاشة التلفاز مخالفة المثل العربي الشهير «تجوع الحرة ولا تأكل بثديها» تفعل فعلها الخبيث في نفس الشاب، ويكون في عقله الباطن مواصفات خاصة للجمال للمرأة التي سيقترن بها في المستقبل، فهو يريدها مثل الفنانة الفلانية أو المطربة العلانية، وعندما يتقدم للزواج لا يجد هذه المواصفات في البنت التي تقدم لخطبتها؛ لأن تلك البنت قد ربيت على الطهر والعفاف وخلق الحياء والحشمة، وبالتالي يحدث الانفصام بين ما تخيله ذلك الشاب وبين الواقع الذي أقامه، والنهاية إما أن يعرض هذا الشاب عن الزواج، أو يفشل زواجه بعد عدة أشهر، أو يعيش حياة زوجية تعيسة؛ لأنه كان زواج أجساد لا زواج أرواح، وهنا يكمن الخلل الذي يزيده اتساعًا تلك الفضائيات المأجورة.

إن بناتنا المراهقات أخطر مسؤولية اجتماعية لدينا وسط هذه الفوضى الأخلاقية وكم سمعنا من قصص يندى لها الجبين كانت فيها فتياتنا هن الضحايا لمثل تلك السموم التي تنشر عبر الفضائيات، ففي إحدى رسائل الماجستير العربية التي نوقشت في إحدى الدول العربية وكان عنوانها: «صورة المرأة في إعلانات التلفزيون» تبين التالي:

١ - تحليل مضمون (٣٥٦) إعلانًا تلفزيونيًا، بلغ إجمالي تكرارها (٣٤٠٩) خلال ٩٠ يومًا فقط.

٢ - مسح شامل لإدارة الإعلانات بالتلفزيون.

٣ - مقابلات مع عدد من مديري وكالات الإعلان؛ وقد توصل الباحث إلى عدد من النتائج من أهمها:

١ - استخدمت صورة المرأة وصوتها في (٣٠٠) إعلان من (٣٥٦)، كررت قرابة (٣٠٠٠) مرة في (٩٠) يومًا.

٢ - ٤٢ في ٪ الإعلانات التي ظهرت فيها المرأة لا تخص المرأة.

٣ - سن النساء اللاتي خرجن في الدعاية من (١٥ - ٣٠) سنة فقط.

٤ ـ ٧٦ ٪ من الإعلانات اعتمدت على مواصفات خاصة في المرأة كالجمال والجاذبية، ٥١ ٪ على حركة جسد المرأة، و١٢٫٥ ٪ من هذه الإعلانات استخدمت ألفاظ جنسية.

٥ ـ إن الصورة التي تقدم للمرأة في الإعلان منتقاة وليست عشوائية.

وقد ذكر الدكتور ناصر العمر في كتاب «البث المباشر ـ ط١ ـ ١٤١٢ هـ» بعض الآثار الاجتماعية المترتبة على بعض برامج البث المباشر ومنها:

١ ـ التأخر في الزواج، وتفشي الطلاق، ومحاربة تعدد الزوجات ولقاءات الفتى والفتاة بعد الخطبة وقبل العقد برضى الأهل.

٢ ـ انصراف المرأة للأزياء العالمية وآخر صراعات الموضة وتقليد المرأة الغربية في كثير من أسلوب حياتها، كالخروج من المنزل ومحادثة الرجال.

٣ ـ سيطرة المرأة على الرجل، وضعف القوامة بدعوى الحرية وتساوي الحقوق.

٤ـ دخول كثير من العادات الغربية إلى بيوت المسلمين، والإعجاب بالنمط الغربي للحياة.

٥ ـ ضعف القيام بحقوق الوالدين وقطع الأرحام، وتفكك الأسر، وإهمال حقوق الجيران.

٦ ـ الأنانية وحب الذات، وضعف الروح الجماعية، وعدم نصرة المظلوم.

٧ ـ إبراز أبطال لا حقيقة لهم على حساب أبطال الإسلام، وسعي الفرد لتقليد هؤلاء.

فإذا ما أضفنا إلى كل تلك التوابل الفضائية العربية التي تقوم على دغدغة الغرائز الجنسية من أجل جني المزيد من المشاهدين، وبالتالي الفوز بأكبر كمية من كعكة الإعلانات، فإذا ما أضفنا إلى ذلك البث الفضائي الغربي وتأثيراته الأخلاقية المدمرة، فإن للمسألة أبعادًا أخرى خطيرة تضرب في عمق الكيان النفسي والعقلي والعاطفي لدى المشاهد المسلم الذي كان قبل بضعة سنوات فقط لا يتخيل أن يرى

١٠ في المائة مما يراه الآن.

وأنا أذكر أنه في نهاية عقد الثمانينات من القرن الماضي زارنا أحد وكلاء الإعلام من وزارة الإعلام الكويتية في جمعية الإصلاح الاجتماعي وتبين لنا بشكل واضح خطورة ما هو قادم في مجال الإعلام والمسؤولية الملقاة على عاتق المصلحين والدعاة وإنِّي أرى كل نبوءاته تتحقق هذه الأيام.

وفي دراسة بعنوان: «قراءة هادفة في القنوات الفضائية» كتبها عبد العزيز الخضر» (مجلة البيان ـ العدد ١٤٣) بين فيها ما للفضائيات من سلبيات فذكر أنَّ هناك سلبيات عامة تطرق لها باحثون في المجال التلفزيوني تنشأ عادة من خلال المشاهدة حيث تتعرض بعض البرامج لموضوعات مهمة ولكن بصورة مسطحة قد توهم المشاهد غير المتمرس بالقراءة أنه اكتسب ثقافة ومعرفة في هذا الشأن أو ذاك.

نظرًا لكثافة المادة الفنية المتحررة من بعض المعايير الأخلاقية والمفاهيم الإسلامية في البث الفضائي لدى أغلب القنوات التي لا تناسب المجتمع المسلم، سيكون هناك تأثير سلبي في بعض المثل والقيم السلوكية كالحياء والحشمة لدى المرأة ـ مثلاً ـ وقد يبرز خلل في بعض الأسس الإسلامية في العقيدة والروابط الاجتماعية للمجتمع المسلم، وهذا التأثير عادة ما يكون بطيئًا جدًا في المجتمعات.

التركيز على النواحي الترفيهية والقضايا الهامشية، يصنع مشاهدًا كسولاً لا يتحمل المسؤولية، مستهلكًا الإنتاجية وغير جاد في النهوض بمجتمعه وفي فهم المشكلات التي تعيق نموه، ساهمت الفضائيات العربية في تسويق ضخم للأغنية الساقطة وشجعت أعدادًا كبيرة للالتحاق بركب أهل الطرب وممارسة الغناء وخاصة المرأة التي لديها بعض الملامح الجميلة، فأصبح الطريق سريعًا للشهرة والمال لفتيات يفترض ألا تتجاوز شهرتهن أزقة ومواخير الفنادق وأصبحت الحفلات الغنائية التي قد تتجاوز تذكرة الدخول فيها ١٠٠ دولار متاحة للمشاهد وهو في منزله دون أن يدفع دولارًا واحدًا.

وأفرزت وسائل الإعلام زيادة التبعية للآخر؛ نظرًا لكثافة المادة المستوردة والمادة

المحلية المقلدة لما هو مستورد، فأصبح الطريق ميسرًا لذوبان الهوية لدى أفراد المجتمع؛ هناك قائمة من المخاطر تتسلل بصور مختلفة ووفقًا لظروف البيئة الاجتماعية فيما يتعلق بانتشار العنف والانحرافات والمخدرات؛ وهي ظواهر تعتبر مثل هذه الوسائل مساعدة لها.

وأصبحت المجتمعات المحافظة هي الأكثر تضررًا من انتشار بث منفلت من كثير من القيم ومظاهر الحشمة والسلوك الأخلاقي، والمجتمعات غير المحافظة ربما تستفيد وتكتسب بعض القيم الجيدة نظرًا لوجود قنوات أخرى محافظة نسبيًا تعطي نوعًا من المقارنات فيما بينها.

وهناك سلبيات متعددة تقليدية يدركها الكثيرون، وهي شائعة في أدبيات الهجوم على الإعلام التلفزيوني، وبعضهم قد يبالغ فيربط أشياء وظواهر كثيرة بها، كانتشار السرقة أو ضعف مستوى الطالب التعليمي أو كثرة الطلاق وغيرها، وبعض آخر تكون حاضرة في ذهنه بشكل متوازن دون مبالغات.

واستدرك الكاتب بعض الإيجابيات لتجربة الفضائيات، منها:

كما أن للتلفزيون أضرارًا في العالم النامي إلا أنه له بعض الفوائد للأفراد في إيصال الثقافة العامة وتعميمها؛ إذ له دور تثقيفي واضح في بعض القضايا استطاع أن ينقلها إلى جماهير واسعة؛ حيث توفرت لهم دون بذل أي جهد أو نفقات مالية ثقيلة؛ فتوفر كثير من المعلومات حتى للفرد الأمي، مما أدى إلى توسيع دائرة المعرفة - بغض النظر عن العزلة التي كانت في الماضي.

ساهمت الفضائيات في تقريب تعارف الشعوب العربية بعضها ببعض، وفهم بعض الخصائص لكل إقليم، وألغت حدود الزمان والمكان فيما بينهم، ووحدت مشاعرهم في مناسبات كثيرة، وأدت إلى شيء من التبادل الثقافي مما يكون أرضية مناسبة لأي تقارب وتعاون في المستقبل.

قد يكون على الفائدة السابقة بعض التحفظ لأنها تحمل في طياتها كثيرًا من

السلبيات إذا تم النظر إليها من منطلق إقليمي في مجتمع محافظ يتميز بسلامة العادات والمفاهيم العقدية لديه، بحجة أنه يتضرر من هذا الانفتاح الذي قد ينقل له بمرور الوقت، وهذا التحفظ في مكانه، ولكن الذي ينظر إلى الخارطة العربية ولديه خلفية معرفية بثقافتها وعاداتها ومستوى الوعي الديني لديها سيجد أن المجتمعات المحافظة التي لديها وعي عقدي قد تتضرر، ولكنها أقلية لا تمثل نسبة عالية من المجتمعات العربية وبالمقابل تستفيد المجتمعات غير المحافظة والتي لديها نقص في الوعي الديني والعقدي وبعض البدع، والاستفادة تأتي من اطلاعها على أحوال مجتمعات محافظة من خلال قنواتها وبرامجها الثقافية والدينية.

المسلم في البلاد الأجنبية في الغرب والشرق الذي يشعر بالغربة لابتعاده عن بلاده الإسلامية ولغته من أكثر المستفيدين من هذا البث لأنه يمثل له حلقة وصل ببلده ويخفف من وطأة التغريب، من أن أكثر هذه القنوات تحمل في بثها كثيرًا من التغريب الناطق باللغة العربية، ومن هذا تبقى أقل ضررًا وتربطه ببعض المفاهيم الإسلامية التي يفقدها في بيئته الأجنبية.

من أكثر الفئات المستفيدة من هذا البث هم النخب المثقفة بكافة اتجاهاتها في العالم العربي؛ فلقد أتاحت لهم الاطلاع من خلال هذه القنوات العربية في كل بلد على بيئات مختلفة وسياسات حكومية متنوعة ورؤية شخصيات مختصة في الشؤون الثقافية والسياسية وغيرها من خلال الشاشة والاتصال معها في البرامج المباشرة، ولقد أزاحت هذه الفضائيات عقبات ضخمة من سفر وتكاليف ووقت طويل وأتاحت لها بث أفكارهم وهمومهم نظرًا لحضورهم البارز في البرامج الجادة مع الاعتراف بأن بعض توجهات هذه النخب عليها تحفظات كبيرة.

* **لعبة الخداع الإعلامي:**

فإذا ما أضفنا إلى جميع ما سبق التضليل والخداع الإعلامي المبرمج الذي تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية في سوق السياسة والأفكار لإخفاء الحقائق، وإظهار معلومات أخرى بعيدة عن الحقيقة تحقيقًا لمصالح الساسة الأمريكان لأدركنا عمق

المأزق الذي نعيشه، فبعد أن كانت وسائل الإعلام تقوم على مهمة توعية وتربية الناشئة وتثقيفهم وصناعة عقولهم، تحولت وسائل الإعلام إلى ما يسميه المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي «صناعة القبول» وهي صناعة إعلامية تقوم على إيهام الجمهور بأن السياسة الموجودة هي السياسة التي يوافق عليها الشعب حتى لو كانت هذه السياسة في حقيقتها ضد مصالحه.

ويؤكد «نعوم تشومسكي في كتابه «Media Control» على نظرية «الثورة في فن الديمقراطية» موضحًا الخداع الإعلامي فيقول: «أنه بالإمكان استخدام ما يسمى بـ(الثورة في فن الديمقراطية) لصنع الإجماع، أي الحصول على موافقة الشعب على أمور لا يريدها، وذلك بفضل التقنيات الجديدة للدعاية، وكان يعتقد أن تلك الفكرة جيدة وضرورية في الواقع، فهي ضرورية - كما يرى - لأن المصالح العامة تغيب عن الرأي العام كلية»، ولا يمكن أن يفهمها أو يتعامل معها سوى «طبقة من المختصين» من «المسؤولين» الأذكياء جدًا بحيث يستطيعون تحديد معالم الأمور.

تؤكد هذه النظرية أن نخبة صغيرة فقط تتمثل في جماعة المفكرين هي وحدها تستطيع فهم المصالح العامة، وما تهتم به جميعًا، وندرك أن هذه الأمور تغيب عن ذهن عامة الناس يعود تاريخ وجهة النظر هذه إلى مئات السنين وهي وجهة نظر لينينية نموذجية ويؤكد أن الخداع الإعلامي في الدول الديمقراطية هو كالهراوة لدى الدول الفاشية.

من السهل القيام بذلك في الدول التي تدعي شمولية دكتاتورية أو عسكرية هذه الأيام؛ إذ ما عليك إلا أن ترفع الهراوة فوق رؤوسهم، وإن خرجوا عن الخط تحطم الهروات على رؤوسهم، ولكن بما أن المجتمع قد أصبح أكثر حرية وديمقراطية، لن يكون بمقدورك فعل ذلك؛ ولهذا عليك أن تلجأ إلى تقنية الدعاية لمنطق واضح.

فالدعاية لدى الديمقراطية كالهراوة لدى الفاشية. ذلك تصرف حكيم وحيد؛ لأن المصالح العامة، مرة أخرى، تغيب عن أذهان الرعاع، فهم غير قادرين على

تحديد معالمها، فالقادرين على صناعة هندسة القبول: «هم أولئك الذين يملكون الموارد والسلطة على إنجاز ذلك، ويعرج «نعوم تسومشكي» على تعريف النفاق بشكل يلازم السلوك الأمريكي فيقول تعريف المنافق الوارد في الأناجيل على التالي: «المنافقون هم الذين يطبقون على غيرهم معايير يرفضون تطبيقها على أنفسهم».

*** الإمبراطورية الإعلامية:**

ونحن عندما نتحدث عن الولايات المتحدة فإننا نتحدث عنها لأكثر من سبب في هذا المجال، فهي أولاً وتحت ستار محاربة الإرهاب تمتد في العالم كله، وهي موجودة في المنطقة العربية والإسلامية، وتمسك في يدها بشكل مباشر أفغانستان والعراق، وكما أن لديها مخططات ورؤى استراتيجية لاختراق العالم الإسلامي وتفكيكه وإعادة تصنيعه بما يناسب الحضارة الغربية، وهي في النهاية لديها إمكانيات إمبراطورية إعلامية ضخمة وجبارة أرقامها بمليارات الدولارات من رأس المال والأرباح، وقادرة على صناعة رأي عام تجاه أي قضية تشاء حتى لو كان هذا الرأي مخالفًا للحقائق الجلية الثابتة.

وكلنا يذكر تحذير وزيرة الثقافة اليونانية الراحلة «ملينا ميركوري» من أن بلدها قد حاصرته الثقافة الأمريكية، بل إن بلدًا مثل فرنسا يشكو وزير ثقافتها في السبعينات (وهي قبل ثورة الإنترنت والأقمار الصناعية) أنه خائف من وقوع الشعب الفرنسي ضحية للاستعمار الثقافي الأمريكي، وكان وزير الثقافة الذي جاء من بعده «جاك لانق» حريصًا أكثر من ذلك وشن حملة على القنوات التلفزيونية، وقال: إنها أصبحت صنابير تتدفق منها المسلسلات الأمريكية، كما اشتكى رئيس وزراء كندا السابق (بيار ترودد) من تأثير الثقافة الأمريكية على الشعب الكندي، ويشير التقرير الشهير وهو تقرير «ما كبرايد» إلى الإجماع على الاعتراف باختلال التوازن في مجال التدفق الإعلامي مستشهدًا بـ (لوموند ديبلوماتيك) رئيس جمهورية فنلندا وفريق عمل صندوق القرن العشرين والمدير العام لوكالة «رويترز» واجتماع خبراء إعلاميين ووزراء إعلام الدول غير المنحازة.

وزاد استخدام اللغة الإنجليزية التي هي لغة الإمبراطورية البريطانية وإحدى القوى الكبرى المسيطرة في العالم لقرون خلت، وهي اليوم لغة الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الأكبر والأكثر سيطرة في العالم، وقد أدى توسيع استخدام هذه اللغة إلى ظهورها بمظهر اللغة فوق القومية، وقد أشار شيللر في مقدمة الطبعة الثانية (١٩٩٢) لكتابه Mass Communications إلى أمثلة عن ازدياد انتشار هذه اللغة في الدول الأوربية الكبرى فكيف الحال في دول العالم الثالث ويذكر:

* زيادة نسبة المقالات المكتوبة بالإنكليزية من ٥٢ ٪ في العام ٥٧٩١م إلى ٦٥ ٪ في العام ١٩٨٥م في حين تناقصت نسبة المقالات المكتوبة بالفرنسية من ١٧ ٪ إلى ١٠ ٪ والمقالات المكتوبة بالألمانية من ١٣ ٪ إلى ٧ ٪.

* زيادة نسبة المقالات العلمية المكتوبة بالإنكليزية في ١٢٢ بلدًا من ٨٥ ٪ في العام ٥٧٩١م إلى ٩٢ ٪ في العام ١٨٩١م.

* قرار ثلاث مجلات يصدرها معهد باستور في فرنسا في العام ٩٨٩١م التحول في كتابة موضوعاتها من اللغة الفرنسية إلى اللغة الإنكليزية.

وهذا الأمر جعل نسبة ٧٠ ٪ من إنتاج قواعد المعلومات في العام ٠٩٩١م في الولايات المتحدة وليس في منافستها التكنولوجية اليابان؛ بالإضافة إلى ذلك تمت في عام ٦٩٩١م دراسة إعلامية في ٤١ دولة وكانت النتائج كما يلي:

* أكثر الأفلام مشاهدة أمريكية، وتسعة أشرطة من كل عشرة أشرطة فيديو أمريكية.

* ٢٠٠٠٠ مستهلك حول العالم في تسع عشرة دولة سئلوا عن الثقافة الإعلامية الأمريكية أجاب ما يقارب النصف منهم بأنها جيدة جدًا أو ممتازة.

* ٩٠ ٪ من الإعلام في إيطاليا يسيطر عليه الإعلام الأمريكي.

* ٢٥ ٪ من سوق الكتب (ثمانية بليون دولار إجمالي دخل الكتب في العالم) تسيطر عليه عشر دور نشر وأكبرها بل أكثرها مملوكة لمؤسسات إعلامية دولية (تايم

ورنر، بريكزمان، فياكم).

ولا يمكن هنا أن نتحدث عن التضليل الإعلامي دون أن نذكر دور سادة هذا الاختصاص وهم يهود إسرائيل حيث تعمَّدت الدعاية الإسرائيلية بشكل مدروس، تجهيل الرأي العام العالمي بالنسبة لقضية فلسطين وحقائقها وصورة الصراع ووقائعه، واتبعت هذه الدعاية مداخل نظرية في أوربا وأميركا محددة بالتالي:

١ - تقديم إسرائيل كناتج للفكر والجهد والمهارة النابعة عن الحضارة الغربية.

٢ - التأكيد على «المعجزات» التي حققتها إسرائيل في الصحراء التي كان اسمها فلسطين، والتي أهمها «اقتلوا غزاة» العرب و«دمروا» معالم الحياة فيها.

٣ - التذكير المتواصل بأن إسرائيل هي تحقيق لنبوءة دينية، وردت في العهد القديم.

٤ - التذكير المتواصل بفظائع النازية وغيرها من مظاهر الاضطهاد الأوروبي، عبر التاريخ لليهود، وأن مشاكل إنشائها تشكل بالتالي الحل التاريخي للمشكلة اليهودية.

٥ - تصوير معاداة العرب لها على أساس أنه عداء ديني وعنصري، يزيد من حدته علاقاتها القوية مع العالم الغربي.

٦ - تصويرها مهددة بصفة مستمرة من جيرانها العرب . . الذين يحلمون بتدميرها، وقذف سكانها «الأوربيين» أصلاً إلى البحر.

٧ - التأكيد على حاجتها للاعتماد على القارتين الأوربية والأمريكية، « مركز الثقافة والعلم» من أجل تحقيق متطلبات أمنها.

٨ - التأكيد على أن من شأن توطيد علاقاتها بالعالم الأفرو - آسيوي تحقيق الفائدة ليس فقط لكل من إسرائيل وهذا العالم، ولكن لقارتي أوربا وأمريكا أيضًا.

*** البحث عن الحقيقة:**

وعودة إلى الإعلام الأمريكي، فإن الساسة الأمريكيين والقائمين على توجيه

السياسات الإعلامية الأمريكية يعملون بخطين متوازيين، الخط الأول محاولة منع أي معلومات تخالف توجه الإدارة الأمريكية وتناقض الرأي العام الذي تحاول أن تبنيه في عقلية الجماهير، وهي بهذا الخط تعود بأمريكا إلى الوراء وتحولها إلى دولة بوليسية لمتابعة وتعقب الأخبار من خلال تفعيل حارس البوابة الإعلامي ومنع مرور أي خبر لا يروق للتوجهات السياسية الأمريكية.

وكل يذكر كيف نبهت مستشارة الأمن القومي «كونداليزا رايس» مسؤولي وسائل الإعلام الرئيسية في أميركا إلى أهمية ما يسمى: «منع التسريب Ieakage» ومنعت محطات التلفاز من بث رسائل زعيم القاعدة، وفي بعض الحالات تم عمل مونتاج لها، بحجة التأكد من عدم وجود رسائل مشفرة، وسعيًا للسيطرة على التغطية الصحفية للحرب على العراق، فقد رافق القوات الأمريكية نحو خمسمائة صحفي، ووزع عليهم لائحة بالقيود والممنوعات تشمل خمسين بندًا في اثنتي عشرة صفحة، ومن أهمها عدم نشر أي صور إلا بعد اعتبارها مناسبة من المختصين، وذكرت بعض التقارير أن الوكالة الحكومية الأمريكية للصور والخرائط، اشترت حقوقًا لاحتكار جميع صور الأقمار الصناعية في أفغانستان، وذلك منذ بدء العمليات العسكرية هناك.

كما كشفت مجلة «Index on censorship» الإنجليزية أن الإدارة الأمريكية في العراق طالبت شبكة الإعلام العراقية بحذف فقرات القرآن، وحذف كل ما تتصور أنه معاد للولايات المتحدة، وربما يعلم القليل أن محطة التلفزيون العراقية الجديدة والمؤسسة الإعلامية الرسمية العراقية الراهنة «IMN» قد دفع البنتاجون تكاليفها بالكامل، ورغم ذلك فإن هناك أصواتًا تحاول أن تخترق جدار الحصار وتوصل الحقيقة إلى الشعب الأمريكي، ومنها كتاب (أخبرني أكاذيب) أو «اكذب عليَّ» الذي حرره دافيد ميلر الأستاذ بمعهد البحوث الإعلامية بجامعة ستيرلنج الأسكتلندية وهو كتاب شارك فيه عدد كبير من الكتاب والباحثين المعنيين بالظاهرة الإعلامية في بريطانيا خاصة، ويدور الإعلام المتزايد في إحكام قبضة

هيمنة الغرب على العالم من خلال تحكمه في طبيعة المعلومات المتاحة، وتدفقها أو عرقلة هذا التدفق والتعتيم عليه.

وكما أنه ينطلق من التصور الأوربي باستقلال أجهزة الإعلام ونزاهتها، ومن الضيق بتأثير الهيمنة الأمريكية على هذا الاستقلال، والنيل من نزاهة الإعلام الغربي ومصداقيته معًا؛ وهو كتاب يتناول ضمن ما يتناول آليات عمليات «الدعاية» أو «البروباجندا» المنظمة، وإدارة كل من أمريكا وبريطانيا للمعلومات بنفس طريقة إدارة الحرب العسكرية ذاتها كي تقنع الرأي العام ـ المحلي والدولي على حد السواء ـ بالتهديد الذي تشكله أسلحة الدمار الشامل العراقية التي لا وجود لها.

ويكشف لنا الكتاب الذي شارك فيه عدد من الصحفيين والجامعيين والمفكرين اللامعين من أمثال روبرت فيسكن، وجون بيرجر، ومارك ستيل، وناعوم تشومسكي، وجوليان بيتلي، وجرنفيل وليامز، ودافيد كرومويل، وتيم لويلين وغيرهم كيف استطاعت حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا التلاعب بالإعلام ـ الذي يتوهم أنه حر ونزيه ـ وجعلته أداة طيعة في أيدي مخططها العسكري الجهنمي بطريقة غير مسبوقة منذ الحرب العالمية الثانية؛ كما يكشف لنا أن التفاعل بين الآلة الإعلامية والآلة العسكرية بلغ درجة من التكامل والتناغم غير مسبوقة وحتى غير معروفة في التاريخ الحديث.

كما يقدم لنا الكتاب الثاني الذي صدر هو الآخر في أمريكا: (ثمن الولاء: جورج بوش والبيت الأبيض وتثقيف بول أونيل) الشهادة على تسع عشرة ألف وثيقة وفرها له بول أونيل تكشف لنا أنَّ حكومة جورج بوش الحالية وضعت ضمن برنامجها منذ الأيام الأولى لتوليها السلطة، وقُبيل أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة بأكثر من تسعة أشهر مسألة التخلص من نظام صدام حسين واحتلال العراق، أو السيطرة على ثروته النفطية بأي طريقة ممكنة، وأنه طلب من مجلس الأمن القومي أن يبحث عن طريقة تمكنه من تحقيق ذلك.

لكن أخطر ما يقدمه في هذا المجال أن مجلس الأمن القومي وطوال الثلاثة

والعشرين شهرًا التي حضر فيها اجتماعاته لم يتمكن من الحصول على دليل دامغ واحد يؤكد أن لدى العراق أسلحة للدمار الشامل؛ كما أن الكتاب يقدم لنا عددًا من وثائق البنتاجون التي تناقش عملية تقسيم نفط العراق بين الشركات النفطية الغربية الكبرى، وكيفية توزيع هذه الثروة بطريقة تخرس من معارضي السياسة الأمريكية وتضمن لأمريكا الهيمنة عليه في الوقت نفسه.

وليت الأمر توقف على المقالات وإصدار المؤلفات والكتب حول نظريات التضليل الإعلامي، بل ساهم الفن الأمريكي في التشكيك بالمعلومات المعروضة من خلال مسلسل أمريكي عنوانه (٢٤) وهو الجزء الثاني من المسلسل وسجل رقمًا قياسيًا في عدد المشاهدين في الولايات المتحدة (أحد عشر مليون مشاهد) وبريطانيا (ثلاثة ملايين مشاهد).

وتدور أحداث (٢٤) حول قيام أشخاص تابعين لمنظمة إرهابية في الشرق الأوسط بإدخال قنبلة نووية إلى الولايات المتحدة بغرض تنفيذ عملية إرهابية غير مسبوقة على الأراضي الأمريكية.

ورغم نجاح أجهزة الاستخبارات الأمريكية في اكتشاف المحاولة وتحديد اليوم الذي ستنفذ فيه وموقع تفجيرها إلا أنها بدلاً من التحرك لإحباطها واعتقال الإرهابيين قامت ـ بناء على تعليمات من مسؤولين أمريكيين كبار تربطهم علاقات راسخة بعدد من المؤسسات الاقتصادية العملاقة ـ بإرسال فريق من القوات الخاصة لتأمين مهمتهم وضمان تنفيذها حتى يمكن استغلالها كذريعة لشن حرب في الشرق الأوسط توقف تدفق إمدادات النفط العربية لإفساح الطريق أمام تدفق النفط من منطقة بحر قزوين الذي تمتلك عقود هذه المؤسسات.

وتستعرض أحداث المسلسل كيف نجح عميل متقاعد (بطل المسلسل) كلفه الرئيس الأمريكي بالعثور على القنبلة وإبطال مفعولها، في إحباط الخطة وتفجير القنبلة في الصحراء لخفض الآثار المدمرة المترتبة على انفجارها إلى حدها الأدنى.

فما كان من مسؤولي هذه الشركات إلا أن قاموا بتلفيق دليل يثبت تورط دول

عربية في دعم هذه العملية الإرهابية لتضمن ـ عن طريق هذا الدليل بالإضافة إلى موجة الغضب الشعبي العارمة إزاء انفجار القنبلة ـ إصدار الرئيس الأمريكي ـ الذي تظهره الحلقات في شخص «آخر من يعلم» ـ أوامره بشن ضربة عسكرية انتقامية ساحقة في الشرق الأوسط للثأر لهيبة أمريكا.

وتصل الأحداث ذروتها بعزل الرئيس الأمريكي وتولي نائبه مكانه بعد أن اتهموه بالضعف واللين في مواجهة أخطار تتهدد الولايات المتحدة، فقط لأنه كان حريصًا على التأكد من سلامة الدليل المقدم على تورط هذه الدول قبل اتخاذه قرارًا بشن حرب مصيرية كتلك.

ويأتي المسلسل في وقت تشهد فيه منطقة الشرق الأوسط تطورات كبيرة وأحداثًا متسارعة منذ وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر على واشنطن ونيويورك وما تلاها من إعلان الولايات المتحدة الحرب «على الإرهاب» وقيامها بغزو أفغانستان ثم العراق، قبل شهور قليلة وإسقاط نظامي الحكم في البلدين، ويمثل عرض المسلسل في هذا التوقيت حساسية للإدارة الأمريكية التي تواجه العديد من الاتهامات والانتقادات بسبب حرب العراق التي فشلت حتى الآن في تبرير أسبابها سواء بالعثور على أسلحة الدمار الشامل العراقية التي قالت بوجودها أو بإثبات أي علاقة بين نظام الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين ومنظمة القاعدة المسؤولة عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م.

الجدير بالذكر أن مسلسل (٤٢) وهو من بطولة الممثل الأمريكي البريطاني المولد «كيفر ثارزلاند» في دور العميل المتقاعد والممثل «دينيس هيسبرت» في دور الرئيس الأمريكي صنف ضمن أفضل خمسة أعمال تلفزيونية في تاريخ الولايات المتحدة وهو من إنتاج شركة فوكس العملاقة في مجال الإنتاج السينمائي والتلفزيوني.

كما احتل المسلسل صدارة قائمة الأعمال الدرامية التي تعرضها كافة محطات التلفزيون البريطانية وفقًا لإحصائيات (بي بي سي).

*** قناة الحرة وفكرة الانتقاء النوعي:**

أما الخط الإعلامي الثاني الذي يقوم بتنفيذه القائمون على سياسات الإعلام الأمريكي فهو تأسيس وإطلاق مؤسسات إعلامية تتحدث باللغة الأم للمناطق التي تبث إليها؛ بحيث تصبح قادرة على المنافسة وتخفيف حدة الكراهية للولايات المتحدة التي أكدتها الاستبيانات المختلفة في المنطقة العربية والإسلامية وزادت عليها الفضائيات العربية وخاصة قناتي الجزيرة والعربية، وقد بدأت «قناة الحرة» التلفزيونية الناطقة باللغة العربية والممولة من الولايات المتحدة بثها في اثنتين و عشرين دولة في الشرق الأوسط بهدف تحسين صورة أمريكا والحد من نفوذ قناتي الجزيرة والعربية الإخباريتين العربيتين في هذه المنطقة.

وأكد المكتب الأمريكي للبث الإذاعي (بي بي جي) الوكالة الفدرالية المكلفة بالإشراف على هذه القناة التلفزيونية الجديدة الممولة من الكونغرس الأمريكي أن الحرة ستكون قبل أي شيء آخر شبكة إخبارية ستكون تغطيتها «دقيقة» متوازنة ومتكاملة.

وقد استقبل العالم العربي قناة التلفزيون الأمريكية الجديدة «الحرة» الناطقة بالعربية بتشكك لا بل بازدراء، وقال أستاذ الإعلام في جامعة الأزهر الدكتور «محيي الدين عبد الحليم» أن «الحرة» إذا ادعت أنها ستكون موضوعية «ستقدم ذلك من قبيل تقديم السم في العسل وستقدم نصف الحقائق وهذا أخطر أنواع التضليل والكذب لأنها ستبني على ذلك آراء كاذبة وخطرة».

وترى أستاذة الصحافة في كلية الإعلام جامعة القاهرة الدكتورة أميرة العباسي أن «الحرة بدأت بثها وهي مدانة قبل أن تُدان من المشاهد العربي»، كما أن تمويل هذه المحطة من الكونغرس الأمريكي ونحن نعلم جميعًا مدى سيطرة اللوبي اليهودي عليه.

*** كوبونات صدام:**

والوجه الآخر لصناعة القبول هو ما كشفت عنه كوبونات صدام النفطية من وجود أقلام وأحزاب ووجوه عربية في دول عربية وأجنبية تقوم بمهمة التسويق

وصناعة القبول للطاغية العراقي المخلوع في محاولة مستميتة لتجميل وجه النظام عبر وسائل الإعلام والصحف والفضائيات، وبغض النظر عن إنكار أو إقرار بعض هذه الشخصيات بحقيقة الأمر، فإن كل الشواهد تؤكد أن هذه السياسة موجودة لدى النظام العراقي، وأن النظام العراقي من جهة أخرى ليس الوحيد الذي يقوم بهذه اللعبة، فهناك أنظمة عربية أخرى مارست صناعة القبول من خلال الدعم والتمويل المالي لبعض المؤسسات والشخصيات الإعلامية؛ لأن لعبة الإعلام مكلفة.

وهذه الحقيقة يعلمها كل من يعمل في هذا المجال والاستمرار في الصدور والبث يتطلب ميزانيات ضخمة مدعومة من دول أو شخصيات أو أحزاب، وهنا تتداخل المصالح ويتكرر صراع القيم مع الضغط المادي على الوسيلة الإعلامية، وإن كان سقوط صدام حسين كشف جبهة من جبهات «فقه الدفع» كما أسماها الكاتب فهمي هويدي فإنه وبلا شك هناك جهات أخرى تماثل كوبونات صدام النفطية مثل شيكات فلان ودولارات علان وغيرها، وسياسة الوسيلة الإعلامية ودفاعها المستميت عن جهة معينة بشكل متكرر أو إغفالها لسقطات هذه الجهة ومخازيها يعتبر أحد المؤشرات عن سياسات الرشوة الإعلامية التي لا تخلو منها الممارسات الإعلامية العربية، وإننا للأسف وبسبب هذه الممارسات نفقد احترام القارئ أو المشاهد وتكون الحقيقة هي الضحية، فتصبح هناك جيوش من الوسائل والرسائل الإعلامية لكن مع القليل من المعلومات الموثقة والدقيقة حول الحقيقة، فإذا ما أضفنا إلى ذلك النهج العاطفي الذي تتبعه الشعوب العربية، وكمية «لا بأس بها من الغوغائية التي تقود الشارع العربي معتمدة على خطاب في كثير من الأحيان راديكالي لا يسنده واقع عملي يحوله من شعارات إلى حقائق، فإن النتيجة بلا شك هي صناعة أبطال من ورق، ودول لا تستطيع أن تصمد بضعة أسابيع أمام أي تدخل خارجي، كما حدث مع النظام العراقي في معركته الأخيرة والتي كشفت البطولات الوهمية وعلى رأسها أكذوبة «أم المعارك» فكانت النتيجة اجتياح

الأمريكان لعاصمة الرشيد بفضيحة سياسية وعسكرية تستحق أن نسميها وبكل جدارة «أم الهزائم» !!

ü ü ü

الفصل الثالث
في أدب الحوار والاختلاف

تمهيد: الحوار لغة الحضارة.

المبحث الأول: التأصيل الشرعي للحوار.

المبحث الثاني: أدب الحوار والاختلاف.

المبحث الثالث: من حوارات القرآن الكريم.

تمهيد
الحوار لغة الحضارة

المتتبع لأساليب القرآن الكريم يجد أنها جمعت كل الأساليب التي عرفها العرب في طرائقهم الكلامية، وأساليبهم البلاغية، فما من فن من فنون القول إلاَّ وأنت واجد له في القرآن مثالاً أو أمثلة، تأتي في مواضعها طبيعية فطرية تتلقاها الأنفس بالقبول، وتطرب الأذن لسماعها، وتلتذ الأفئدة من رفيع بيانها، وسمو معانيها، وعظيم وقعها، ودقة تصويرها في تعبير بعيد عن التعقيد وعن المبالغة وعن الإغراب.

ولن نستقصي هذه الأساليب في هذه المقدمة، وإنما نأخذ أسلوب الحوار كنموذج ومثال، ومن المعلوم أن أسلوب الحوار يجمع كثيرًا من السمات الفنية التي من أبرزها إقامة الحجة على المخالفين، وتفنيد آراء الضالين، وكشف زيف المزيفين، وتبكيت المخالفين، وإظهار الحجة الواضحة أمام المعاندين كل ذلك يتم في يقظة وعي، وحضور فكر، وسلامة منطق، وقوة تعبير وبلاغة تصوير، مما يجعل قضية الحوار تثبت في الأذهان، ولا تبعد عن العقل والوجدان.

وقد وردت الكلمة بلفظها في التنزيل، قال سبحانه: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ..... ﴾[1]، وجاءت في سور كثيرة من القرآن مشاهد حوارية يختلف مكانها في الدنيا والآخرة، وقد يجمع المشهد الواحد حوارًا دنيويًا ثم ينتقل هذا المشهد الحواري لتراه مستكملاً في يوم القيامة بصورة مناقضة لما كان في الدنيا، مما ينزل الحسرة والندامة بالأفاكين الآثمين، غير المؤمنين بيوم الدين.

وقد يكون الحوار بين الله وملائكته، أو بين الله ورسله، أو بين الله وعدوه إبليس عليه اللعنات، وقد يكون بين الرسل وأقوامهم مؤمنين أو مكذبين، وقد يكون بين فردين أو طائفتين أو جماعتين... إلى غير ذلك مما ينبغي الإلمام به ومعرفة مبناه

---

(١) الكهف: ٣٧.

ومغزاه؛ ليزداد الذي آمنوا إيمانًا.

وقد ألممنا بحمد الله بطرف من هذا الأسلوب، أسلوب الحوار في القرآن الكريم، متعرضين في ثنايا حديثنا إلى ما ينبغي الالتفات إليها من العبرة والموعظة الحسنة، وإلى كيفية الاستفادة منه في حياتنا، وطريقة ردنا على مثيري الشبهات والفتن في ديار المسلمين. ومن عجب أن القرآن الكريم يذكر كلام المخالفين وأدلتهم وحججهم ومن ثم يرد عليها بالحجج والبراهين، التي تمحو كل شبهة، وتدحض كل فتنة، فلم يحجب القرآن آراء المخالفين، وإن اتصلت بأعظم القضايا قضية التوحيد، وإفراد الله وحده بالعبادة، هذا فضلاً عن غيرها من القضايا المتصلة بالرسل والرسالات أو بالكتب، أو الملائكة، أو غير ذلك.

وأولى بنا نحن ـ المسلمين ـ أن نقبل من الآخرين آراءهم، وأن نسمع حججهم، وأن نرد عليها بالحجة والبرهان، والأدلة والبيان، على أن يكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، فلا يسمعوننا كلامهم وهم يأبون سماع ردنا، ولا يقيمون حجتهم علينا وهم يرفضون لنا كل حجة، وغاية مرادنا أن يتم الحوار بيننا الآن على طريقة القرآن حتى يستقيم المعوج، ويعتدل المنحرف، ويعود الشارد الضال إلى الطريق القويم: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وهذه نماذج وأمثلة من حوارات القرآن الكريم، وأنت ـ إن شاء الله ـ واجد فيها ما قلناه، بل وواجد فيها بالتأمل والتفكير والتدبر أزيد مما قلناه؛ لأن كتابنا ينفرد من بين كل الكتب بأنه لا تنتهي عجائبه ولا يَخلَق على كثرة الرد.

وإني أسأل الله أن ينفعني وإياكم بالقرآن الكريم، وأن يجعلنا من حملة كتابه الكريم، وأن يهدينا سواء السبيل.

ü ü ü

---

(١) سبأ: ٢٤.

المبحث الأول
التأصيل الشرعي للاختلاف

بداية نؤكد أن الاختلاف لا يؤدي بالضرورة إلى الخصومة قال ابن تيمية في حديثه عن اختلاف الصحابة: «كانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشورة ومناصحة وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة» وحديثنا عن الاختلاف يستلزم منا ذكره من خلال التاريخ وتطور الاختلاف.

أولاً: اختلاف الصحابة في عهد النبي ﷺ:

لم يكن في عهد رسول الله ﷺ ما يمكن أن يؤدي إلى اختلاف بالمعنى المرفوض بل كانوا إذا اختلفوا رجعوا إلى النبي ﷺ فأنهى الأمر بقوله ﷺ، وأمثلة هذا النوع:

أ ـ ما أخرجه البخاري ومسلم: « أن النبي قال يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها ـ أي بني قريظة، وقال بعضهم بل نصلي، ولم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي فلم يعنف واحدًا منهم»[1].

ومن استعراضنا لواقع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في عهد النبي ﷺ تتبين لنا بعض آداب الاختلاف في عهد النبوة:

١ ـ عدم الإكثار من المسائل والتفريعات والتعامل مع الواقع.

٢ ـ عند الاختلاف يرجع الجميع إلى النبي ﷺ.

٣ ـ الالتزام بالتقوى وتجنب الهوى والحرص على الحقيقة من أي جهة خرجت.

٤ ـ تنزههم عن المماراة وابتعادهم عن التعصب للرأي.

ثانيًا: الاختلاف في عهد الصحابة رضوان الله عليهم:

إن اختلاف الصحابة كانت له آداب وكانت له أسباب، ومن الأمور الكبيرة التي اختلفوا فيها:

---

(١)أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

١ ـ اختلافهم في وفاته ﷺ: وذلك لأسباب منها:

أ ـ الغفلة عن بعض الآيات التي تتحدث عن وفاته ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ﴾[(١)].

ب ـ الفهم الخاص لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[(٢)].

٢ ـ اختلافهم في دفنه ﷺ: وحسم هذا الخلاف نص الحديث الذي ذكره الصديق قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض»[(٣)].

٣ ـ اختلافهم في خلافة الرسول ﷺ.

٤ ـ اختلافهم في بعض المسائل الفقهية: فأبو بكر رضي الله عنه يرى سبي نساء المرتدين وعمر رضي الله عنه لا يرى ذلك، وفي الأرض المفتوحة كان أبو بكر يرى قسمتها وكان عمر يرى وقفها ولم يقسمها عند خلافته، فرضي الله عنهم لم يفسد الخلاف في هذه المسائل الكبيرة الحب والود بينهم.

*** صور لاختلاف الصحابة مع بعض في الأمور الفقهية:**

*** بين عمر وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما:**

أ ـ قول الرجل لامرأته: «أنت عليَّ حرام»:

١ ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرى أنها طلقة واحدة.

٢ ـ ابن مسعود رضي الله عنه يرى أنها يمين.

ب ـ اختلافهم في رجل زنى بامرأة ثم تزوجها:

١ ـ ابن مسعود رضي الله عنه يرى أنهما لا يزالان زانيين ما اجتمعا.

٢ ـ عمر رضي الله عنه لا يرى أنهما زانيان ويُعتبر أوله سفاحًا وآخره نكاحًا.

---

(١)الزمر: ٣٠.

(٢)البقرة: ١٤٣.

(٣)أخرجه ابن ماجه (١٦٢٨)، وقال الألباني: «ضعيف».

قال ابن القيم في إعلام الموقعين: «إن المسائل الفقهية التي خالف فيها ابن مسعود عمر رضي الله عنهما بلغت مائة مسألة».

ثالثًا: الخلاف في عهد التابعين وآدابه:

في عهد عثمان رضي الله عنه سمح للصحابة أن يستوطنوا خارج المدينة، وكان ذلك ممنوعًا في زمن عمر رضي الله عنه لرغبة الفاروق رضي الله عنه بالإبقاء على المدينة قاعدة الخلافة التي تتم فيها المشورة من جيل الصحابة ـ رضوان الله عليهم، والصحابة في المدينة الذين بقوا بعد وفاته ﷺ عشرة آلاف، تفرق منهم ألفان في الأمصار في عهد عثمان رضي الله عنه، ففي البصرة والكوفة استوطن ثلاثمائة وكذلك مثلهم في مصر والشام، وهكذا حتى وصلوا إلى ألفين في العالم الإسلامي.

وفي العالم الإسلامي تألق نجم العلماء كل في بلده، ففي المدينة سعيد بن المسيب، وعطاء بن رباح في مكة وطاووس في اليمن، ويحيى بن كثير في اليمامة، والحسن البصري في البصرة، وهؤلاء ـ رحمهم الله ـ عندما يختلفون يقفون بأدب عند الثابت من سُنَّة النبي ﷺ.

وأمثلة ذلك كثيرة:

منها: ما أخرجه مالك في الموطأ عن ربيعة قال: سألت سعيد بن المسيب كم في أصبع المرأة؟ فقال: عشرة من الإبل، قلت: ففي أصبعين؟ قال: عشرون، قلت: ففي ثلاث؟ قال: ثلاثون، قلت: ففي أربع؟ قال: عشرون، قلت: حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقصت ديتها، قال سعيد: أعراقي أنت؟ (يقصد استعمال القياس) فقال ربيعة: عالم مثبت أو جاهل متعلم، قال سعيد: هي السنة يا بن أخي[1].

رابعًا: الاختلاف في المدارس الفقهية:

بعد عهد الصحابة والتابعين ـ رضوان الله عليهم ـ ظهر ثلاثة عشر مذهبًا لأهل

---

(١)أخرجه مالك (٢٥٢٩)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٧/ ٣٠٩).

السنة، دُوِّنَ تسعةٌ منها واختلفت من حيث الانتشار:

١ ـ الحسن البصري توفي سنة ١١٠هـ .

٢ ـ أبو حنفية توفي سنة ١٥٠ هـ .

٣ ـ الأوزاعي توفي سنة ١٥٧ هـ .

٤ ـ سفيان الثوري توفي سنة ١٦٠ هـ .

٥ ـ الليث بن سعد توفي سنة ١٧٥ هـ .

٦ ـ مالك بن أنس توفي سنة ١٧٩ هـ .

٧ ـ سفيان بن عيينة توفي سنة ١٨٩ هـ .

٨ ـ محمد بن إدريس الشافعي توفي سنة ٢٠٤ هـ .

٩ ـ الإمام أحمد بن حنبل توفي سنة ٢٤١ هـ .

١٠ ـ داود الظاهري توفي سنة ٢٧٠ هـ .

ومن هؤلاء من أصبح مدار الفتوى في العالم الإسلامي: (أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد) رحمهم الله جميعًا، والأئمة الأربعة هؤلاء قامت مذاهبهم على من سبقهم:

١ ـ أبو حنيفة على مدرسة الرأي التي أصلها إبراهيم النخعي.

٢ ـ والثلاثة الآخرون على مدرسة الأثر التي أصلها سعيد بن المسيب.

وهذا الاختلاف لم يمنع وجود الاحترام والمحبة بينهم، والأمثلة على ذلك كثيرة.

*** صور رفيعة من اختلاف الأئمة:**

١ ـ كان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل يصلى خلفه؟ فقال: كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب، وصلى الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ الصبح قريبًا من مقبرة أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ فلم يقنت والقنوت عنده سنة مؤكدة فقيل له

في ذلك، فقال: أخالفه وأنا في حضرته؟!

٢ ـ وكان الإمام الشافعي يقول: مالك معلمي وأنا أخذت عنه العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمنّ عليَّ من مالك بن أنس.

٣ ـ قال صالح بن الإمام أحمد: لقيني يحيى بن معين فقال: أما يستحي أبوك مما يفعل؟ فقلت: وما يفعل؟ قال: رأيته مع الشافعي، والشافعي راكب، وهو راجل آخذ زمام دابته، فقلت لأبي ذلك فقال: إن لقيته فقل: يقول لك أبي: إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر.

*** من أسباب الاختلافات الفقهية:**

١ ـ أسباب تعود إلى اللغة:

مثال على ذلك: اختلف الفقهاء في مراد الشارع من لفظ «القرء» في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[1]، فلفظ (القرء) مشترك بين الطهر والحيض، (فالحجازيون) قالوا: ثلاثة أطهار (والعراقيون) قالوا: ثلاث حيضات.

٢ ـ أسباب تعود إلى رواية السنن:

ولهذا السبب؛ ترجع معظم الاختلافات الفقهية التي وقعت لعلماء السلف رحمهم الله، وذلك من حيث وصول الحديث من عدمه، وصحة الحديث من ضعفه، وكذلك في اختلاف روايات الحديث، ودخوله في الناسخ والمنسوخ من عدمه، ووجود السبب للحديث من عدمه.

٣ ـ أسباب تعود إلى القواعد الأصولية وضوابط الاستنباط:

واختلاف الفقهاء من الأخذ بالأدلة الأصولية سبب من الأسباب وأخذهم من عدمه في المصالح المرسلة وسد الذرائع، والاستحسان، والاستصحاب، والأخذ بالأحوط، والأخذ بالأوفق، والأخذ بالأثقل والعرف والعادة، وقول الصحابي وحجيته.

---

(١)البقرة: ٢٢٨.

خامسًا: الخلاف بعد القرون الأخيرة:

تغير الحال بعد انتهاء القرن الرابع وأصبح هناك انفصام بين القيادتين: الفكرية والسياسية، فوجدت ممارسات سياسية غير إسلامية، وذلك للقصور في معرفة السياسة الشرعية الإسلامية، وخرج لنا في أبواب الفقه ما عرف بـ (المخارج والحيل) ثم انتشر التقليد والتعصب للأقوال والآراء.

*** حال الأمة في الأحقاب الأخيرة ومسألة الخلاف:**

الأمة في الفترة الأخيرة من الدولة العثمانية إلى سقوط الخلافة إلى سيطرة ما يسمى بالأنظمة الثورية عاشت في مجموعة إحباطات من خمول في العقيدة، وزعزعة في الإيمان والسلوك والاستقامة، ومع هذا الواقع بدأت فئات كثيرة من أبناء الأمة تدرك الحقيقة الكبرى: « أن آخر هذه الأمة لن تصلح إلا بما صلح به أولها» وظهر ما تم الاصطلاح عليه « بالصحوة الإسلامية»

فبدأت المعركة مع هذه الصحوة في الداخل والخارج، وأخذت الصحوة تتعثر عند صخرة الخلاف المقيتة فعلى إطار المسائل الفقهية بدأ الصراع بين من ينتسب إلى المذهبية ومن يدعو إلى اللامذهبية، وبدأت الاتهامات حتى وصلت إلى التفسيق والتبديع، وفي هذا الصراع كانت هناك غفلة عما يتعرض له الإسلام من هجمات خارجية شرسة، وعند التحقيق نرى أن الجميع يأخذ من الأئمة الكبار! فلماذا لا يلتزمون بآداب الاختلاف التي عاش في كنفها كرام الأئمة من السلف.

ولعل ما نعيشه من اختلاف بعيد عن آداب الحوار يرجع إلى الجهل بالإسلام أو العلم الناقص به، وهذا يستلزم أمورًا منها:

١ ـ أن شباب الدعوة لابد أن يأخذوا بالأدوات التي يتعاملون بها من منبع كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وكتب العلماء.

٢ ـ التعامل مع الشريعة بالمقصد الذي جاءت به من إدخال السعادة على الناس في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [(١)].

---

(١) البقرة: ١٨٥.

وتحقيق المقاصد والكليات الخمس.

٣ ـ إدراك أن من أهم واجبات المسلمين أن يدركوا أن أخوة الإسلام ووحدة صفوف المسلمين تأتي في رأس أولويات العمل، كما أنه لابد من معرفة خطورة عدم الالتزام بآداب الحوار وسياج هذا كله مراقبة الله ـ سبحانه ـ في كل تصرف ولفظ.

ü ü ü

المبحث الثاني
أدب الحوار والاختلاف

* **توطئة:**

وبعد هذا التطواف في التأصيل الشرعي للاختلاف ندخل إلى القرآن الكريم ندخل إلى موضوعنا في أدب الحوار والاختلاف فنبدأ بالتعريفات للمفردات المهمة في حديثنا: (الحوار ـ الجدل ـ الاختلاف ـ الشقاق) [(١)].

أولاً: الحوار: من المحاورة وهي المراجعة في الكلام.

ثانيًا: المجادلة: من جدل الحبل إذا فتله: وعلى ذلك معنى الجدل: تبادل الأدلة والبراهين بين الأطراف دعمًا لما يراه كل منها من فكر، وما يعتقده من رأي.

أصل الاستعمال للجدل: يستعمل لمن خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ـ وهو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة فكل واحد من المتجادلين يحاول أن يفتل صاحبه ـ ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها.

* **الجدل والمراء:**

المراء بصفة عامة مذموم وهو لون من ألوان الجدل يغلب عليه سلطان الهوى والرغبة في الانتصار، والمراء الذي سمح للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [(٢)]. فالمراد الظاهر الذي سمح لرسول الله ﷺ في شيء منه، هو ما يكون في قضية واضحة ملموسة تقع تحت إدراك الحِسِ أو في دائرة العلم.

وجه التقارب بين الجدل والحوار:

اجتمع اللفظان في دلالة واحدة في آية واحدة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى

---

(١)وهذه التعريفات مبسوطة في كتب المنطق وعلم الكلام وآداب البحث والمناظرة وأصول الفقه.

(٢)الكهف: ٢٢.

زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ﴾[(١)].

متى يكون الجدل حسنًا؟

١ـ إن كان نزيهًا يعف عن المغالطة.

٢ـ ينأى عن المكابرة.

٣ـ التجرد من الانتصار للنفس بالحق أو الباطل.

مراد الحوار والجدل في مصطلح الناس ومقاصده:

١ ـ تصحيح كلام. ٢ ـ إظهار حجة.

٣ ـ إثبات حق. ٤ ـ دفع شبهة.

٥ ـ ردّ لفاسد من القول والرأي.

وهناك مقاصد فرعية، منها:

١ ـ إيجاد حل وسط يرضي الأطراف.

٢ ـ التعرف على وجهات النظر كتمهيد للحوار.

٣ ـ البحث والتنقيب من أجل الاستقصاء والاستقراء في تنويع الرؤى والتصورات المتاحة من أجل الوصول إلى نتائج أفضل وأمكن.

ثالثًا: الاختلاف:

أن ينهج كل شخص طريقًا مغايرًا للآخرين، ومن استيضاح النصوص القرآنية المتحدثة عن الخلاف والاختلاف يتبين أنه يراد به مطلق المغايرة في القول أو الرأي أو الحالة أو الهيئة.

الاختلاف والاتفاق:

إن الله وضع على الحق معالم، وجعل على الصراط المستقيم منائر، ولذلك كان الاستثناء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ ﴾[(٢)].

---

(١) المجادلة: ١.

(٢) هود: ١١٨، ١١٩.

فهداية الله للحق متحققة: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ﴾[1]. فالنفوس إذا تجردت من أهوائها، وجدَّت في تلمس الحق، فإنها مهدية إليه، فأصول الدين وأمهات الفضائل، وأمهات الرذائل بيَّنها الله بنصوص بيِّنة لا تقبل تحريفًا ولا تأويلاً، وقد جعلها الله أم الكتاب، وما دون هذه الأصول فقد عذر الله الخلق إذا ما اختلفوا فيها ورفع الحرج عنهم، بل جعل للمخطئ أجرًا وللمصيب أجرين.

رابعًا: الشقاق:

يكون الشقاق مرحلة بعد الاختلاف والمجادلة، وذلك حين يشتد الخلاف بين الخصوم، وكل واحد منهم يحرص على الغلبة بدلاً من الحرص على ظهور الحق ووضوح الصواب، ويتعذر أن يقوم بينهما تفاهم أو اتفاق، وأصل الشقاق أن يكون كل واحد في شق من الأرض فكأن أرضًا واحدة لا تتسع لهما معًا، وفي التنزيل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾[2]؛ أي خلافًا يعقبه نزاع يجعل كل واحد منهما في شق غير شق صاحبه.

ـ بعد تحديد مصطلحات الموضوع نبدأ بالدخول في الموضوع.

يقولون: «الوقاية خيرٌ من العلاج» ومنع أسباب المرض أفضل من علاجه بعد أن يقع، ولذلك ورد في الحديث: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء»[3]، فحتى لا يقع الخلاف المذموم بين الناس لابد من مراعاة أصول الحديث والاستماع والأخذ والعطاء، كما أنه من الضروري معرفة ما يجوز وما لا يجوز فيه الخلاف، ووجود الحوار في الناس أمر لا مفرَّ منه، وفوائده يحتاجها الداعية في طريقه كالمسافر؛ لحديث رفيق السفر من أجل قطع الملل، ورفع الضجر وتهوين البعد، قال

---

(١)البقرة: ٢١٣.

(٢)النساء: ٣٥.

(٣)قال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٠٣٥): «لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث ابن كلدة طبيب العرب».

سليمان ابن عبد الملك بعد أن عدد عظيم نعم الله عليه وما هو فيه من ملك قال: «وما أنا اليوم إلى شيء أحوج مني إلى جليس يضع عني مؤونة التحفظ، ويحدثني بما لا يمجه السمع، ويطرب إليه القلب».

ولهذا الأمر سنتحدث عن الحمية التي تمنع وقوع الاختلاف في الحوار من خلال عدة محاور:

المحور الأول: اتباع أصول الحوار الصحيح:

١ ـ بدء الحديث والحوار بمواطن الاتفاق وذلك من أجل:

أ ـ أن يتحقق في الحوار الهدوء والاتزان وإصابة الهدف.

ب ـ فتح آفاق الاتفاق والتلاقي.

جـ ـ الابتعاد عن تغيير القلوب وتشويش الخواطر.

د ـ التقليل من روح التحفز في الرد والتتبع للثغرات والزلات.

٢ ـ الإكثار من كلمة (نعم) والابتعاد عن كلمة (لا):

يقول أهل التخصص في الجدل: دع صاحبك في الطرف الآخر يوافق ويجيب (نعم) وحل ما استطعت بينه وبين (لا) فمتى قال المقابل (لا) أوجبت عليه كبرياؤه أن يظل مناصرًا لنفسه، وكلمة (نعم) تشعر المقابل بالمشاركة له في بعض قناعاته، فأكثر الجهل إنما يقع في النفي، الذي هو الجحود والتكذيب، لا في الإثبات.

٣ ـ سلوك الطرق العلمية في الحوار والتزامها:

أ ـ تقديم الأدلة المثبتة للدعوى.

ب ـ صحة النقل في الأمور المنقولة.

وبهاتين الطريقتين جاءت القاعدة: «إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مُدعيًا فالدليل».

٤ ـ السلامة من التناقض أثناء التحاور، ومن صور التناقض في الحوار:

أ ـ وصف فرعون لموسى عليه السلام بقوله كما حكاه القرآن الكريم: ﴿سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ

﴿٣٩﴾ ﴾[١] فالسحر الذي يتطلب الفطنة والذكاء لا يجتمع مع الجنون.

ب ـ نعت الكفار لآيات النبي ﷺ بأنها سحر مستمر: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾[٢]، وهذا تناقض في السحر لا يكون مستمرًا.

٥ ـ قبل البدء بالحوار لا بد من الاتفاق على المسلمات العقلية والدينية:

فقبل البدء بالحوار لابد من التأكد أن المسلمات العقلية ثابتة نحو حُسن الصدق، قُبح الكذب، شكر المُحسن، معاقبة المذنب، وكذلك الاتفاق على المسلمات الدينية؛ الإيمان بربوبية الله وبعبوديته، اتصاف الله بصفات الكمال، وجوب الحكم بما أنزل الله، وجوب حجاب المرأة، حرمة الزنى والخمر والربا، فالحجاب للمرأة أمر محسوم بجملة نصوص منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾[٣]، فأصل الحجاب ليس محلاً للاجتهاد، وقد يسوغ النقاش في فرعيات الحجاب كمسألة كشف الوجه والكفين.

٦ ـ التجرد وقصد الحق والبعد عن التعصب في الحوار:

قال الإمام الغزالي أبو حامد: «التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات، منها أن تكون في طلب الحق كناشد ضالّة، لا يُفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد معاونه، ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهره له».

٧ ـ يكون المحاور متأهلاً علميًا للحوار:

فمن المعروف أن الجاهل بالشيء ليس كفؤًا للعالم به، قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾[٤]. قال الإمام الشافعي: «ما جادلت عالمًا إلاّ وغلبته، وما جادلني جاهل إلا

---

(١)الذاريات: ٣٩.

(٢)القمر: ٢.

(٣)الأحزاب: ٥٩.

(٤)مريم: ٤٣.

غلبني» وهذا التهكم من الشافعي ـ رحمه الله ـ يشير إلى الجدل العقيم الذي يجري بين غير المتكافئين.

٨ ـ وضوح قطعية النتائج ونسبيتها عند المتحاورين:

من المقرر أن الرأي الفكري نسبي الدلالة على الصواب أو الخطأ والذين لا يجوز عليهم الخطأ هم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فيما يُبلغون عن ربهم سبحانه، وما عدا ذلك فيندرج تحت المقولة المشهورة: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي الآخر خطأ يحتمل الصواب»، ولذلك فإنه ليس من شرط الحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الآخر يقول ابن قدامة في المغني: «وكان بعضهم يُعذّب كُل من خالفه في المسائل الاجتهادّية، ولا يكلفّه أن يوافقه فهمه».

٩ ـ الرضا والقبول بالنتائج التي يتوصل إليها المتحاورون:

والالتزام الجاد بها، وبما يترتب عليها، قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «ما ناظرت أحدًا فقبل مني الحجّة إلا عظُم في عيني».

١٠ ـ الأخذ بوسائل الحوار والجدل والتي منها:

أ ـ الطرق المنطقية.

ب ـ القياسات الجدلية من المقدمات والمسلمات.

أولاً: الأخذ بأصول الحوار:

١ ـ البدء بالكليات، وهذا واضح في خطاب النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن في قوله ﷺ: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»[1].

٢ ـ الابتعاد عن الغلظة في الخطاب، ففي الحديث: «إن الله يُحب الرفق في الأمر

---

(١)أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

كله»[١]، والغلظة في القرآن لم تأت إلا في موضعين:

أ ـ في قلب المعركة: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً﴾ [٢].

ب ـ في تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها وتضييق الحدود: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [٣].

٣ ـ الابتعاد عن سوء الظن بالآخرين، النظر إليهم من خلال منظار أسود، يخفي حسناتهم، ويضخم سيئاتهم.

٤ ـ معرفة مراتب الأحكام الشرعية، وأنها ليست في درجة واحدة من حيث ثبوتها وبالتالي من حيث جواز الاختلاف فيها فأحكام المسائل يمكن تقسيمها إلى مسائل واجبات، ومسائل منهيات وكل من هذه بينها تفاوت، ومسائل الواجبات متفاوتة بالاعتبارات الآتية:

أ ـ الأحكام الظنية التي هي مجال الاجتهاد:

سواء كانت أحكامًا لا نص فيها، أو فيها فيه نص ظني الثبوت أو ظني الدلالة، أو ظنيها معًا، فعلى سبيل المثال: مذهب الإمام أحمد، وهو مذهب يقوم على اتِّبَاع الأثر، ومع ذلك ففيه روايات متعددة في المسألة الواحدة، وكتاب الإنصاف دليل على ذلك، ومثال آخر على الاختلاف بحسب الفهم قضية صلاة العصر في بني قريظة حين قال لهم ﷺ بعد غزوة الأحزاب: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»[٤].

ب ـ في الأحكام التي ثبتت بالكتاب والسنة والإجماع:

ووصلت إلى درجة القطع فهذه لا يجوز الخلاف فيها فهي سياج الأمة، فالمخالف لها يوصف بالفسق وقد ينتهي الأمر إلى الكفر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) التوبة: ١٢٣.

(٣) النور: ٢.

(٤) سبق تخريجه.

جـ ـ الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة:

وهذه يكفر من أنكرها بغير خلاف.

أما مسائل المنهيات فهي كذلك مراتب ودرجات على النحو الآتي:

أ ـ المكروه تنزيهًا: وهو ما كان إلى الحلال أقرب.

ب ـ المكروه تحريمًا: وهو ما كان إلى الحرام أقرب.

جـ ـ المشتبهات: التي لا يعلمهن كثير من الناس، فمن وقع فيها، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

د ـ الحرام الصريح: الذي فصله الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (١)، وهي:

١ ـ صغائر تكفرها الصلاة.

٢ ـ كبائر لابد لها من التوبة، والكبائر تتفاوت إلى أن تكون أكبر الكبائر.

وهنا لا بد من ذكر مراتب الناس من أهل القبلة من الأعمال، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (٢).

١ ـ الظالم لنفسه: المقصر لبعض الواجبات المرتكب لبعض المحظورات.

٢ ـ المقتصد: المقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات.

٣ ـ السابق بالخيرات: وهو الذي لا يكتفي بالواجبات بل يزيد عليها السنن والمستحبات ويتقي المحرمات والشبهات.

هؤلاء جميعًا داخلون في: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾ ، وقد بين الحديث دور الضعف البشري في قوله ﷺ: «إن الله ـ تعالى ـ كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى

(١) الأنعام: ١١٩.

(٢) فاطر: ٣٢.

وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[١].

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[٢]، مراعاة الناس في ترك بعض الأمور لدفع أكبرها وهذا بين من حديث عائشة رضي الله عنها: « أن النبي ﷺ قال لها: لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم»[٣].

ثانيًا: الأخذ في الاعتبار طبيعة الفروق الفردية بين البشر:

مما لا شك فيه أن مستويات فهم الناس للكلام تتفاوت، مع تساويهم من حيث الجملة أمام الرؤية بالعين المجردة، قال ابن الجوزي: «ما أكثر تفاوت الناس في الفهوم، حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير في الأصول والفروع»، لذلك لابد من مخاطبة الناس على قدر أفهامهم، قال ابن مسعود: «ما من رجل يُحدث قومًا حديثا لا تدركه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم».

ثالثًا: اتباع أسلوب المعاتبة في الحوار عند الاحتياج:

من المقرر أن عدم المعاتبة مع بقاء صفاء القلب أولى، ولكن إذا تراكمت في القلب آهات وأنات، وازدحمت في النفس حسرات وزفرات، وشعر الإنسان أن في النفس حسرات وفي قلبه كدرًا، مما قد يتحول إلى حسد وحقد، فعندئذ لابد من غسل الدرن وهذا لا يكون إلا بالمعاتبة، قال أبو الدراء: «معاتبة الأخ خير لك من فقده، ومن لك بأخيك كله».

والأمر فيه توسط كما قيل: الاكتراث بالعتاب سبب للقطيعة وطرح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق، فالمجاملة في كل شيء من التملق، والتصديق على كل قول كل ذلك من التكلف المكروه؛ ولذلك قال الحكماء: «اعرف الرجل من فعله لا من كلامه، واعرف محبته من عينه لا من لسانه».

---

(١)أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢)النساء: ٣١.

(٣)أخرجه البخاري (١٥٨٣)، ومسلم (١٣٣٣) عن عائشة رضي الله عنها.

رابعًا: التسليم في الحوار ببشرية الناس في كونهم خطائين:

ومثال ذلك كثير فعلى سبيل ذلك ابن حزم على ما عنده من فضل ومن علم، ولكنه فضَّل نساء النبي ﷺ: «وبالجملة فهذا قول شاذ لم يسبقه إليه أحد من السلف»؛ وهذا ليبقى الناس في بشريتهم، قال ابن القيم ـ رحمه الله: «إن العالم قد يزل ولا بد؛ إذ ليس بمعصوم فلا يجوز قبول كل ما يقوله وينزل قوله منزلة المعصوم».

المحور الثاني: الالتزام بأخلاقيات الحوار والتي منها:

١ ـ التزام القول الحسن وتجنب منهج التحدي والإفحام:

قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٢)، وقال تعالى في بيان أرقى صور الحوار: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣)؛ وذلك لأن كسب القلوب مقدم على كسب المواقف، وقد تُفحم الخصم ولكنك لا تقنعه، وقد تسكته بحجة ولكنك لا تكسب تسليمه وإذعانه ولذلك لا بد من الابتعاد عن:

أ ـ إغلاظ القول.

ب ـ رفع الصوت أكثر من الاحتياج.

جـ ـ انتفاخ الأوداج.

مثل هذه الأمور لا تأتي في الغالب إلا فيمن ضعفت حجته وقلت بضاعته، وهدوء الصوت عنوان العقل والاتزان، والفكر المنظم والنقد الموضوعي، وهذا هو الأصل، والاستثناء هو اللجوء إلى الإفحام وإسكات الطرف الآخر إذا استطال وتجاوز الحد، وطغى وظلم وعادى الحق، وكابر مكابرة بينة، فهنا قد يسمح بالهجوم

---

(١) الإسراء: ٥٣.
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) سبأ: ٢٤.

الحاد المركز على الخصم وإحراجه من باب «دفع الباطل» وذلك حين يظهر الباطل فيحسن أن يرى الناس الباطل مهزومًا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [2].

ومن القول الحسن: الابتعاد عن ضمير المتكلم لأن الإكثار منه مؤذ لسمع المحاور وقول القائل: فعلت، فقلت، وفي رأيي، ودرسنا، نوع من الإعجاب بالنفس، وكذلك من القول الحسن في الحوار ألا يفترض في صاحبه الذكاء المفرط فيكلمه بعبارات مختزلة، وإشارات بعيدة، فلا يفهم، وكذلك لا يفترض فيه الغباء فيبالغ في الشرح، كما أنه يجب ترك التعصب للرأي في الحوار، والظهور بصور التحدي حيث إن هذا الأسلوب يدفع الآخرين لترك الحق.

٢ ـ الالتزام بوقت محدد في الكلام:

يقول ابن عقيل في كتابه فن الجدل: «وليتناوب الكلام مناوبة لا مناهية بحيث ينصت المعترض للمستدل حتى يفرغ من تقريره للدليل، ثم ينصت المستدل للمعترض حتى يقرر اعتراضه، ولا يقطع أحد منهما على الآخر كلامه، وإن فهم مقصوده من بعضه».

أما الطول والقصر في الحديث فيختلف من ظرف إلى ظرف ومن حال إلى حال، والإطالة من غير احتياج مرجعها إلى أسباب منها[3]:

١ ـ إعجاب المرء بنفسه.

٢ ـ حب الشهرة والثناء.

٣ ـ ظن المتحدث أن ما يأتي به جديد على الناس.

---

(١) العنكبوت: ٤٦.

(٢) النساء: ١٤٨.

(٣) من الخير للمتحدث أن ينهي حديثه والناس متشوقة للمتابعة، مستمتعة بالفائدة، هذا خير له من أن ينتظر الناس انتهاءه وقفل حديثه.

٤ ـ قلة المبالاة بالناس في عملهم ووقتهم وظروفهم.

٣ ـ حسن الاستماع:

قال الحسن لابنه: «يا بني إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام وإن طال حتى يمسك»، وبَيَّن ابن المقفع أشكال ومظاهر حسن الاستماع بأنها:

أ ـ إمهال المتكلم حتى ينتهي.

ب ـ الإقبال بالوجه على المتكلم والنظر إليه.

جـ ـ الوعي لما يقول.

٤ ـ تقدير الخصم واحترامه:

فيخاطب بالعبارات اللائقة والمستحبة، وألا يظن أن الحق لا يغار عليه ولا يحبه ولا يدافع عنه ولا يتبناه إلا هو، وأن ينتبه وهو في دائرة الحوار من حظوظ النفس.

٥ ـ الابتعاد عن العجب:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المدارج: « إنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا».

٦ ـ التجمل بالصبر والرفق:

فلا بد للمحاور من طلاقة الوجه، والتبسم دون تكلف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض ما يُعين على حسن الخلق: «لا بد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرفق معه، والصبر بعده».

ومن مظاهر الرفق في الحوار:

من المقرر: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»[1] .

مظاهر الرفق كثيرة، منها:

---

(١)أخرجه مسلم (٢٥٩٤)، وأحمد (٦/ ١٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٥) عن عائشة رضي الله عنها.

١ ـ التمهيد للأمر بالحسنى.

٢ ـ اجتناب الألفاظ القاسية والعبارات الجافة.

٣ ـ المناداة بأحب الأسماء.

٤ ـ الابتعاد عن التعيير.

٥ ـ الابتداء بالتلميح دون التصريح.

مثال الرفق:

تأمل امتثال موسى لما أُمر به كيف قال لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [1]، فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر، وقال: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل إلى أن أُزكيك، فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء، ثم قال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ (أكون كالدليل الذي يسير أمامك) وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه، ورباه بنعمه صغيرًا ويافعًا وكبيرًا.

وعلى المحاور أن يعرف، أنه ليس المقصود إقامة الحجة على الناس، وإنما دعوتهم للخير ونهيهم عن الشر امتثالاً لأمر الله، والكلمة قد لا تؤتي ثمارها في وقتها، ولكنها تؤتي بعد حين.

٧ ـ الابتعاد عن التطرف بالرأي في الحوار:

أ ـ التعصب للرأي تعصبًا لا يعترف مع الآخرين بوجود.

ب ـ جمود المحاور على فهمه جمودًا لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق، ولا مقاصد الشرع، ولا ظروف العصر.

جـ ـ اتهام من يخالفه في الرأي بالجهل واتباع الهوى كأنما جعل نفسه نبيا معصومًا، ومن قوله وحيًا يوحى، وهذا الشخص يجيز لنفسه أن يجتهد في أعوص المسائل،

---

(١) النازعات: ١٨، ١٩.

ولكنه لا يجيز لعلماء العصر المتخصصين أن يجتهدوا في رأي يخالف ما ذهب إليه.

ومنهج الضياع في الحوار ما يقوله البعض: «من حقي أن أتكلم ومن واجبك أن تسمع، ومن حقي أن أقود ومن واجبك أن تتبع، ورأيي صواب لا يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ لا يحتمل الصواب»، وهذا لا يلتقي بالحوار؛ لأنه جعل نفسه مع الآخرين كالمشرق والمغرب، فهو لا يعرف الوسط ولا يعترف به.

د ـ إرهاب المقابل لا بالعصا بل بالاتهام بالبدع والاستهتار بالدين.

٨ ـ الحوار الهادئ وإعطاء الناس مكانتهم سبيل لكسبهم:

إننا نرى ذلك في قصة حصين الخزاعي والد عمران حين جاء وفد قريش فدخل على النبي ﷺ، فلما رآه النبي ﷺ قال: أوسعوا للشيخ، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك إنك تشتم آلهتنا، فقال ﷺ: يا حصين كم تعبد من إل ه؟ قال: سبعًا في الأرض وواحدًا في السماء، فقال: فإذا هلك المال فمن تدعو؟ قال: الذي في السماء، قال: فيستجيب لك وحده وتُشرك معه! يا حصين أسلم تسلم، فأسلم فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله ﷺ: «شيعوه إلى منزله»[1].

٩ـ استخدام التلميح والتعريض:

التعريض والتلميح من صور القول الحسن، ولذلك كان الغالب في سنة النبي ﷺ في الخطاب: «ما بال أقوام يفعلون كذا ويقولون كذا»[2].

١٠ ـ المداراة في الحوار:

المداراة: هي خفض الجناح للناس ولين الكلام وترك الإغلاظ، وهي غير المداهنة التي هي إقرار لباطل الإنسان من غير إنكار، وفي البخاري حديث بَيَّن

(١)أخرجه الترمذي (٣٤٨٣) عن عمران بن حصين رضي الله عنه بنحوه، قال الترمذي: «غريب»، وضعفه الألباني.

(٢)كما في البخاري (٤٥٦) عن عائشة رضي الله عنها.

مداراة النبي ﷺ فقد ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «ائذنوا له فبئس ابن العشيرة»، فلما دخل ألان له الكلام، تقول عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله، قلت ما قلت ثم ألنت له القول، فقال ﷺ: «إي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء شره»[(١)].

قال لقمان: «يا بني كذب من قال: إن الشر بالشر يطفأ، فإن كان صادقًا فليوقد ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار».

فالمداراة ترجع إلى حسن اللقاء ولين الكلام، وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب أو استنكار... إلا في أحوال يكون الإشعار به خيرًا من الكتمان وأرجح وأصلح، ومن لطيف المنقول في سير المتقدمين المقتدي بهم ما جاء في وصية سحنون لابنه محمد: «اصبر على عدوك وداره فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس»، ويقول محمد بن أبي الفضل الهاشمي: قلت لأبي: لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته؟ قال: أخبئ نارًا وأقدم ودًا.

١١ ـ الخطاب بالحسنى باتباع الخطوات الآتية:

أ ـ سيعمد المحاور إلى لين القول، فلا يحقر ولا يسفه.

ب ـ يتجنب ما يؤلم ويؤذي من الألفاظ النابية مع الحفاظ على الحقيقة، فيبتعد عن التقعر في الكلام، قال ﷺ: «وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة، الثرثارون، والمتفيهقون والمتشدقون»[(٢)]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾[(٣)].

جـ ـ أن يترفع صاحب الموعظة الحسنة عن فضول القول، ولغو الكلام، ويدفع السيئة بالقول الحسن، ويكفكف من غلواء المسيء: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ

(١)أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢)أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الألباني.

(٣)الأحزاب: ٧٠.

ﱡﭐ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ ﱠ(١).

د ـ استخدام التأثير العاطفي بجانب الإقناع العقلي وبهذا يصف العرباض بن سارية رضي الله عنه إحدى مواعظ الرسول ﷺ فيقول: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون... ».

المحور الثالث: وحدة الصف ونبذ الخلاف المذموم:

إن الإسلام ما أكد على شيء مثل تأكيده على الإيمان والأخوة، أو بعبارة أخرى تأكيده على (كلمة التوحيد)، و(توحيد الكلمة) قال تعالى: ﱡﭐ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢ ﱠ(٢)، والخلاف عندما يفقد أخلاقياته يسقط المجتمع فريسة سهلة للتآكل الداخلي، والتنازع والتناحر الذي أورثنا معيشة ضنكًا وذهاب الريح، قال تعالى: ﱡﭐوَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﱠ(٣)، والخلاف منه ما هو مرفوض وما هو مقبول، وسلف هذه الأمة اختلفوا لكنهم لم يتفرقوا؛ لأن وحدة القلوب والغايات والأهداف كانت أكبر من أن ينال منها شيء، والاختلاف حين لا يتجاوز حدوده، وحين يلتزم الناس بآدابه يكون ظاهرة إيجابية لها آثار، منها:

١ ـ التعرف على جميع الاحتمالات التي يمكن أن يكون الدليل أومأ إليها بوجه من وجوه الأدلة.

٢ـ الاختلاف الملتزم بالآداب يعتبر رياضة للأذهان وتلاقحًا للآراء.

وبعد الانتهاء من حديثنا عن أدب الخلاف لابد من التأكيد على الحوار في الدعوة إلى الله حيث إنه هو المقصود الأساسي لحديثنا، والقاعدة في الدعوة والحوار: ﱡﭐ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ ﱠ(٤)، ومن مستلزمات تنفيذ هذه الآية الدعوة بالحكمة، وهذه لها ضابطها قال

---

(١)فصلت: ٣٤.

(٢)الأنبياء: ٩٢.

(٣)الأنفال: ٤٦.

(٤)يوسف: ١٠٨.

جعفر بن محمد بن يعقوب: «كل صواب من القول ورث فعلاً صحيحًا فهو حكمة، والحكمة داخل فيها»:

أ ـ الموعظة الحسنة.

ب ـ الجدل بالتي هي أحسن.

وجامع هذا الأمر قول الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[1]، والعطف هنا من عطف الخاص على العام، وعلى ذلك فلابد للحوار من مداخل، ولن يجد أحسن من الموعظة فهي مدخل للحوار والدعوة، وتقديمها من أجل تليين نفس المخاطب ليستعد لفعل الخير والاستجابة له.

*** تعريف الحكمة:**

مأخوذة من الحكمة بفتح الكاف والميم، وهو ما يوضع للدابة كي يذللها راكبها فيمنع جماحها، ومنه اشتقت الحكمة قالوا: لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال[2].

ويلحظ في التعريف السابق للحكمة أن الموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن داخلان في مفهوم الحكمة، وحتى يكون الجدل بالحسنى لابد من الضوابط الآتية:

١ ـ البعد عن الانفعال.

٢ ـ الالتزام بالموضوعية.

٣ ـ الترفع عن المسائل الصغيرة في مقابل المسائل الكبيرة.

٤ ـ المحافظة على الوقت وعزة النفس وكمال المروءة.

*** وسائل تحقيق الحسنى بالجدل:**

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) انظر: المصباح المنير.

١ ـ التقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [(١)].

٢ ـ الإخلاص: قال الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب إن بعض الناس يدعو إلى الله وهو إنما يدعو إلى نفسه، وضابط الإخلاص كما ذكر الإمام الغزالي في الإحياء: « إن كان يود أن يكفيه غيره فيما فيه نصرة الدين فهو على خير، وإن كان لا يحب ذلك لغيره من أهل العلم والدعوة فما هو إلا متبع هوى نفسه».

٣ ـ العلم: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [(٢)]، يقول الحسن البصري: «العامل بغير علم كالسائر على غير هدى».

٤ ـ التواضع: قال ابن الخارج: «من أراد الرفعة فليتواضع لله ـ تعالى ـ فإن العزة لا تقع إلا بقدر النزول».

٥ ـ الحلم: ولهذا الخلق صور كثيرة منها ما ذكرته كتب التراجم أن زين العابدين ابن على بن الحسين رضي الله عنه خرج من المسجد يومًا، فسبه رجل فانتدب الناس إليه، فقال: دعوه ثم أقبل عليه فقال: « ما ستر الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟»، فاستحيا الرجل فألقى إليه قميصًا كانت عليه وأمر له بألف درهم فكان الرجل إذا رآه قال: إنَّك من أولاد الأنبياء.

والحلم والرحمة خلق قرآني: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ [(٣)].

والحلم سبيل إلى تأليف القلوب، قال علي رضي الله عنه: « القلوب وحشية فمن تألفها أقبلت عليه»، وذلك بتلمس الجانب الطيب في نفوس الناس، والتعطف على حماقاتهم بأمورهم من غير تصنع، وكذلك تحديثهم وحوارهم في أوقات الإقبال، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: « إن للقلوب شهوة وإقبالاً وفترة وإدبارًا، فخذوها

---

(١) الطلاق: ٤.

(٢) يوسف: ١٠٨.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها»، وكل حوار يجب أن يكون في دائرة الحسن ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1].

*** لفتة بين الحكمة والموعظة:**

وصفت الموعظة بالحسنة ولم تقيد بالحكمة؛ لأن الحكمة هي تعليم لمتطلبي الكمال فهذه الأصل فيها الحسنة فلا تحتاج إلى تنبيه، أما الموعظة فالغالب فيها ردع نفس الموعوظ عن أعمال سيئة، أو توقع ذلك منه، فكانت فطنة لصدور غلظة من الواعظ، لحصول الانكسار في نفس الموعوظ مكان التوجيه بالحسنة.

ü ü ü

(١) البقرة: ٨٣.

المبحث الثالث
حـوارات قـرآنيـــــة

يمثل القرآن الكريم خير دليل في الدعوة إلى الحوار، والآيات القرآنية الكريمة مليئة بنماذج الحوارات بهدف الوصول إلى الحق وبيان ضعف ووهن الباطل، ومن هذه الحوارات إخبار الله للملائكة بمشيئته بوجود خليفة في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (1).

فالرب يتفضل على ملائكته بإعلامهم أنه جاعل في الأرض خليفة، والمراد به آدم عليه السلام؛ لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك سائر الأنبياء استخلفهم الله ـ تعالى ـ في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم، وإجراء أحكامه عليهم وتنفيذ أوامره فيهم.

وحاول الملائكة أن يستشفوا الحكمة الخفية عليهم من هذا الاستخلاف مع ما سيترتب عليه من الإفساد وسفك الدماء، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾، وجاءتهم الإجابة الحاسمة التي تقطع كل قول: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا الأسلوب وإن اتخذ طريقة الحوار ظاهرًا إلا أنه في حقيقته إعلام من الله، واستفهام من الملائكة لما خفي عنهم، ثم تسليم ورضًا بما يعلمه الله ـ سبحانه.

ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ﴾ (2)، فهذا نوع آخر من الحوار ليس حوار إعلام ولا استفهام ـ كما سبق ـ وإنما هو حوار إنكار ومجادلة من قوم غير مصدقين بما جاء به نبيهم، فقد أمرهم موسى عليه السلام أن يأتمروا بأمر الله: ﴿إِنَّ

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٦٧.

ﵟاللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖﵞ [(١)]، فما كان منهم إلا أن نكروا هذا الأمر، وظنوا أن موسى يسخر منهم ويهزأ بهم، قالوا: ﵟأَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖﵞ [(٢)]، قال موسى: ﵟأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ الۡجَٰهِلِينَ ٦٧ﵞ [(٣)]، فأبلغ ما لم أؤمر به وأفتري على الله ما لم يقله فأكون من الخاسرين، ويستمر الحوار فيقولون لموسى: ﵟادۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚﵞ [(٤)] ؟ ما سنها وفي أي عمر تكون؟ قال موسى بلاغًا من ربه: ﵟإِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌﵞ [(٥)]، لا كبيرة في السن ولا هي صغيرة، بل هي وسط، فاتركوا اللجاجة، ونفذوا أمر الله: ﵟفَافۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ﵞ [(٦)].

فلم يتركوا اللجاجة ولم يبتعدوا عن الأسئلة بل قالوا: ﵟقَالُواْ ادۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚﵞ [(٧)]؟ فجاءتهم الإجابة على لسان موسى بلاغًا عن الله سبحانه: ﵟإِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ النَّٰظِرِينَ ٦٩ﵞ [(٨)]، فعادوا إلى طبيعتهم في الجدل والمراء فلم يفعلوا ما أمروا به، بل قالوا: ﵟقَالُواْ ادۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا ﵞ [(٩)]، وأظهروا شيئًا من اللين والاستعداد للاستجابة فتابعوا القول: ﵟوَإِنَّآ إِن شَآءَ اللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ﵞ [(١٠)]، أهي بقرة سائمة أم بقرة عاملة، أرشدنا وأجبنا فإنا في حيرة من أمرنا؛ لأن البقر تشابه كله، قال موسى بلاغًا عن ربه: ﵟإِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ الۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي الۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚﵞ [(١١)]، فهي بقرة غير

---

(١)البقرة: ٦٧.
(٢)البقرة: ٦٧.
(٣)البقرة: ٦٧.
(٤)البقرة: ٦٨.
(٥)البقرة: ٦٨.
(٦)البقرة: ٦٨.
(٧)البقرة: ٦٩.
(٨)البقرة: ٦٩.
(٩)البقرة: ٧٠.
(١٠)البقرة: ٧٠.
(١١)البقرة: ٧١.

عاملة ولا عيب فيها، وليس فيها أي لون مغاير للونها.

هنا فقط وبعد هذا الحوار الطويل قالوا لموسى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾[(1)]، فبماذا يوصف ما أتاهم به موسى من قبل؟ فكان جدلهم سببًا في التشديد عليهم، كيف لا وقد جاء في الأثر: «لو ذبحوا أي بقرة كانت لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»، فماذا كانت عاقبة الجدل؟ كان التشديد عليهم وزيادة الأعباء الملقاة على عاتقهم.

*** الظالمون لا ينالون عهد الله:**

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[(2)].

وهذا حوار ثالث فيه امتنان من الله وتفضل، وفيه من أبي الأنبياء رجاء وتطلع إلى امتداد الإمامة في أبنائه، وفيه إبلاغ بأن الظالمين لا ينالون عهد الله، فقد اختبر الله سبحانه وتعالى - وهو عليم بأحوال خلقه - عبده أبا الأنبياء إبراهيم بأوامر ونواه، لإظهار ما عنده من طاعة أو معصية، لا للوقوف على معرفة حاله، فأتم إبراهيم ما أمر به وأداه على النحو الأكمل الأمثل، فأخبره الله بما اختاره له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ ، منة من الله واصطفاء لإبراهيم؛ وهنا يتطلع إبراهيم إلى أن تكون هذه المنة وهذه النعمة (اختياره إمامًا) باقية في ذريته من بعده ينالونها فكان ما أخبر به القرآن: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ﴾ ؟ فجاءت الإجابة: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ إن من ذريتك عصاة وظلمة، لا يصلحون للإمامة، لأنهم لا يقومون بحقها، ولا ينالهم عهد الله؛ لأن الإمام أن يكون من أهل العدل والشرع، فإن زاغ عن ذلك كان من الظالمين الذي لا ينالون عهد الله بالإمامة.

*** الصدق أساس النجاة يوم القيامة:**

---

(١)البقرة: ٧١.

(٢)البقرة: ١٢٤.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [1].

وهذا حوار آخر بين عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ورسوله وعبده وبين الحواريين من جانب ثم بينه وبين الله ـ سبحانه... ويظل الحوار قائمًا مع تبدل الأرض غير الأرض، ومع تغير الزمن إنه حوار في يوم القيامة وينكشف منه توبيخ الذين قالوا: المسيح ابن الله، حيث ينفي المسيح نفيًا قاطعًا ادعاء شيء من ذلك كله، وأنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به، فيأتي التصديق من الله لعيسى عليه السلام وتكون له كبشارة في هذا اليوم الذي ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم، حيث ينالون جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين.

ولنبدأ الحوار الذي دار بعد أن أعلن الحواريون إيمانهم بالله وبرسوله عيسى ابن مريم، وأشهدوا الله ـ على هذا الإيمان، اتجهوا إلى عيسى قائلين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾ ، فهم لم يشكوا في قدرة الله ـ سبحانه ـ على ذلك، وإنما مزيدًا من الاطمئنان، الذي أراده إبراهيم عليه السلام من قبل حين طلب من ربه ما حكاه

(١) المائدة: ١١٢ ـ ١١٩.

القرآن الكريم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾[(١)].

وتأتيهم إجابة عيسى عليه السلام: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[(٢)]، إن كنتم مؤمنين حقًا فدعوا اقتراح الآيات على الله، فإن شأن المؤمن ألا يقترح على الله، وهنا أراد الحواريون نفي الاقتراح عنهم وأنهم ما قصدوا غير أمور تزيدهم قوة مادية ومعنوية وتجعلهم أعوانًا على نشر الدعوة: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[(٣)]، عند من لم يحضرها من بني إسرائيل أو من الناس أجمعين. وكأنما اقتنع عيسى بوجهة نظرهم فاتجه إلى ربه قائلاً: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[(٤)]، مائدة يعتبر يوم نزولها يوم عيد نفرح فيه ونسرّ، ويفرح به ويسرّ من يأتي بعدنا من ذرياتنا (آخرنا) وتكون هي بذاتها آية منك دالة على كمال قدرتك ووحدانيتك، وحجة يصدقون بها رسولك.

والله سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو برحمته وفضله يمهل الجاحدين المنكرين الذين ينكرون الآيات فلا يؤمنون بها، يمهلهم ما داموا لم يطلبوها، فإن طلبوها ثم لم يؤمنوا بها بعد تحقيقها لهم أصابهم العذاب الأليم والخسران المبين: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[(٥)].

ونجد هذا الحوار الذي جرى في زمن عيسى عليه السلام قد استمر في يوم القيامة من غير فاصل زمني أو كلام، إنها نقلة سريعة عجيبة من حوار تثبيت دعوة الله لبني إسرائيل ويقينهم بقدرة ربهم واطمئنانهم إلى صدق عيسى وأنه رسول رب العالمين،

---

(١) البقرة: ٢٦٠.
(٢) المائدة: ١١٢.
(٣) المائدة: ١١٣.
(٤) المائدة: ١١٤.
(٥) المائدة: ١١٥.

إلى حوار بين الله ـ سبحانه ـ وبين عيسى في يوم القيامة، حيث يعلن عيسى بصدق أنه ما بلغ إلا ما أمر الله به، أنه طلب من قومه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[(١)] ، فما كان له أن يَدَّعي أنه إله ولا ابن إل ه، ولكن أتباعه من بعده فعلوا ما لم يأمرهم به مما يعلمه الله، فحق لهم العذاب والخسران والبوار يوم الآزفة، حين يقضي الأمر وهم في حسرة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[(٢)] ، سؤال توبيخ وتقريع لمن نسبوا عيسى إلى الألوهية، حيث يأتيهم هذا التوبيخ خذلانًا فوق خذلان، وزيادة في الآلام وتقطيعًا للآمال، وهل هناك يوم القيامة من لا يعترف بالواحد القهار، وإنه تذكير لهم بجرمهم في يوم يتمنى كل أحد أن يستره ربه ولا يفضحه،كيف بهم وهم يسمعون الملك الديان يقول لعيسى عليه السلام وهو يعلم أنه ما قال وما كان له أن يقول: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[(٣)] ، ولا يكون من عيسى إلاَّ المبادرة والمسابقة بتنزيه الله عن أن يدعي أحد لنفسه ألوهية: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾[(٤)] ، لا أتجاوز قدري، ولا أدعي ما ليس لي: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾[(٥)] ، ثم يتبع كلامه بأنه يعلم أن الله عليم بكل أمر، لا يخفى عليه شيء: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[(٦)] ، إنني - يا ربي - عبد ملتزم بأمرك وقّاف عنده لا أتجاوزه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[(٧)] .

وتأتي نهاية الحوار بقول الله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١)المائدة: ١١٧.
(٢)المائدة: ١١٦.
(٣)المائدة: ١١٦.
(٤)المائدة: ١١٦.
(٥)المائدة: ١١٦.
(٦)المائدة: ١١٦.
(٧)المائدة: ١١٧.

ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾(١)، إنه ثواب الصادقين في أقوالهم وأعمالهم، وفي دعوتهم لقومهم حيث لم ينحرفوا عن أمر الله، وأخلصوا عبادتهم لله، وصدقوا رسوله وآمنوا بكتبه وكانوا حيث يعلمون مرضاة الله وثوابه، لهم النعيم الأبدي والفوز العظيم.

* **حوار إبراهيم مع النمرود:**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾(٢).

وهذا حوار بين أبي الأنبياء إبراهيم وبين طاغوت من الظالمين، ادعى لنفسه الربوبية، إنه نمرود كما جاء في التفسير الذي تجبر وتكبر بعد ما أفاء الله عليه من نعمه وأعطاه من رزقه، وكان أولى به أن يكون شاكرًا لله أنعمه، لا أن يجعل نفسه ربًا، فكفر بنعمة الله فأذاقه الله الخزي في الدنيا، وسوف يلقى جزاءه عند الله يوم القيامة. أرسل الله إليه رسوله إبراهيم عليه السلام، فسأله الطاغوت من ربك؟ قال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو وحده واهب الحياة حين يشاء، ومتوفى الأنفس حين يشاء، لا أحد غيره يفعل ذلك أو يستطيعه، أيفهم ذلك المتبجحون؟ كلا إنهم كابروا في الحق الواضح وزاغوا عنه، وعاندوا بالباطل، وكان هذا موقف نمرود حين قال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾، وأمر الحياة والموت بالنسبة لله سبحانه قضية مسلمة لا تحتاج إلى بيان ولا إلى برهان لأنها مشاهدة كل يوم، ولكنها بالنسبة لنمرود هذا ادعاء باطل مزور، ولذا حاول أن يضع دليلاً على ما يقول، فأطلق سجينًا من سجنه، وادعى أنه أحياه، وقتل بريئًا ـ بغير ذنب ـ وادعى أنه أماته.

وهنا ليس أمام أبي الأنبياء إلا أن ينقل المجادلة إلى مجال بعيد عن المماحكة

---

(١)المائدة: ١١٩.

(٢)البقرة: ٢٥٨.

والافتراء، فقال: ﴿إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾[1]، وأنى لبشر ذلك؟ انكشف الضعف البشري على حقيقته، ونال هذا المدعي البهتان والخسران والحيرة والخذلان، ثم تكون الحقيقة الساطعة التي تعشى أمامها أبصار الظالمين: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[2] فهم في ضلالهم يعمهون، وسيظلون ـ إن لم يتوبوا ـ إلى أن ترهقهم الذلة، حيث لا عاصم لهم من الله.

*** حوار إبراهيم في إبطال عقيدة عبادة الأصنام:**

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾[3]

إبراهيم عليه السلام محطم الأصنام وخليل الرحم ن، كان يرفع راية التوحيد بين قومه عبدة الأصنام والأوثان والكواكب، وأراد أن يحاجهم وأن يجعلهم يقرون هم أنفسهم بفساد معتقدهم وأنهم ما عبدوا إلا مخلوقات لا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها ـ فضلاً عن غيرها ـ موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فحين ستره الله وتغشاه بظلمته شاهد كوكبًا فقال: {هَٰذَا رَبِّي} ألستم تقولون ذلك يا من تعبدون الكواكب فلننظر قليلاً لنر أين هذا الإل ه؟ لقد (أَفَلَ) وغرب وغاب ضوؤه، أي إل ه هو؟!

إن الله لا يغيب، إنه قيوم السماوات والأرض، فكوكبكم هذا الذي تدعونه إلهًا، ليس بإل ه، إني لا أحب الآلهة التي تغيب عن ساحة الشهود، ثم ظهر القمر طالعًا في بدئه، مضيئًا بنوره يرسل ضوءه الساجي على الأرض، فقال مجاريًا المشركين فيما يقولون: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ فغاب وتبين أن ليس به صلة بالألوهية من قريب أو بعيد، فلنر

(١)البقرة: ٢٥٨.
(٢)البقرة: ٢٥٨.
(٣)الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨.

ما يكون من هذا الرب، إنه هو أيضًا يغيب، فكيف يكون إل هًا؟ والله لا يغيب، إني يا قومي لست منكم فيما تزعمون من دعوى ألوهية الكواكب، إني أعلن أمامكم ـ وإنِّي أسخطتكم ـ إن لم تنلني هداية ربي وربكم فإني أكون من الضالين، والذين ظلموا أنفسهم فابتعدوا عن الحق، وحرموا أنفسهم من الخير.

فلنر ماذا يكون من أكبر الكواكب حجمًا وأشدها ضوءًا وأثرًا (يشَّمَّسّ) دعوني أقل معكم: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾(١) أتبقى في الوجود بينة الشهود أم تراها تغيب عن المبصرين، وتأفل مع الآفلين، إنها أفلت يا من تعبدونها فأين إلهكم في حالة غيابه وأفوله وكيف يدير الوجود من يغيب عن الشهود، إني أعلنها صريحة بينكم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾(٢) إني أخلص عبادتي توجهي لفاطر السم وات والأرض ومبدعها، لا أميل عن ذلك ولا أزيغ مع المشركين فبيني وبينهم مفاصلة فليسوا مني ولست منهم إلا أن يؤمنوا بـ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾(٣).

*** حوار مع الشيطان:**

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾(٤).

خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن تسجد له فسجدت، وأبى

---

(١)الأنعام: ٧٨.

(٢)الأنعام: ٧٨.

(٣)الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢.

(٤)الأعراف: ١١ ـ ١٧.

إبليس وهو من الجن، ففسق عن أمر ربه ولم يسجد استكبارًا وتعاظمًا، ويأتيه التقريع والتوبيخ، ويسأله الله وهو عليم بما في خبيئته وطويته مقيمًا الحجة عليه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[1] ؟ وهنا يأتي الإقرار الممجوج: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [2] فإبليس يعترف بأن الله هو الخالق، وأنه وآدم مخلوقان لله رب العالمين، غير أن مادة الخلق ليست واحدة، فإبليس من النار، وآدم من صلصال من فخار، ونسى الملعون أو تناسى أن الله خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وأنه خلق غيره بكلمة (كن): ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [3] ، وأي قيمة لكائن حي مخلوق من مادة معينة يفاخر بها أمام كائن آخر حي مخلوق، ما دام الجميع من خلق الله، ولكنها العصبية البغيضة، التي تعلمها الآدميون من إبليس، حتى صرت ترى أناسًا يفتخرون بأنسابهم على آخرين ممن هم معهم يعيشون بينهم، فأي بلاء يقعون فيه دون أن يدركوا أن رائدهم الكذوب في ذلك هو إبليس الملعون، وهل يمتنعون عن عصبيتهم أم أنهم يفعلون فعل ذلك الشاعر الماجن الذي قال:

إبليس خيرٌ من أبيكم آدم فتنبّهوا يا معشر الفُجار

إبليس من نارٍ وآدم طينة والأرضُ لا تسمو سُمو النار

لقد أقر بما في نفسه وأظهر ما يخفيه فحقت عليه اللعنة وخرج من الجنة صاغرًا ذليلاً، مذمومًا مدحورًا، وستبقى اللعنة تلاحقه وتلاحق أتباعه من بعده إلى أن يستقروا جميعهم في النار وبئس القرار: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾[4]. ومع عصيانه أمر الله فإنه لا يستحي أن يطلب النظرة ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ

(١)الأعراف: ١٢.

(٢)الأعراف: ١٢.

(٣)يس: ٨٢.

(٤)الأعراف: ١٨.

﴿يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾[1] ويأتيه الرد والوعد من الله سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾[2] والله سبحانه أخبر عن نفسه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾[3]. والملعون لسوء طويته وخبثها، وسوء تصرفه بعد أن أخذ وعدًا من الله انطلق يتوعد بني آدم بأنه سيأتيهم من كل جهة ليزين لهم الباطل، ويأخذهم بالإفك حتى لا يشكر الله كثيرون: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[4]، ويكون الوعيد بأن جهنم مثوى الضالين أتباع إبليس الرجيم.

* **حوار إخوة يوسف:**

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾[5].

هذا حوار آخر تلمح فيه روح المشاورة في تدبير المؤامرة، مؤامرة التخلص من ابن يحبه أبوهم حتى لا يجد الأب ما يحبه غيرهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ ووصل التدبير إلى حد القتل، لولا أن واحدًا منهم كان في قلبه رقة وفي قلبه شفقة، فأشار بإلقاء يوسف في غيابة الجب لعل بعض السالكين يأخذه، فلا نكون سببًا في قتله، وانتهى بهم الرأي إلى هذا فاتجهوا إلى أبيهم مستنكرين عليه ألا يأمنهم على يوسف:

---

(١) الأعراف: ١٤.
(٢) الأعراف: ١٥.
(٣) آل عمران: ٩.
(٤) الأعراف: ١٦، ١٧.
(٥) يوسف: ٨ ـ ١٤.

﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾[1]، راجين منه أن يوافق على إرساله معهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[2] وهو في حفظنا ورعايتنا، لم يجد الأب المبرر في عدم إرساله بخوفه أن يأكله الذئب، فأمنوه من هذه الناحية، بأنهم عصبة أقوياء وسوف يرعون أخاهم فلا يغفلون عنه وإلا كانوا من الخاسرين.

فإن هذا الحوار وما بني عليه بداية قصة طويلة حدثت لنبي الله يوسف \ استمر عمرها الزمني سنين وسنين، بيع فيها يوسف وحزن الوالد حتى ابيضت عيناه، وتعرض فيها يوسف للغواية فسجن فما لانت له قناة، ولا استباح ما حرم الله، فمكث في السجن بضع سنين.

سيرة مليئة بالحوار الحي الشخصي والمواقف المؤثرة الدامغة والعاطفة الحقة المتأججة، والحجة العقلية المتمكنة. ومن أراد المزيد فعليه بأحد التفاسير التي عرضت للسورة.

*** الحوار مع فرعون:**

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ

---

(١) يوسف: ١١.

(٢) يوسف: ١٢.

بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

وهو حوار بين نبي الله موسى وأخيه هارون وبين الطاغية فرعون، وفيه تلمح ضياء الحق وقوة الحجة وجمال المنطق في قول موسى، وتلمح هباء الباطل، والتسرع إلى الاتهام بالجنون، والتهديد والوعيد: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾، وتلمح دجل السحرة وإغرائهم بالمال أولاً، ثم تسليمهم وإعلان إيمانهم بهذا الأمر، وتلمح كذلك ميل الجمهور إلى الكفة التي يظنون رجحانها: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾، وتلمح في النهاية خروج الطاغية عن طوره وفقدانه رشده فلا تجد غير التهديد حتى لأتباعه وجنده الذين ظلوا معاضدين مناصرين حتى المشهد الأخير: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[2]، وهل يملك الضالون غير القوة الباطشة بها يضربون، وغير الدينار والدرهم به يغرون، وغير التهم الجاهزة بها الدعاة يرمون.

في هذا الاختصار إيماءة توحي بما كان ينبغي أن تكون فيه من تطويل، ولكنا فقط نرغب في الاتصال بالقرآن، وهذا الإيجاز يكفينا لعرضنا فلا نتركه راغبين في التطويل، ما دمنا قد وصلنا إلى ما نريد.

*** حوار لوط مع قومه:**

---

(١)الشعراء: ١٦ ـ ٥١.

(٢)الأعراف: ١٢٤.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

لقد جمع قوم لوط الكبائر، فأتوا الذكران من العالمين، وقطعوا الطريق على السالكين، وأشاعوا في ناديهم المنكر، ووقف في وجههم لوط محذرًا مما يفعلون، وهل ينفع تحذير مع قوم تجردوا من الحياء وجاهروا بالفحشاء وتسابقوا إلى المنكرات، ولم يعرفوا في حياتهم الخيرات، بأنهم تجردوا للشر فارتكبوه، وحاربوا الطهر والنقاء فلم يعرفوه، فهل يغنيهم النذير: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[2].

ولذا قالوا: أتخوفنا بالعذاب؟ فائت به إن كنت صادقًا، لم يتوبوا عن الضلال ولم يرجعوا عن الخنا والفجور، ولكنهم استهزؤوا بنبي الله فاتجه إلى ربه ومولاه، طالبًا نصرته وحماه: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

ويعلم الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بما سيؤول إليه حال قرية لوط وأن الله سيهلكها لأن أهلها من الظالمين، وإبراهيم يعلم أن في القرية نبيًا من أنبياء الله (لوطًا)، وترد الملائكة مخبرة إبراهيم بنجاة لوط وأهله إلا امرأته فهي من الغابرين الهالكين، وجاءت الرسل إلى لوط فضاق لما سيحدث لهم من قومه، ولكنهم بشروه بالنجاة

---

(١)العنكبوت: ٢٨ ـ ٣٤.

(٢)يونس: ١٠١.

مع أهله إلا امرأته التي ستكون في عداد الهالكين، ثم نزل العذاب على القرية وأمطرت بحجارة من سجيل منضود.

فهل يرعوي الظالمون؟ وهل ينتهي الآثمون؟ وهل يتوب إلى الله العصاة الفاسقون قبل أن يأتيهم العذاب فيجعلهم كعصف مأكول؟ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب... ولكن أين؟!

ü ü ü

الخاتمة

لقد عالج هذا الكتاب مجموعة قضايا تتعلق بواقع الحركة الإسلامية، والواقع الاجتماعي، وأدب الحوار والاختلاف.

ففي فصله الأول: (واقع الحركة الإسلامية) كان الحديث عن الحركة الإسلامية بين الصنمية والصمدية؛ صنمية الأشخاص والرموز، والفروع، والتجديد، وأوهام التصوف الحركي، والإسلام بين الوصايا والغوايا، والإسلام بين دعاة التجديد والتجريد، والحركة الإسلامية بين سيف المعز وذهبه، والحركة الإسلامية بين التمكين والتقدير، ورايات الثبات في حياة الدعاة...

وفي الفصل الثاني: (واقعنا الاجتماعي) كان حديثنا عن الجدية قبل أن تنقرض من حياتنا، وعن بقايا الجاهلية والفوائد الدعوية، وفتنة المجاهرة بالمعاصي، والإسلاميون والثقافة البصرية وئام أم خصام.

وفي الفصل الثالث: (أدب الحوار والاختلاف) عن أن الحوار لغة الحضارة، والتأصيل الشرعي للحوار، وأدب الحوار والاختلاف، ونماذج من الحوارات القرآنية.

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

المراجع

١ ـ أسس الدعوة وآداب الدعاة، د. أحمد السيد الوكيل.

٢ ـ أدب الحوار في الإسلام، د. طه جابر العلواني.

٣ ـ أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، د. يوسف القرضاوي.

٤ ـ بينات الحل الإسلامي وشهادة العلمانيين، د. يوسف القرضاوي.

٥ ـ الحل الإسلامي فريضة وضرورة، د. يوسف القرضاوي.

٦ ـ دعاة لا قضاة، أ. حسن الهضيبي.

٧ ـ الدعوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي.

٨ ـ الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج، د. السيد رزق الطويل.

٩ ـ الرسول والعلم، د. يوسف القرضاوي.

١٠ ـ السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، د. محمد سعيد رمضان البوطي.

١١ ـ طريق الدعوة بين الأصالة والانحراف، أ. مصطفى مشهور.

١٢ ـ عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية، د. يوسف القرضاوي.

١٣ ـ القدوة مبادئ ونماذج، الشيخ د. صالح بن عبد الله بن حميد.

١٤ ـ مذكرات الدعوة والداعية، الإمام حسن البنا.

١٥ ـ مسافر في قطار الدعوة، د. عادل الشويخ.

١٦ ـ مفهوم الحكمة في الدعوة، الشيخ د. صالح بن عبد الله بن حميد.

ü ü ü

الفهرس



هذا الكتاب

يعالج قضايا هامة تمس واقع الحركة الإسلامية من زوايا متعـددة، منـها ما هو فكري، ومنها ما هو حركي تنظيمي، ومنها ما يمس واقعنا الاجتماعي، والكتاب محاولة لإظهار الأمور على حقيقتها، في وضوح وصراحة دون وهم أو خداع.

وقد نعى القرآن الكريم على قوم يسيرون وراء الظنون ويضربون في عماية لا نهاية لها: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يونس: ٣٦.

وينقسم الكتاب إلى: مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة.

الفصل الأول: واقع الحركة الإسلامية.

الفصل الثاني: واقعنا الاجتماعي.

الفصل الثالث: أدب الحوار والاختلاف.

وتحت كل فصل عدة مباحث، وهي تجربة حياة أحببت أن تسهم في دفع عجلة الحركة الإسلامية، ومحاولة سد الثغرات التي تظهر في هذا البناء العتيد.

المؤلف

مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩بلوك ١مكتب ١٢.
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com